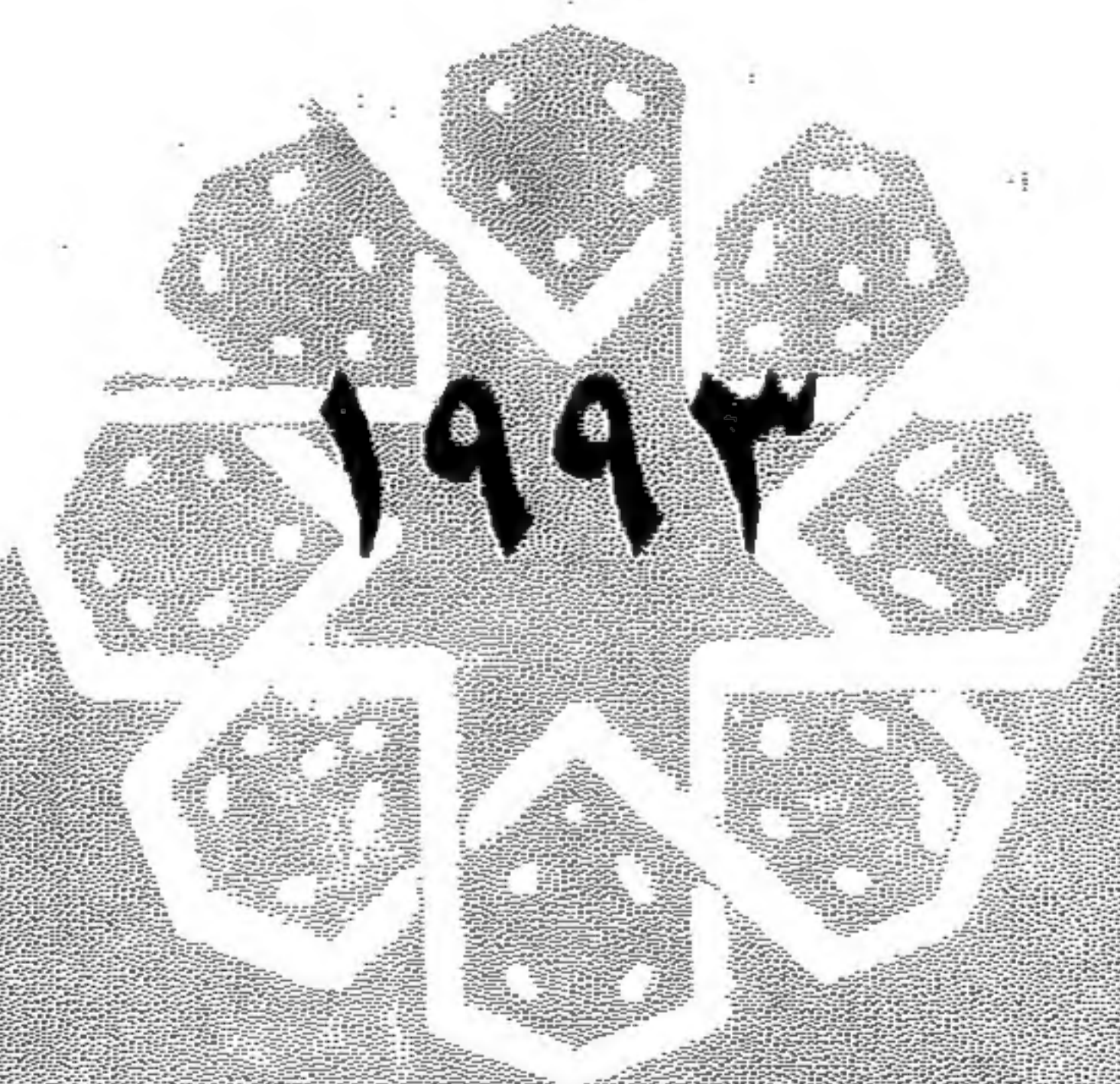


تاريخ الدولة العباسية

دكتورة
نبيلة حسن محمد
أستاذ التاريخ الحضارة الإسلامية المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



دار المعرفة الجامعية
1- من سورينج - إسكندرية
٢٨٣ - ١٦٣ - ٥٤٠

تاريخ الدولة العباسية

وكترة
نبيلة حسن
كلية الآداب جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سويف - مكتبة
ت : ٤٨٣٠١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

"لقد كان في قصصهم عبرة لأولئك الذين"

مدق الله العظيم

قرآن كريم: سورة يوسف آية «١١١»

مقدمة
سجلات الدولة العباسية

الدولة العباسية

سمات الدولة

دالت الدولة الأموية، التي حكمت الدولة العربية الإسلامية من الحاضرة دمشق، وقامت علي انقاضها دولة جديدة تنتمي الي بيت الرسول صلي الله عليه وسلم وهي الدولة العباسية، وارتفعت بنود العباسيين السوداء .

ويعتبر قيام الأسرة الجديدة نقطة تحول خطيرة في دولة الاسلام وذلك أن صبغة الدولة أصبحت إسلامية عالمية بعد أن كانت عربية وأستمرت الدولة العباسية في الحكم حوالي خمسة قرون شهدت الدولة خلالها فترات من العظمة والسؤدد والأبهة، وتمتع الخلفاء اثناءها بكل مظاهر الترف والحضارة كما شهدوا ايضا فترات من الضعف والشدة والبؤس ذاقوا خلالها مرارة اللذ والهوان .

والعصر العباسي الأول يشغل فترة القرون الأولى من هذه الفترة وخلال هذا القرن كان الفرس يحتلون مركز الصدارة في الدولة ولهذا يطلق الكتاب علي هذه الفترة أسم العصر الفارسي أو دولة الفرس . وأعقبت فترة الازدهار والقوة هذه فترة انتاب فيها الخلفاء الضعف الشديد وتغلب عليهم قواد الجيش من الترك وامبح الأمر والنهي في الدولة لقائد الجيوش الذي عرف بلقب امير الأمراء . كذلك شهدت الدولة خلال هذه الفترة التفتت والانقسام السياسي الذي بدأ أول

الأمر في المغرب والأندلس ثم أنتقل إلى المشرق الذي بدأ ينقسم بدوره عن الدولة .

هذه الفترة - أو المرحلة الثانية - يطلق عليها الكتاب اسم العصر التركي أو دولة الترك . وهذه الفترة تنقسم بدورها إلى فترات ساد المشرق فيها بعض العناصر التركية وغير التركية . ففي قبيل منتصف القرن الرابع الهجري فرضت أسرة البويهيين من الديلم وصايتها علي الخليفة في بغداد من سنة ٣٣٤هـ إلى منتصف القرن الخامس الهجري تقريبا وبني بويه هؤلاء كانوا يدينون بالمدب الشيعي ورغم ذلك لم يحاولوا أن يقضوا علي الخلافة السنية بل حافظوا عليها . ولكن قيام دولتهم ساعد علي انتشار الأفكار الشيعية في المشرق . وكان ذلك ايلانا بتحول كل المشرق الإيراني إلى المذهب الشيعي .

وتلي الديلم دولة السلاجقة هم من الأتراك واستمر العنصر التركي يسود الدولة حتي نهاية بغداد علي أيدي المغول . وكان لسقوط بغداد حاضرة الخلافة العباسية أثره الخطير بالنسبة للدولة الإسلامية من الناحيتين الإسلامية والحضارية . فمن الناحية السياسية أنتهت دولة الخلافة وتقسمت الدولة إلى ذلك العدد الكبير من الدول المعروفة في المغرب وفي المشرق وحاول الأتراك العثمانيون أن يعيدوا هذه الوحدة وقد نجحوا إلى حد ما .

أما من الناحية الحضارية فكان سقوط بغداد يعني توقف العلوم والحضارة العربية والإسلامية وتلي هنا التوقف فترة من التدهور

والأصححائل استمرت الي وقت قريب عندما بدأ العرب المسلمون يفتقون من ثباتهم هذا في الوقت الذي كانت فيه أوربا تنهض من الناحيتين السياسية والحضارية فبدأت الفترة الحديثة الحالية في تاريخ الاسلام التي نسميها فترة النهضة .

أما عن السمات التي تميزت بها الدولة العباسية ففي مقدمتها أن الدولة اتخذت سياسة شرقية علي عكس الدولة الأموية التي كانت تتجه في سياستها العامة إتجاهها غربيا والمثل لذلك هو أن بلاد المغرب كانت أول البلاد التي خرجت علي سلطان الخلافة العباسية وبدأت حركة الهد الاسلامي في بلاد المغرب تفقد بعض قوتها، كما بدأ ينكمش أمام ضغط أوربا المتزايد .

وفيما يتعلق بخلفاء الدولة العباسية فقد اعتبروا أنفسهم ورثة النبي صلي الله عليه وسلم الذين يسيرون بالجماعة الاسلامية في الطريق القويم المستقيم . وإذا ما تأملنا في كتب التاريخ نجد أن الكتاب يؤكدون حرمة وقداسة الخليفة العباسي سليل بيت النبوة بينما يظهرون خلفاء بني أمية بمظهر الزعماء غير المتدينين وبيالغون في وصف رذائلهم . ويمكن أن نفسر ذلك بأن معظم الكتاب الذين كتبوا عن تاريخ الدولة الأموية انما دونوا مصنفاتهم تلك علي أيام العباسيين ولهذا السبب لانتوقع منهم ان يسجلوا امجاد اسرة أنمحت واندثرت . ومودة الخليفة العباسي عند هؤلاء الكتاب أشبه ماتكون

بصورة كسري فارس فهو يتمتع بكثير من الآبهة والفخامة والرونق والعظمة، كما تحيط به مظاهر الترف والتحضر. فقد زخر بلاط الخليفة بأهل العلم والفقه ممن يتصفون بالورع والتقوى، الي جانب الأدباء والمغنين والشعراء والأطباء الأعيان، والقضاة، وكذلك المشعوذين والمنجمين. وشهدت كما يقول ديمومبين ليالي بغداد الساحرة محافل الخلفاء ومجالسهم، فبعد صلاة العشاء الورعة تنشد الأغاني وتدار كلوس الراح خلال ذلك. ويعطر الجو بأنسام عبقة تتصاعد من المبخرات يختلج علي رنين قطرات الينابيع ويهتز الجو طربا للأصوات القوية المفردة المنبعثة عن أفواه المغنيات والحن الأعواد. وقد يعترض هذه الحفلات اليومية حادثة غير متوقعة فتكسبها طرافة كاستجواب سجين لبق ذي فصاحة منحة او زيارة ناسك متمسول ذي كبرياء ولطافة وقد يحز رأس بينما تدور الاقتراح وتقترب الليلة من نهايتها، فيثقل العمر قلوب النشاي وتنهل الدموع وقد ينشد شاعر قصيدة ينعي فيها العمر القصير. وفي الختام يبرز الفجر بأضوائه والتمهية فيؤدي صلاة الصبح أولئك الذين فيهم بقية من وعي بخشوع وتقوى. أنها حياة ملأى بالاحاسيس عذبة رقيقة. أنها حياة ملأى بالاحاسيس عذبة رقيقة معا، تحفل بالفظاظة ورقة الطبع في أن واحد نجد مثيلا لها لكن بصورة أوضح واعنف، وذلك في عصر النهضة الأوروبية. وقد ورد وصف هذه الحياة الحافلة في ألف ليلة وليلة والأغاني، ومروج الذهب، وفي روايات المؤرخين وقصائد الشعراء. ولكن وراء هذا الوجه

الرومانيكي للحياة يعيش شعب بينهم من يفكر . . وقد شهد القرن الثالث الهجري [التاسع الميلادي] قمة جهود المسلمين لفهم ذات الله والانسان والحياة، والتوفيق بين العقل والنقل . وكان عصر ازدهار الادب العربي كذلك، وبداية احياء آخر للفن الاسلامي بصورة فعالة . وفي هذا العصر كذلك نجد كل امكانيات الازدهار العقلي والمادي قد تحققت بوضوح . وفي السنوات الأخيرة من هذا العصر باللات آذنت الساعة بزوال وتفسخ هذا المجد [١] .

(١) انظر، جود فرواديهومبين، النظم الاسلامية، عرجبه الدكتور فيصل السامر، الدكتور صالح الشماخ، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٦١، ص

الفصل الأول

التعريف ببعض المصادر

التعريف ببعض المصادر

ونتكلم الآن عن المصادر التي يرجع اليها لدراسة هذا التصور
نبدأ بالإشارة إلى أن المصادر التي يرجع اليها لدراسة تاريخ العرب
والإسلام تنقسم إلى قسمين كبيرين: الأول منهما هو المصادر التي
تتصف بالأصالة أو التي لا يتطرق اليها الشك وإن تطرق فإلى حد
محدود وهذه المصادر الأصلية تنقسم إلى أنواع فالأول منها هو
الأوراق الرسمية أو الأوراق الحكومية وهي التي تعرف باسم
الوثائق أو الأرشيف وهذه قليلة نادرة وما وصل إلينا منها لا يكفي
لكتابة التاريخ الإسلامي، بشكل يمكن أن ترضي عنه وهذه هي نقطة
الضعف بالنسبة لمؤرخ التاريخ الإسلامي بوجه عام وذلك أنه يضطر
إلى الرجوع إلى مصادر من الدرجة الثانية مثل: روايات المؤرخين
من معاصرين ومحدثين ويمكن أن نفسر ندرة الوثائق التي وصلتنا
من العصور الإسلامية ونرجعها إلى عدة أسباب نشير منها إلى قلة
الورق وغلاء ثمنه. فالمعروف أن الورق الذي استخدم في العصور
الأولى هو المصنوع من نبات البردي وكان يعرف باسم القراطيس أو
القراطيس وذلك قبل أن تعرف صناعة الورق الرخيص المعتاد الذي
عرف باسم الكاغد والذي دخل بلاد الإسلام منذ منتصف القرن الثاني
الهجري [القرن الثامن الميلادي].

ومن هذه الاسباب ايضا عدم انتشار الكتابة بالشكل الذي آلت اليه في العصور الحديثة حتي أن الكثير من الأوامر الحكومية وكذلك المعاملات بين الأفراد كانت تتم شفاهة دون حاجة الي التسجيل . والي جانب هذا يمكن الإشارة الي الاضطرابات السياسية التي ألهمت بالدولة الإسلامية والعداء المرير الذي كانت تكنه الأسر الحاكمة الجديدة للأسر السابقة عليها مما كان يدعوها الي العمل علي محو أثارها والقضاء علي مخلفاتها .

هذا كما يمكن الإشارة الي الظروف الاجتماعية في تلك العصور القديمة والتي لم تكن تعمل علي سلامة حفظ الأوراق الرسمية التي كانت تذهب ضحية للاهمال وعدم الرعاية، الي جانب الكوارث مثل الحريق وغامة بسبب استخدام الشموع والمواقد الزيتية من اجل الإضاءة او القراءة ليلا .

النقود

بعد ذلك نشير الي النقود وهي تعتبر ايضا من الوثائق الأصلية وذلك بسبب النقوش التي تحملها والتي تتمثل في أسماء

الأمراء والقابهم وكذلك في العبارات المنقوشة عليها سواء كانت سياسية أو دينية إلى جانب تاريخ شك العملة، واسم البلد الذي ضربت به. فهذه المعلومات لها أهمية تاريخية هنا إلى جانب أهمية النقود من الناحية الاقتصادية والتي تتمثل في أنواع المعادن الثمينة المستخدمة في ضربها ومدى نقاء السبيكة الذهبية أو الفضة ومن هنا تصبح قوائم النقود الموجودة في المتاحف الخاصة في العالم من المراجع القيمة التي لا يستغني المؤرخ المحدث عن الاستفادة منها.

النقوش

يأتي بعد ذلك النقوش الموجودة على الآثار وعلى اللوحات التذكارية القديمة أو الشواهد القبور وغيرها. وهذه تحتوي مثلها مثل النقود على مادة أميلة بل هي أغني من النقود طبيعة حجمها وتنوع مادتها.

الآثار

وتأتي بعد ذلك الآثار وهي مثل النقود من حيث الأهمية الكبيرة بسبب أصالتها وذلك أنها شواهد مادية للعصور التي أقيمت فيها وهي تنقسم إلى معمارية وزخرفية.

وتتمثل الأهمية التاريخية لأثار من حيث أنها تعطي فكرة صحيحة عن طبيعة العصر الحضارية من الناحية المادية مما يعجز الوصف عن التعبير عنه مهما بلغ من الدقة والأمانة . ورغم التقيب المستمر علي الوثائق والنقود والآثار . ورغم اهتمام الدارسين بذلك فإن ما وجد من العصور الإسلامية منها بشكل عام ومن عصر صدر الإسلام بصفة خاصة لا تكفي لكتابة تاريخ مؤثق لهذه الفترة . وبناء علي هذا فلا يبقني أمامنا إلا كتب المؤرخين القدماء من معاصرين ومتأخرين .

ثم نتناول بعد ذلك مصدر من أهم المصادر التي تناولت الدعوة العباسية وهو كتاب أخبار الدولة العباسية ولله أخبار العباس وولده وهو المؤلف من القرن الثالث الهجري .

وهذا العنوان «أخبار الدولة العباسية» يرجحه الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري محقق المخطوط - وكلمه "دولة" هنا كما يقول الدوري، "لا تعني بالضرورة الكيان السياسي المفهوم . بل أن مؤلف "أخبار العباس وولده" استعملها بمعنى "دعوة" إذ يقول : "أن إبراهيم الإمام بن محمد أوصي أبا العباس عبد الله بن محمد بالقيام بالدولة، وأمره بالجد والحركة، وأن لا يكون له بالحميمة لبث ولا عرجة حتي يتوجه الي الكوفة" بناء علي الدراسة المقارنة

التي عقدها بين مخطوطه هذا، والقطعة المصورة من مخطوط بعنوان "نبذة من كتاب التاريخ للمؤلف المجهول من القرن الحادي عشر" التي نشرها الأستاذ غريان نيوبج مع ترجمة وتعليقات بالروسية ثم نشر المخطوط كله مصورا بعنوان "تاريخ الخلفاء" للمؤلف المجهول من القرن الحادي عشر وهذا الكتاب مهم لملته الوثيقة بمخطوط - الدكتور الدروي - وللضوء الذي يلقيه علي بعض مشكلاته.

وفقد الأوراق الأولى من المخطوط كما يقول المحقق حرمانا ثم أسم المؤلف. ولكن دراسة أسلوب الكتاب ومصادره. تدل علي أنه كتب في أواسط القرن الثالث الهجري فهو في الأساس كتاب اخبار يعني بايراد الاسانيد ويلتفت الي اختلاف الروايات. ومع انه يراعي تسلسل النسب في اطاره الا انه لم يحافظ بدقة علي خط كتب الانساب. اذ أنه لايعني الا بالابن الأكبر. كما ان الاهتمام الخاص بالاسناد يبين الاثر الواضح لمدرسة اهل الحديث في الأسلوب.

وتتنوع مصادر معلومات الكتاب حسب طبيعة الموضوع، وتدل علي جهد واسع في جمع الروايات. فقد اخذ المؤلف جل معلوماته عن الدعوة من روايات شفيوية واخذ من مؤرخين سابقين، والفرد بايراد وثائق ومعلومات هامة.

أخذ مؤلف "الاخبار" عن مؤلفين معروفين سبقوه من اخباريين،
مثل ابي مخنف [توفي ١٥٧هـ / ٧٧٤هـ] وعوانه بين الحكم
[توفي ١٤٧هـ / ١١٩هـ] والهيثم بن عدي [توفي ٢٠٦ -
٢٠٧هـ / ٨٢١ - ٨٢٢م] والمناذري [توفي ٢٣٥هـ / ٨٥٠م] وعن
مؤرخين كالواقدي [توفي ٢٠٧هـ / ٨٢٣م] ونسايين مثل هشام بن
محمد بن السائب الكلبى [توفي ٢٠٤ - ٢٠٦هـ / ٨١٩
- ٨٢١م] ومصعب الزبيرى [توفي ٢٣٥هـ / ٨٥٠م] وغيرهم مثل
محمد بن سلام [توفي ٢٣١هـ / ٨٤٠م] واتصل بمعاصريه واخذ
عنهم مثل محمد بن شبة [توفي ٢٦٢هـ / ٨٧٥م] والعباس بن
محمد بن محمد الدوري [توفي ٢٧١هـ / ٨٨١م] والمبرد [توفي
٢٨٥هـ / ٨٩٨م] وقد اخذ روايات المعاصرين باسانيدها، وخير مثل
لذلك ما رواه عن البلاذري فهو يعطي روايات باسناد متصل، ولذلك
تختلف سلسلة الاسناد احيانا عما جاء في كتاب انساب الاشراف
للبلاذري، او يعطي اسنادا حين لا يوجد اسناد في رواية استاب
الاشراف، او يورد لها يختلف لحد ما عن النص الوارد في انساب
الاشراف مما يدل على انه روي عنه مباشرة.

وانفرد المؤلف بمعلومات عن بداية الدعوة [حتى سنة
١٠٠هـ] وعن بعض احداثها واسرارها، كما أورد قوائم مفصلة

باسماء النقباء والدعاة في خراسان ومراتبهم وتنظيماتهم ويبدو انه اخذها من الحلقات الداخلية لرجال الدعوة، اذ استقي الكثير منهما من رؤساء الدعوة من الدعاة البارزين فيها . والظاهر ان اعتباره عن نشاط ابي مسلم في خراسان وعن نشاط المسودة العسكري بقيادة قحطبة وانتصاراتهم، تعتمد علي هذه المصادر وعلي اناس متصلين بالحلقة العباسية مثل ابي اسحق بن الفضل الهاشمي كما اخذ بعض معلوماته عن افراد من لاسرة العباسية مثل عيسي بن عبد الله وعيسي بن موسى وعيسي بن علي وابراهيم بن المهدي والرشيد .

واعطي المؤلف صورة داخلية لطبيعة الدعوة واحاديثها، وكشف عن جذور الغلو فيها، مما لايتناسب العباسيين بعد مجيئهم للحكم، وهذا يجعل بعض محتويات الكتاب اقرب الي الوثيقة السرية منها الي كتاب للجمهور .

وكل هذا يشير الي صلة خاصة للمؤلف بالعباسيين واتباعهم، ومصادر الكتاب كما يقول الاستاذ الدكتور الدوري تجعلنا نحدد زمن تأليفه باواسط القرن الثالث الهجري . ويحيل الي نسبة الكتاب الي محمد بن صالح بن مهران [ابن الطلاح] توفي سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٨م ومع ان الاشارات الي ابن الطلاح تجعله اول من صنف كتابا في اخبار الدولة .

ويقول الدكتور الدوري ويدفعنا الي هذا الافتراض عدة أمور:
فابن النعمان مولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس،
وهذا الولاء يجعله علي صلة وثيقة باخبار العباسيين وكان ابن
الطلاح، اخباريا ناسبا رواية للسنن، وهي عين للمؤلفات التي يكشف
عنها اسلوب "اخبار العباس وولده". وكان من بين من روي عنهم
ابن الطلاح الواقدي والمدايني.

هذا ان الي عنوان كتابه هو "اخبار الدولة العباسية".

اما محتويات الكتاب فهي علي النسق التالي:

- يبدأ بالكلام عن موت العباس بن عبد المطلب
- ثم اخبار عبد الله بن العباس.
- اخبار علي بن عبد الله بن العباس.
- اخبار محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.
- اخبار ابراهيم بن محمد بن علي الامام
- خبر ابي مسلم وابتناء امره
- مسير قحطبة بن شبيب بالجنود الي العراق
- ظهور ابي سلمة بالكوفة.

وينتهي اخباره بوصول وصية ابراهيم الامام الي اخيه ابي
العباس.

وقد قام بتحقيق الكتاب الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور
عبد الجبار المطلبي وطبع في بيروت، سني ١٩٧١.

كتب التاريخ العام

واول الكتب التي نشر اليها هو كتاب تاريخ خليفة بن خياط
المتوفي في سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م وخليفة من قدامي المؤرخين
الثقات، وصاحب اقدم رواية تاريخية وصلت الينا، وهو يسبق
تاريخ الطبري باكثر من نصف قرن.

وهو خليفة بن خياط العصفري البصري، المعروف بشباب.
تلقى العلم علي علماء بلدة البصرة، والبصرة كانت في القرن
الثالث الهجري مركزا هاما من مراكز اشعاع الثقافة العربية
الاسلامية الخاصة في علوم اللغة والحديث والسيرة والتاريخ.

في هذا البلد العثماني الهوي، شب خليفة ونشأ وتعلم وهو

ينتمي الي اسرة لها مكانتها العلمية فجدّه اسمه خليفة ايضا كان من ثقات رجال الحديث عند البخاري وابن ابي حاتم الرازي صاحب كتاب "الجرح والتعديل" وقد اخذ خليفة العلم عن عدد من الشيوخ في مقدمتهم يزيد بن زريع، ويزيد هذا من ثقات اهل البصرة مع ميول عثمانية كما وصفه ابن سعد في طبقاته. كما سمع ايضا من سفيان ب عينية وابن مهدي وهشام الكلبي وعلي بن محمد الهذلي واخرين. ومات في سنة ٢٤٠هـ ٨٥٤ م عن عمر يناهز الثمانين عاماً.

مؤلفاته

صنف خليفة حسبما ذكر ابن النديم في الفهرست اربعة كتب، كتاب التاريخ، وكتاب طبقات القراء "وكتاب" تاريخ الزمني والعرضي والعميان وكتاب اجزاء القرآن واعشاره واسباعه واياته.

ويكاد يجمع علماء الحديث علي ان خليفة كان من الثقات وقد وثقه البخاري في تاريخه الكبير عندما ترجم له وكذلك فعل الذهبي في "تذكر الحفاظ" و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال" وسير اعلام النبلاء.

منهجه في الكتابة

وكتاب "تاريخ ابن خياط" يؤرخ لفترة من تاريخ الاسلام تمتد حتي سنة ٣٣٢هـ والكتاب مرتب علي طريقة السلويات وخليفة مؤرخ محدث فهو يعتني بسلسلة الاسناد أي الرواة الذين رووا الخبريل يذهب في ذلك الي اللذين شهدوا الاحداث.

وقد بدأ تاريخه بالكلام عن بداية التاريخ: ثم ثني ذلك بالحديث عن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم اخذ يورد اخبار كل سنة علي حدة ابتداء من السنة الاولى للهجرة ذكرا اهم ماجري فيها من احداث حتي اذا انتهى من ذلك ذكر من ادركتهم الوفاة في تلك السنة، ومن اقام الموسم. وبعد ان ينتهي من الكلام عن عهد خليفة من الخلفاء يتبع ذلك يذكر من ولوا كل اقليم من اقاليم الدولة علي عهده ثم من تقلد خطة القضاء في الامصار وخاصة في المدينة ومكة والبصرة والكوفة، وقد يورد احيانا من تقلدوه في الشام وبعد ذلك يذكر من تولوا حجاب الخليفة والشرط والكتابة وبيوت المال، والخاتم، والبريد، ثم يورد اسماء الرسل [أي السفراء] وهي معلومات ثمينة قيمة لدراسة تاريخ النظام الاداري والقضائي في تلك الفترة.

ويحتوي الكتاب علي احصاءات لاتوجد عن غيره لان منهج خليفة انه بعد الحديث عن كل وقعة هامة مثل : بدر واحد، والحره وغيرها، يورد اسماء من استشهدوا في تلك المواقع.

وقد روي خليفة عن ائمة الرواة الثقات كالوليد بن هشام، ويزيد بن زريع والمدايني.

ومن الجدير بالملاحظة ان خليفة قد اهتم اهتماما خاصا بالاحداث الخارجية في دولة الاسلام وفي تاريخه نجد تاريخ لوفيات كثير من ائمة الحديث ورجال الفكر والادارة والحكم.

وبعد خليفة يأتي الطبري [ابو جعفر محمد بن جرير، ولد في اواخر سنة ٢٢٤هـ/٨٣٩ م في مدينة امل وهي في بلاد طبرستان ومن هنا نسبته الطبري وتوفي في ٢٦ شوال سنة ٣١٠ هـ: ١٦ فبراير ٩٢٣م] وللطبري عدد من المؤلفات يهمنها منها كتاب "تاريخ الرسل والملوك" او تاريخ الامم والملوك" ولما كان الطبري من كبار الفقهاء المشتغلين بالقران والسنة حتي ان اشهر مؤلفاته هو "تفسير الطبري" فاننا نلاحظ انه ينهج نهج المحدثين في كتابته للتاريخ فهو يورد الروايات التاريخية مسبوقة باسنادها الذي يرجع في بعض الاحيان الي شهود عيان هنا الي جانب

انه يعطي للحدث الواحد اكثر من رواية وهو نزيه يظهر بمظهر
المحايد الذي لا يرجح رواية علي غيرها . هذا ولقد سار الطبري
بدوره في تاريخه علي طريقة الحوليات اي السنوات .

وبعد كتاب الطبري نذكر كتاب ابن الاثير المعروف باسم
"الكامل في التاريخ" وابن الاثير متوفي سنة ٦٣٠هـ . يلاحظ ان
ابن الاثير ينقل كتاب الطبري فيلخصه فيما يتعلق بالقرون الثلاثة
الاولي ثم انه يضيف اليه ويكملة حتي سنة ٦٢٨هـ . ورغم انه
يلخص الطبري الا انه يعتبر مرجعا اساسياً حتي بالنسبة للفترة
القديمة من صدر الاسلام وذلك بفضل ما يظهره ابن الاثير من
المقدرة لعى النقد والتمحيص واكمال الموضوعات التي وجدها ناقصة
عند الطبري ولذلك يعتبر كتاب ابن الاثير مهما ليس بالنسبة
للتاريخ الاسلامي العام بل بالنسبة لتاريخ الاقطار الاسلامية المختلفة
سواء كانت في اقصى الشرق او في اقصى الغرب .

بعد ذلك ننتقل الي الكلام عن كتاب "البروديوان المبتدا
والخير في اخبار ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من
لوي السلطان الاكبر " لابن خلدون وابن خلدون ولد في تونس في
سنة ٧٣٢هـ ودرس علي عدد من العلماء التونسيين والمغاربة
وعمل في خدمة ملوك الحفصيين في تونس وكذلك بني عبد الواد

في تلمسان ويني مرين في فاس وبني الاحمر النصريين في غرناطة
ثم رحل الي المشرق ووصل الي الاسكندرية ومنها الي مصر سنة
١٧٨٣/٧٨٤م [في سلطنة الظاهر] وجلس للتدريس في الجامع
الازهر وولي قضاء المالكية بمصر سنة ٧٨٦هـ ثم عزل عن القضاء
وتوجه لقاء فريضة الحج سنة ٧٩٠هـ وبعد ان قضي فرصة رجع
الي القاهرة وقضي بقيه ايامه عاكفا علي قراءة العلم وتدريسه ومات
في القاهرة في ٢٥ رمضان سنة ١٧٨٠/١٧ مارس ١٤٠٦م.

ويعتبر كتاب ابن خلدون من أهم المصادر وذلك لسبين
المعروفين اللذين يختص بهما ابن خلدون واولهما ملكة المؤرخ
العبري الموهوب التي جعلته يفهم التاريخ بمعناه الحقيقي الشامل
الذي يتلخص في ان الحدث التاريخي اكبر من أن يكون حدثا
سياسيا فقط بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية
والجغرافيا والاقتصادية والاجتماعية وكذلك النفيسة ايضا وهذا
مادعا ابن خلدون الي الكلام عن كل هذه الفنون في المقدمة حتي
جعل مفهوم التاريخ اشبه مايكون بمفهوم الحضارة اي جعله تاريخا
للأمم والشعوب بدلا من سير الملوك والأمراء او طبقات الاعيان
وهذا ماسماه البعض "فلسفة التاريخ" وهو في الحقيقة ليس الا
التاريخ كما ينبغي ان يكون.

كذلك لابن خلدون نظريات في التاريخ من هذه النظريات: نظرية ان الدولة مثل الفرد تمر بعدة مراحل: اولها مرحلة النشأة والطفولة ثم مرحلة الشباب والفتوة والقوة واخيرا تأتي مرحلة الشيخوخة التي يعقبها انهيار الدولة . وهو ينص علي نظرية اخري في قيام الدولة هي نظرية العصبية فهو يرى ان الدولة تتركز علي عصبية والعصبية عند ابن خلدون هي تلك الروح التي تدفع الجماعة من الافراد او اعضاء القبيلة نحو الالتفاف حول زعيمهم لاجضاع الجماعات او القبائل الاخرى لتكوين الدولة . وتظل الدولة قوية متماسكة طالما ظلت عصبيتها قوية متماسكة فاذا ماضعت العصبية وانحلت الدولة لكي تقوم عصبية جديدة . بانشاء دولة جديدة . ويظهر نبوع ابن خلدون في هذه النظريات التي قننها لقيام الدول الي جانب انه نص علي مسألة المنهج التاريخي الذي ينبغي علي النقد فهو يطالب المؤرخ بان يعرض الروايات المختلفة للنقد ويقابل بينها وذلك علي اساس من العقل والمنطق وبناء علي هذا النقد فهو يرجع الرواية الصحيحة علي الرواية الموضوعية ولهذا السبب نجد انه يعطي نماذج لها يمكن ان يلحق بالتاريخ من الوضع والامطناع ويعطي امثلة للروايات الاسطورية التي تحيط بتاريخ بني اسرائيل كما انه يحاول ان ينقش الروايات المختلفة التي نسجت حول الامويين مثل معاوية او عبد الملك بن مروان كذلك الروايات المشبوهة التي نسجت حول هارون الرشيد واخوته العباسية .

ونلاحظ ان ابن خلدون لم يستطيع ان يطبق قواعد النقد هذه عندما بدأ يكتب تاريخه فخرج تاريخه اشبه مايكون بالتواريخ التقليدية السابقة، هذا ولو انه أظهر موهبة في النقد وترجيح الروايات في بعض الأحيان.

وبعد ذلك ننتقل الي الكلام عن المسعودي المتوفي سني ٣٤٦هـ في مدينة فسطاط مصر ويعرف كتابه باسم "مروج الذهب ومعادن الجوهر" ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الهامة ليس لقدمه فحسب ولكن اطلاق المسعودي وسعه معلوماته التي اتت الي جانب الدراسة والقراءة لتجوله في مختلف البلدان اذ طوف المسعودي خلال اربعين سنة بفارس والهند والصين وسواحل شرق افريقيا والشام وذلك قبل ان يقدم الي مصر حيث توفي بها . ويفضل اسفاره ودقة ملاحظاته جمع اخباراً عن البلدان والشعوب والملاهب والعادات والتقاليد لانجدها في غيره من كتب المؤرخين . ولقد تنبه المسعودي الي اهمية عامل البيئة في مسيرة الاحداث السياسية وهو لهذا السبب يهتم بالجغرافية الطبيعية والبشرية في مقدمة الكتاب وهو بذلك يعتبر النموذج الذي حلل حله ابن خلدون ومع ان المسعودي يتبع في كتابه طريقة الحوليات الا انه يمزج بينها وبين الترتيب الموضوعي فهو يفرد بابا لكل دولة ويخصص فصلا لكل امير او حادثة فلا يفقد الموضوع وحدته . ويهتم بحياة الناس

وخاصة افراد الطبقة العليا في المجتمع: من الخلفاء وكبار رجال الدولة ومشاهير العلماء والشعراء كما لا يهمل القصص الشعبي ولا الروايات الطريفة، وهو لكل ذلك يعطي نوعا من الحياة والطرافة لتاريخه وان كان المسعودي يخرج بهجه هذا علي اصول البحث وتحري الحقيقة . ولهذا السبب فرغم ما يحتويه الكتاب من معلومات تاريخية قيمة الا انه ينبغي ان تؤخذ هذه المعلومات بشئ من الحر وان تعرض للتواعد النقد .

ولكثرة المعلومات الجغرافية التي يحويها الكتاب نجد ان بعض الباحثين يضعونه بين كتب المكتبة الجغرافية العربية - هذا لوان للمسعودي كتابا خاصا في الجغرافيا عنوانه كتاب "التبويه والاشراف" هذا كما يمكن الاشارة الي انه بسبب كثرة المعلومات الادبية واهتمام المسعودي بالشعر يمكن ان يوضع الكتاب بين المؤلفات الادبية والحقيقية ان الكتاب يعتبر موسوعة كبرى تعالج الكثير من العلوم والفنون الي جانب التاريخ والجغرافيا .

هذا ويمكن ان نضيف الي قائمة كتب التاريخ العام هذه مؤلفات المؤرخين المصريين من امثال المقرئزي المتولي في سنة ٨٤٥هـ والذي كان تلميذا لابن خلدون . وابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهري المتولي ٨٧٣هـ والسيوطي المتولي في اوائل القرن

العاشر الهجري صاحب كتاب [تاريخ الخلفاء] هنا الي جانب امحذب
الموسوعات التاريخية والجغرافية والأدبية مثل القلقشندي صاحب
كتاب صبح الأعشي في صناعة الإنشاء " والنوير صاحب كتاب "
نهاية الأرب في فنون الأدب" وكذلك كتاب العمري المعروف باسم
مسالك الأبحار في معالك الأمصار " .

كتب الجغرافيا العربية

وبعد هذا ننتقل الي لون جديد من الكتب هو مجموعة كتب
الجغرافيا العربية وكتب الجغرافية مهمة بالنسبة لدراسة الموضوع
وذلك للملة الوثيقة بين التاريخ والجغرافية فالجغرافية العربية
كانت وثيقة الملة بالتاريخ وبمرور الوقت انفصلت عنه اتصالا غير
تام علي كل حال فاحتفظت كتب الجغرافية بالكثير من المعلومات
التاريخية كما ظل الجغرافيون العرب يكتبون في التاريخ والجغرافية
جميعا والمثل لذلك اليعقوبي وابو الندا .

والجغرافية العربية تنقسم الي نوعين - اولهما الجغرافيا
الرياضية وتضم فرعين هما علم الأطوال والعروض، وعلم تقويم
البلدان .

وثانيهما الجغرافية الادبية، او الوصفية وتشتمل علي فرعين هما: علم المسالك والممالك وعلم عجائب البلدان.

واهمية كتب الجغرافية في أنها تكمل كتب التاريخ التي اهتمت بالاحداث السياسية بشكل خاص - من حيث اهتمامها الي جانب وصف الاحوال الطبيعية والبيئية بامدادنا بمعلومات ذات طبيعة متنوعة منها الاقتصادية والاجتماعية وما يختص بعادات الشعوب وتقاليدها مما لا يستغني عنه المؤرخ المحدث ولقد عرف الاوربيون ما للمكتبة الجغرافية من اهمية فاعتنوا بنشرها في اوربا منذ اكثر من مائة عام تحت اسم "المكتبة الجغرافية العبية" وقد كان لمستشرق الهولندي دجويه مجهوده الذي لا يغفل في نشر هذه المجموعة وتحتوي هذه المكتبة علي كتب ابن خرداذية واليعقوبي وابن الفقيه والاصطخري والمسعودي والمقدسي.

ثم يأتي بعد ذلك كتب الطبقات وهي نوعين كتب طبقات عامة مثل كتاب ابن خلكان المتولي في سنة ٦٨١ هـ المعروف باسم وفيات الاعيان وابناء ابناء الزمان وهو من كتب الطبقات العامة وهناك ايضا كتاب فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي وغيرها وكتب طبقات عامة اقليميا خاصة موضوعيا مثل : طبقات المالكية والشافعية وطبقات الصوفية وطبقات المحدثين وطبقات الاطباء

والحناء واللغويين والنحويين والقضاء والفهاء وكتب خاصة
اقلية .

وميزة هذه الكتب تتلخص في انها تهتم بالتاريخ الاجتماعي
والحضاري اكبر من اهتمامها بالتاريخ السياسي .

ثم يأتي بعد ذلك مجموعة الكتب التي تعالج تاريخ الأديان .
وهذا اللون من الكتب تتناول بصفة خاصة المذاهب الإسلامية .
وفي مقدمة هذه الكتب كتاب ابن حزم الأندلسي القرطبي [بابو
محمد علي ابن حزم المتوفي سنة ٤٥٦هـ] المعروف بكتاب "الفصل
في الملل والأهواء والنحل" وكتاب "الملل والنحل" للشهرستاني
[ابو الفتح عبد الكريم الشهرستاني المتوفي سنة ٤٥٨ هـ]
وكتاب الفرق بين الفرق "للبيهقي" .

هذه الكتب تتكلم عن الإسلام وعن فرقة المختلفة من: الشيعة
والغواص والمرجلة والقدرية والمعتزلة والسنة وطوائف كل فرقة
منها . ولها كانت دولة الإسلام تحتوي علي جماعات غير إسلامية
تعيش داخل الدولة مثل اليهود والنصارى والمجوس والمناذبة
وغيرهم وجبت معرفة أصول دينهم لتحديد الدولة موقفها منهم
ولهذا، تكلم هؤلاء الكتاب عن نحلهم ومذاهبهم .

ننتقل بعد ذلك الى الكلام عن مجموعة الكتب التي تناول تاريخ النظم والادارة، واصول الحكم. وأشهرها كتاب "الاحكام السلطانية والولايات الدينية" للماوردي [توفي ببغداد في سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م. ولقد كتب الماوردي في تفسير القرآن والفقه والنحو الى جانب ماكتبه في اصول الحكم وكان من المجتهدين.

فمن بين ابواب الكتاب العشرين في: الامامة والوزارة والقضاء والجهاد وتنظيم الاموال وولاية الاقاليم الخ، يعتبر الباب الخاص في عقد الامامة [او الخلافة] وهو اولها اهم الموضوعات التي عالجه الماوردي وهو يستند في معالجته للتقنين للخلافة [التي يراها عقد مرضاه واختيار] الى القرآن والسنة والاجماع الى جانب السوابق التاريخية المعتبرة.

الفصل الثانى

عظمة الدولة الأموية وبداية الأفعال

عظمة الدولة الأموية وبداية الأفول

بلغت الدولة الأموية ذروة مجدها وعظمتها في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة - وهو القرن الثامن الميلادي - ففي هذا القرن وضعت جميع النظم الإسلامية وبدأت كافة الاتجاهات الفكرية، حينما أخذت الأفكار تتجاوز حدودها الإقليمية إلى أفق أوسع. وهو عصر تفتح الروح الإسلامية وسط ثراء مادي غزير، وهي كذلك الفترة التي مهدت بعد سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م للدولة العباسية أن تكون مركزا مهما للحياة [١].

وهناك خلفاء عظام مثل: الوليد وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبدالعزيز تسيدوا أكبر دولة إسلامية. وفي الحقيقة أن الفصل في اتساع الدولة إنما يرجع إلى كبار العمال من رجال الحرب والإدارة الذين خدموا هؤلاء الخلفاء. وأغلب الظن أن السبب في عدم معرفتنا بأعمال خلفاء الأمويين الشخصية إنما يرجع إلى أن ماكتب عنهم إنما كتب في العصر العباسي. ولما كان العباسيون يكونون للأمويين حقنا كبيرا كان من الطبيعي أن يصور الكتاب خلفاء الأمويين تصويرا قاتما فهم يصفون الخليفة الوليد بأنه مستبد ظالم، وسليمان شره أكل [٢]. ولم يسلم من النقد من الخلفاء الأمويين

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) أنظر: السعدي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تنقيح وتصحيح شارل بلا (من طبعة بريبة دي مينار وبافية ذي غرتاي)، منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٣، ج ٤، ص ١٣٠.

سوي الخيفة الورع التقى عمر بن عبد العزيز الذي يعتبره الكتاب خامس الخلفاء الراشدين . ورغم الاعتراف بمكانة عمر بن عبد العزيز الذي يرجع اليه الفضل في منع سب الإمام علي رضي الله عنه من علي المنابر كما أنه أعترف له بفضلُه عندما نظر الي الاسلام نظرة تختلف عن نظرة سابقة فهو يري أن الدولة عندما اتسعت كانت تهدف الي نشر الاسلام قبل الحصول علي المكاسب المادية وأعلن رأيَه هذا عندما تضاربت السياسة الدينية مع السياسة الادارية وطولب الداخلون الجدد في الاسلام بدفع الجزية مثلهم في ذلك مثل أهل اللمة [غير المسلمين من أهل الكتاب] فأمر عمر برفع الجزية عن أسلم ولهذا يعتبر عمر نموذجا للورع والعدل والحكمة . ورغم ذلك نجد أن بعض كتاب العباسيين ينالون منه كما نالوا من أقاربه . وينسب الي المنصور العباسي انه قال عندما ذكر في مجلسه "انه أعور وسط عميان" [١] .

وبناء علي ذلك نلاحظ أن الفضل في الأعمال السياسية والعسكرية التي حققتها الاسلام علي عهد الدولة الاموية انها يرجع الي كبار رجال الدولة مثل الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اشتهر بعنفه وشدته وبطشه حتي أنه غرس كراهية أهل الشام في قلوب أهل العراق ولكن يرجع الفضل الي فسوته في الحفاظ علي وحدة الدولة .

ونذكر أيضا من الرجال العظام قتيبة بن مسلم فاتح بلاد ماوراء

(١) نفس المصدر والملحقة .

النهر والذي وسع حدود الاسلام حتي مغارب السند، ثم موسى بن نصير فاتح الاندلس.

امتد سلطان الدولة في المشرق والمغرب ولكنها لم تستطع أن تفتح القسطنطينية ففشلت المحاولات التي بذلها معاوية بن ابي سفيان وخلفائه مثل الوليد وسليمان.

أما فيما يتعلق بالسياسة الداخلية فان في هذه الفترة التي شهدت فيها الدولة اقصى اتساعها حدثت تغييرات مهمة في نظمها الداخلية وكذلك بدأ ظهور العمارات الاسلامية الفخمة التي نذكر ونعربها.

كذلك ينبغي الإشارة إلى الجهود العظيمة التي قام بها الخليفة عبد الملك بن مروان من أجل تعريب الدواوين أي تعريب الإدارة وعمل علي تغفل هذا التعريب بين أهل الأمصار، وعمل التعريب وانتشار الاسلام علي تكسير الحواجز التي كانت موجودة بين العرب وبين أهل البلاد وكان ذلك تمهيدا للقيام المجتمع العربي الاسلامي الموحد. واستمر في هذه السياسة التي بناها عبد الملك ابنة الوليد وكذلك عمر بن عبد العزيز ويرجع الفضل في انشاء المسجد الجامع في دمشق الي الوليد ابن عبد الملك الذي استجلب ل بناء هذا الجامع الفنانين من بلاد الروم وكذلك من مصر وانفق عليه

بسخاء حتي أصبح مفخرة من مفاخر الاسلام ونموذجا من نماذج الفن الاسلامي.

وبعد أن بلغت الدولة من الناحية العسكرية اقصى اتساعها بدأ عصر التوقف العسكري والاقليمي وكان هذا يعني بداية عصر الاطول والاضمحلال.

أما في الشرق فتحركت المسيحية ايضا فالتهي حصار القسطنطينية الاخير بالفشل. ثم ان الامبراطورية البيزنطية خرجت من فترة الضعف التي كانت تمر بها وأعتلي عرشها امبراطور قوي هوليو الثالث الايسوري الذي قام بحملات عسكرية في آسيا الصغرى وكذلك في مناطق القوقاز. وفي سنة ١٢٢هـ تذكر الحوليات ان ابن الخليفة هشام بن عبد الملك الذي كان قد توغل في الاراضي البيزنطية لقي هزيمة مروعة إذ تشتت مقدمة جيشه وقضت هذه الكارثة علي حلم الامويين في القضاء علي بيزنطة. هذا فيما يتعلق بتوقف الفتح العسكري.

أما فيما يتعلق بالأحوال الداخلية في الدولة فأنها لم تكن بأحسن حالا من التوسع العسكري. ففي كثير من الاقاليم ظهرت ميول واتجاهات انفصالية. أما في داخل الدولة فكان من أهم القلاقل التي اصاب الدولة ظهور الخصومات والنزاعات الدينية. فمهد البداية

ظهرت الحركة الخارجية في مركز الدولة ولكن بفضل جهود الحجاج بن يوسف الثقفي استطاعت الدولة القضاء على الخوارج ولكن هذا لم يكن يعني القضاء التام على الحركة إذ أنها ظهرت ونجحت في المشرق ولي المغرب.

وعلى أواخر أيام الأمويين بدأ الخوارج يثيرون الاضطراب من جديد في مركز الدولة ملتهمزين ضعف الحكومة. ففي سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م، حشد الخوارج قواهم في منطقة الكوفة برئاسة ضحاك بن قيس الشيباني وكذلك فعل الخوارج الإباضية في جزيرة العرب فجمعوا قواهم برئاسة أبو حمزة الخارجي [١].

الي جانب المذهب الخارجي كان الشيعة مصدر قلق أيضا للدولة خاصة في العراق فقد استدعوا أحد أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو زيد بن علي زين العابدين وذلك علي أيام خلافة هشام بن عبد الملك وأعلنوا إمامته. وباءت جهود الخلافة في دمشق بالنشل حوالي العام في القضاء علي ثورة العراق. ولكن أنتهي الأمر بالقضاء علي بعض المتأمرين، وعرف مكان زيد وتبعته قوات الخلافة وتمكنوا من رمية بسهم فأصاب جانب جبهته اليسري فثبت في دماغه

(١) انظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الوهاب النجار، طبعة مصر، سنة ١٣٥٧هـ، ج ١، أحداث سنة ١٢٧هـ، ص ٢٨٩.
ذكر خروج الضحاك معهما أحداث سنة ١٢٨هـ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦. ذكر قتل الضحاك الخارجي ص ٢٩٧. ذكر خبر أبي حمزة الخارجي مع طالب الحق.

ومات زيد في صفر من سنة ١٢٢ هـ / يناير ٧٤٠ م.

وبذلك خضبت يدي بني أمية من جديد بدم حلفة الرسول صلي الله عليه وسلم. بل ولم يحترموا جثمان زيد وكان اتباعه قد دفلوه في ساقية وأجروا عليه الماء خوفا من التمثيل به، ولكن القبر نبش واستخرج منه وقطع رأسه وملب ثم امر به لحرق بالنار [١].

والي جانب النزاعات الدينية هذه كانت الخصومات والنزاعات بين القبائل العربية نقطة من نقاط الضعف التي أدت الي انهيار الدولة دولة الأمويين ومن النزاعات بين هذه القبائل العربية ذلك النزاع الذي حدث في سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م بين اليمنية والقيسية "المضرية" والذي انتهى بانتصار اليمنية في وقعة "مرج راهط". وعمل هذا النصر علي زيادة اشتعال نار الفرقة بين العصبيتين المتناهضتين، وكان علي الخليفة الأموي أن يسوس كل من الفريقين أو أن يقف الي جانب أحدهما حسب الحال.

وكان أعظم عمال الوليد بن عبد الملك هم: العجاج بن يوسف الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، فاتح ماوراء النهر وهما من العصبية القيسية. وكان هذا يعني ان الخليفة الوليد بن عبد الملك

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٤٠-٢٤٣ أحداث سنة ١٢١ هـ (ذكر ظهور زين بن علي بن الحسين أحداث سنة ٢٢ هـ ص ٢٤٥-٢٤٨) (ذكر مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب).

كان يتبع سياسة موالاه القيسية، وعندما خلفه سليمان نهج سياسة مضادة لهذه السياسة فحايي اليمنية وعلي رأسهم يزيد بن المهلب بن ابي صفرة وعصبية.

وعندما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز حاول أن يقوم الموقف وان يتبع سياسة محايدة تهدف الي التوفيق بين العصبين ولكن سياسته هذه لم تطل لأمد طويل إذ أنه سرعان ما اعتمد يزيد بن عبد الملك اعتمادا كليا علي القيسية ثم ان هشام بن عبد الملك ذهب الي عكس هذه السياسة ثم عاد اليها ونتج عن ذلك ان اليمنية ثاروا لأنفسهم من الخليفة الوليد الثاني فتأمروا علي خلعه وكانت هذه الثورة سببا في عزله بلاد الشام جميعا.

والي جانب العصبية القبلية نذكر حدثا له مفزاة وهنا الحدث يتمثل في هجرة خلفاء الامويين بعيدا عن دمشق وسكناهم الصحراء ويشبه بعض الكتاب هذا الحدث بالانفصال الروحي بين الامويين وبين عصبيتهم من أهل الشام. فقد شعر اخر خلفاء الامويين بعدم اطمئنانهم في بلاد الشام وفي حاضرتهم دمشق فخرجوا الي البادية وكان أول من فعل ذلك هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي كان يقيم في بادية الاردن.

ومن أهم القصور الصحراوية التي بناها الامويين قصر "الرمالة" في بادية الشام.

وقد استمر الأمويون في سكني الصحراء ، ويعدد الأثريون بقايا خمسة وثلاثين قصرا من هذه القصور . وكان الخليفة يتمتع في قصوره الصحراوية هذه برياسة الصيد . كما يعتبر العصر الأموي عصر نهضة بالنسبة للشعر العربي، واشتهر كثير من أمراء الأمويين بقول الشعر كما أنهم احاطوا أنفسهم بالشعراء . وشاعر الأمويين كما نعرف هو الشاعر النصراني الأخطل والي جانب ازدهار الأدب والشعر لم تحظ العلوم والفلسفة إلا بحظ ضئيل من عناية أمراء الأمويين . ولكن ينبغي الإشارة الي أن بداية الجدل في الفلسفة الإسلامية ظهر في هذه الفترة وبدأ الكلام في مسألة القضاء والقدر وظهور الفرقة التي عرفت باسم القدرية والتي ستكون نواة للفرقة المتكلمين المعروفة باسم المعتزلة .

وحاول هشام بن عبد الملك أن يوقف تضخم هذه الفرقة ، وسار علي نفس السياسة الوليد الثاني الذي راح ضحية معارضة القدرية الذين ناصروا أعداءه من اليمينية واقاموا الغليظة يزيد الثالث . ولكن هذا الاختيار لم يرض جميع الناس لسرت الاضطرابات في كل أرجاء الشام، كما ظهر للغليظة الجديد منالسون في العراق وتولي يزيد بعد فترة قصيرة لم تزدد علي خمسة أشهر، وعجز اخوه ابراهيم عن تقويم الموقف، وتمكن منالس الغليظة في العراق، مروان بن محمد، من التقدم نحو الشام واستطاع أن يكسب القيسية إلي حاسه، وفي صفر عام ١٢٧هـ / ٧٤٥م استطاع أن يستولي علي دمشق .

مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين

وهكذا تمكن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن ابي العاص بن أمية القرشي الأموي من انتزاع الخلافة من أبناء عمومته. وكان يلقب الحمار لمبره في الحروب.

والظاهر ان مروان كان يعن الى العراق وعلي ذلك فهو ينقل مقر الحكم الي حران^[١] في أرض الجزيرة. وكان هذا يعني الانفصال النهائي بين الأمويين وبين أهل الشام.

ونشبت الثورات في كل مكان واضطر مروان أن يهدم تحصينات بعض المدن الكبرى في بلاد الشام وذلك لكي يخضعها، وسرت الثورات وليس في الشام فقط بل في العراق والحجاز أيضا.

واستطاع مروان أن يقضي علي الثورة التي قام بها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي فر الي حمص ثم الي الكوفة، واضطر مروان الي هدم أسوار حمص^[٢] واتبع ذلك بالقضاء علي تحصينات دمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام.

(١) عن انتقال مروان إلي حران انظر ابن الأثير الكامل، ج ٤، ص ٢٨٦.

(٢) انظر ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٨٦ (ذكر انتقام أهل حمص) ذكر خلاف أهل الغوطة، ص ٢٨١ (ذكر خلاف أهل فلسطين) ص ٢٨٧ وما بعدها (ذكر خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد).

كان مروان بعد ذلك أن يقضي علي القلاقل والاضطرابات
التي اثارها الخوارج في العراق وفي بلاد العرب. اذ ينهم من
الروايات ان الضحاك ابن قيس الشيباني الخارجي اغتتم فرمة انقسام
الامويين بعد مقتل الوليد بن يزيد، ثم بعد أن عزل مروان عبد
الله بن عمر عبد العزيز عامل العراق وولي مكانه البضر بن سعيد
الهمداني، فلم يسلم ابن عمر اليه العمل واعتمص بالحيرة، عندئذ انتهز
الامويون ذلك واقتبل الي الكوفة في سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م. وزادت
بسببه الحقا الهزيمة بالامويين ثم تقدم الضحاك بعد ذلك الي
الهند واستولي عليها وكورها ومنها اتجه الي نصيبين وكان معه
"مايزيد علي مائة الف" وهزم جيشا امويا بقيادة عبدالله بن مروان
بن محمد. ثم أن مروان سار اليه وتمكن من الحاق الهزيمة به
والقضاء عليه عند ماردين وذلك في سنة ١٢٨هـ [١].

وقام أبو حمزة الخارجي [المختار بن عوف الأزدي السلمي
البصري] في جزيرة العرب. وكان كما تقول الرواية من الخوارج
الاباضية، وكان يفد في كل سنة الي مكة يدعو الناس الي خلاف
مروان بن محمد. ثم تحالف مع عبد الله بن يحيى المعروف بطالب
الحق في أواخر سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م وخرج معه الي حضرموت حيث
بايعه علي الخلافة. وفي السنة التالية ١٢٩هـ/٧٤٦م خرج أبو
حمزة الي مكة والمدينة وتمكن من الحاق الهزيمة بالحامية الاموية،
ودخل المدينة وأقام بها ثلاثة اشهر ثم سار نحو الشام. ولكن
مروان انتخب من عسكره جماعة جدوا المسير اليه وتمكنوا من الحاق

(١) انظر ابن الاثير الكامل ج ٤، أحداث سنة ١٢٨هـ، ص ٢٩٥-٢٩٦ (ذكر
مقتل الضحاك الخارجي).

الهزيمة والقضاء عليه في وادي القري . ثم سار عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، وقائد مروان، الي المدينة ومنها الي اليمن حيث قاتل عبد الله بن يحيى طالب الحق وقتله وحمل رأسه الي مروان بالشام [١] .

وقبل هذا الوقت ثار الشيعة في الكوفة في سنة ١٢٧هـ وأقاموا عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر أماما لهم . ولكن والي العراق الأموي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز تمكن من هزيمتهم . وسار المطالب بالخلافة الي فارس وتغلب عليها في سنة ١٢٩هـ / ٧٤٦م، وكثرت جموعه، وأقام باصلهان ثم اصطخر، ومد نفوذه علي ولايات خورستان وفارس وكرمان وهاجم والي العراق عبد الله بن معاوية لايوائه الخوارج الذين هزمهم مما اضطر ابن معاوية الي الهرب الي خراسان حيث قتله ابي مسلم لانه كان يشكل خطراً عليه [٢] .

وهكذا ظهر مروان بن محمد بمظهر الرجل الشيط الكفر الحدير القادر علي تقويم الموقف واقرار الأمور وتهديتها في الدولة . ولكن الخطر علي الدولة كان يكمن في الشرق في بلاد خراسان .

(١) انظر ابن الاثير : الكامل ج ٤ ، ص ٢٩٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ص ٣١٤ - ٣١٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٤ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

الفصل الثالث

الدعوة الشيعية العباسية

الدعوة الشيعية العباسية

أحوال خراسان في أواخر العصر الأموي:

بدأت الولايات الايرانية، في الخروج علي سلطان الخلافة، في بلاد الشام منذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وذلك عندما ظهرت مشكلة الدخول في الاسلام ودفع الجزية . فكما يفهم من الروايات كان من سياسة عمر بن عبد العزيز رفع الجزية عن أسلم، ونجح عماله في نشر الاسلام . ولكن نقص الموارد المالية دفع الدولة الي اتخاذ اجراءات شديدة كانت ترمي الي اثبات الدخول في الاسلام ثبوتا قاطعا، كما أنها لم تعف الكثيرين من الداخلين في الاسلام من دفع الجزية وبصفة خاصة علي عهد والي خراسان هشام بن عبد الملك اشرس بن عبد الله السلمي [١٠٩-١١١هـ / ٧٢٧-٧٢٨م] (١).

(١) انظر عن ولاية اشرس ابن الاشيرة الكامل، ج ٤، ص ٢٠٠، ص ٢٠٢-٢٠٣، ص ٢٠٦، ص ٢١٨-٢١٩، حيث يقول النص (احدك سنة ١١٠هـ): في هذه السنة ارسل اشرس الي اهل سمرقند وماوراء النهر يدعوهم الي الاسلام علي ان توضع عنهم الجزية وارسل في ذلك ابا الصياد صالح بن طريف مولي بني ضبة والربيع بن عمران التميمي . فقال ابو الصياد: انها اخرج شريطة ان من اسلم لا تؤخذ منه الجزية وانما خراج خراسان علي رؤوس الرجال.

في ظل هذه الظروف كانت الفرصة مواتية للقيام بحركة مناهضة
للامويين رغم ان رواية الطبري تذكر ان الدعوة الشيعية العباسية
بدأت في خراسان منذ ايام خلافة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة
للهجرة [١] .

= فقال اشرس : نعم . فمضى الى سمرقند وعليها الحسن بن
العمر طه الكندي علي حربها واخراجها لهما ابو الصيذاء اهل سمرقند
ومن حولها الي الاسلام علي ان توضع منهم الجزية لمسارح الناس
فكتب الي اشرس ان الخراج قد انكسر فكتب اشرس الي ابن العمر
طه ان في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني ان اهل الصغد واشباههم
لم يسلموا رغبة انما اسلموا تعودا من الجزية لما نظر من الخسعين واقام
الفرائض وحسن السلامة وقرا سورة من القرآن فارفع خراجهم فلم يزل
اشرس ابن العمر طه عن الخراج وصيره الي هاشم بن هاشم لممنعهم ابو
الصيذاء من اخذ الجزية ممن اسلم فكتب هاشم الي اشرس : ان الناس
قد اسلموا وبنوا المساجد فكتب اشرس اليه والي العمال خذوا الخراج
ممن كنتم تخذونه منه فاعادوا الجزية علي من اسلم .

(١) انظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، طبعة دار المعارف
بمصر (مجموعة ذخائر العرب) ج ٧ أحداث سنة ١٥٩ هـ، ابن الاثير،
الكامل، ج ١ ص ١٥٩ (ذكر ابتداء الدعوة العباسية).

ولكن هناك رواية اخري للطبري نعرف منها أن أول من لبس السواد في خراسان - ودعا الي كتاب الله وسنه نبيه والبيعة للرضا" في سنة ١١٦هـ/٧٣٤ هو الحارث بن سريج. وقبل الحارث عرض والي خراسان عاصم بن عبدالله بن يزيد الهلالي أن يكتب الي هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنه نبيه صلي الله عليه وسلم " فان ابي اجتمعا عليه " وكان رد الخليفة هو خلع عاصم الهلالي وتقليد ولاية خراسان الي اسد بن عبد الله القسري وضماها الي العراق ل"تكون موادها ومعونتها من قريب لتباعد امير المؤمنين وتباطئ غياثه".

وظل اسد في الولاية من سنة ١١٧هـ حتي سنة ١٢١هـ [٧٣٥-٧٣٨م] [١] ويعودة اسد من جديد عادت سياسة الشدة والقمع فقبض اسد علي جماعة من دعاة بني العباس فقتل بعضهم، ومثل ببعضهم وحبس بعضهم، وواصل القتال ضد الحارث بن سريج. وبعد موت اسد ولي خراسان نصر بن سيار الكناني الذي كان يعرف "بشيخ مضر في خراسان" و"علي ايامه عمرت خراسان عمارة لم تهر قبلها وأحسن الولاية والجابة" [٢] فقد عمل نصر علي رفع الجزية التي كان يدفعها المسلمون الي غير المسلمين [٣].

ولكن نصر لم يلجأ الي ايتلاف العداة التقليدية بين النصبية

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٢٣٨.

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ٢٣٩.

(٣) ابن الاثير ج ٤ ص ٢٤٣.

المضرية والعصبية اليمنية . ولما كان نصر من العصبية المضرية علي
عكس اسد الوالي السابق - فانه حايي المضرية في بداية امرته
وقلدهم الأعمال فالنص يقول:

" فلم يستعمل أربع سنين الا مضريا " [١]

ولكنه عاد وحاول نهج سياسة متزنة حتي يتالف اليمنية . ولكن
اليمنية ثاروا بزعامة الكرمانى [جديع بن علي الأزدي] " الذي اظهر
الخلاص لنصر بن سيار " في سنة [١٢٦هـ / ٧٤٤م] . وكان الكرمانى
كما تقول الرواية قد احسن الي نصر في ولاية اسد بن عبد الله ،
ولكن بعد ان تقلد نصر امرة خراسان " عزل الكرمانى عن الرياسة
وولاهها وغيره " [٢] . ولذلك فقد حدثت جفوة بينهما . وقد اغتتم
الكرمانى الموقف الذي حدث بين نصر ابن سيار وبين خلافة دمشق
بعد قتل الوليد الثانى ونستشف من الرواية ان الكرمانى كان لايتورع
عن سلوك اي السبل من اجل تحقيق اطماعه فالنص يقول: " لو لم
يقدر علي السلطان والملك الا بالنصرانية واليهودية لتنصر
تهود " [٣] وقد قام نصر باعتقال الكرمانى وحبسه ولكن الكرمانى
تمكن من الهرب من الحبس بمساعدة انصاره والتفت حوله الأزدي .

اما عن العراق فقد عزل الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٢٣٩ .

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ٢٧٥ .

(٣) ابن الاثير ج ٤ ص ٢٧٥ .

واليها منصور بن جمهور . وكان نصر بن سيار قد امتنع من تسليم عمله اليه من قبل واستعمل عليهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز . وقد أقر ابن عمر نصرًا علي خراسان . فغضب الكراماني لابن جمهور - وكان نصر قد عرض به في خطبته وأعلن خلافه لنصر [١] .

وفي حاضره الخلافة مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك [يزيد الثالث] وحدثت فتن وتلاقل في البلاد الي ان خلاص الامر لموران بن

محمد [سنة ١٣٧ هـ / ٧٤٤ م] [٢] . فآقر نصر بن سيار علي خراسان وبذلك اضفي عليه صفة الشرعية وأعلن نصر بيعته للخليفة مروان [٣] . ولكن الحارث بن سريج الذي كان قد سبق ان حصل له نصر علي الامان من الخليفة يزيد بن الوليد، وعاد من بلاد ماوراء النهر - وكان متحالفا مع الترك الي خراسان حيث استقر من اتباعه في منطقته مرو - رفض مبايعة مروان وخرج علي نصر الذي ارسل اليه "يدعوه الي الجماعة وينهاه عن الفرقة واطماع العدو" [٤] . وطلب الحارث من نصر ان يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وان يعزل عماله ويقلد عمالا نزهاء [٥] وتمكن داعيته جهم بن صفوان [رأس الجهمية] من لم الجموع حوله .

(١) ابن الاثير، ج ٤، ص ٢٧٦ .

(٢) انظر خليفة بن خياط تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق ١٩٦٨، ج ٢، ص ٥٧٨ .

(٣) انظر ابن اثير، تاريخ خليفة بن خياط، ج ٤، ص ١١٧ . ابن الاثير، ج ٤، ص ٢٩٢ .

(٤) ابن اثير، تاريخ خليفة بن خياط، ج ٤، ص ٢٩٢ .

(٥) ابن اثير، تاريخ خليفة بن خياط، ج ٤، ص ٢٩٢ .

وفي نفس الوقت كان الكرمانى يدعو الى عزل نصر وتعيين والى
اخر عوضه، فالتقت مصالحهما واتلعا اى الحارث والكرمانى- علي حرب
نصر وقد حاقت الهزيمة بالحارث الا ان نصرا اضطر بعد تقدم انصار
الكرمانى الى الانسحاب الى نيسابور، ودخل الكرمانى والحارث مدينة
مرو. ولكن وقع الخلاف بينهما وقتل الكرمانى الحارث في سنة
١٨٠ هـ / ٧٤٦ م وصفت مرو لليمن [١] . الا أن الكرمانى لم يهنا
طويلا بانتصاره، فقد بدأ نصر يجمع قواته لاعادة استخلاص مرو من
منافسة الكرمانى والقضاء عليه.

ولقد كانت كل هذه الظروف في صالح الدعوة الشيعية
العباسية .

الدعوة العباسية:

المعروف ان الدعوة العباسية شيعية الاصل، وأن الدعوة
الشيعية التي قامت باسم ال البيت والتي نادى بأن العلويين هم
الورثة الطبيعيون للخلافة النبوية وجدت في خراسان ارضا صالحة لبلور
بلورها [٢] .

والحقيقة ان عرب الفتوح الاولى الذين توغلوا في خراسان التي

(١) ابن الاثير، ج ١ ص ٢٧٦-٢٩٤ .

(٢) د. سعد زغلول، تاريخ الدولة العربية، طبع بيروت سنة ١٩٧٧ ص ١٦٠ .

تمثل كل الهضبة الإيرانية حتي بلاد ماوراء النهر، كانوا منعزلين في هذا المشرق البعيد، مما جعلهم يتميزون عن عرب الأمصار الأخرى بصفات خاصة . ولم يكن المتزوجين منهم قد عبروا الجبال التي تحد إيران بل كان غير المتزوجين منهم، هم الذين وصلوا الي هناك في جماعات وتزوجوا من نساء أهل البلاد . ويقدر فلهوون ان الحد الأقصى لعدد هؤلاء كان لايتجاوز المائتي ألف رجل أبان الثورة العباسية .

وكان الاندماج تاما بين سكان خراسان حتي يصعب التمييز في كتب التاريخ الا بصعوبة بين العرب الذين انصبغوا بالصبغة الإيرانية وبين أهل البلاد الذين دخلوا في الاسلام والذين عرفوا بالموالي وكانوا يحتفظون بذكریات حضارتهم القديمة، وتراث الأسرة السابقة . وكا هؤلاء الموالى يشعرون بالمساواة مع العرب وسنري انهم عملوا في القرن التالي علي أيام العباسيين علي اثبات تفوقهم الفكري في كل العلوم التي عرفها العرب .

وكان الخراسانية، منذ العصر الأموي، يحاربون في صفوف الجيش الاسلامي للدفاع عن البلاد ضد الترك، وكان جميع أهل الاقليم يعيشون في وئام: من العرب اللاتحين الي الموالى الذين دخلوا في الاسلام بل وأهل البلاد الذين بقوا علي ذياتهم المزدكية . وعلي أيام زياد بن ابيه بدأ تهجير اعداد كبيرة من شيعة العلويين من مدينتي

العراق الكبيرتين: الكوفة والبصرة، الي منطقة بلخ في اقصى خراسان، علي حدود ما وراء النهر . واستمرت سياسة نفي العناصر العلوية الي الشرق علي ايام الحجاج بن يوسف . وفي نفس الوقت اوقفت هجرة اهل الشام الي المشرق حيث لم يكونوا يشعرون بالا من هناك . ولاشك أن العلويين وشيعتهم وجدوا في الاقاليم الايرانية ارضا مالحة لنشر افكارهم عن الامام المنتظر، وهو المهدي وذلك ان الموالي من الفرس كانوا لا يزالون يشعرون بالحاجة الي حاكم مطلق يمتلك من الصفات ما هو فوق مستوى البشر بحيث يكون له التحكم في توزيع الارزاق فهو الذي ينشر السعادة بين الناس او التعاسة، وعن طريقه يكون انتشار الغصب في الارض او القحط .

وكانت العلاقات الوثيقة بين خراسان من جهة وبين البصرة والكوفة وهما مركز الاضطراب العلوي من جهة اخري سببا في أن اعتنق كل اهل ايران الآراء المعادلة للدولة العربية التي كان الامويون يحاولون تنظيمها واقرار تراتيبها، والتي رغم تحولها الي ملكية وراثية فانها ظلت محافظة علي طابعها العربي او البدوي . وهكذا شعر اهل ايران بأنهم اكثر تعلقا بالمذهب العلوي الذي يطالب بأن يكون الأمر في الدولة الاسلامية لال البيت من العلويين والذي خلع علي افراد الأسرة العلوية، شيئا فشيئا صفات فوق مستوى البشر .

كل هذا يفسر النجاح الذي مآدفته الدعاية العلوية منذ بدء

تنظيمها في العراق، وإرسال دعايتها إلى خراسان. ومنذ مطلع القرن الثاني الهجري كان دعاة الشيعة يظهرون في خراسان، ما بين الحين والحين وبشكل منتظم حسب أوامر الكوفة، ودون أن يعرف لحساب من يعملون^(١).

(١) انظر، د. سعد زغلول، تاريخ الدولة العربية، طبع بيروت سنة ١٩٧٧ ص ١٦٤ - ١٦٥.

عهد أبي هشام الى محمد بن علي:

تكاد تجمع المصادر التاريخية علي ان مطالبة العباسيين بالخلافة وادعائهم لها قد أنتقل اليهم من ابي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية [احد ابناء علي رضي الله عنه][١] . فرواية صاحب "اخبار الدولة العباسية" تقول: " وكان تشيع العباسية أصله من قبيل محمد

(١) لقد قالت فرقة الكيسانية من الشيعة بإمامة محمد بن الحنفية، وزعمت أنه لم يبق بعد الحسن والحسين أحد أقرب إلي أمير المؤمنين علي عليه السلام من مخدم بن الحنفية لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة فهو أولي الناس بالإمامة، كما كان الحسين أولي بها بعد الحسن من ولد الحسن، فمحمد هو الإمام بعد الحسين وقالوا أن محمد بن الحنفية هو الإمام البهدي، ولما مات بالمدينة في المحرم سنة ٨٠ هـ قالوا أنه لم يموت وأنه مقيم بجهال رضوي - بين مكة بالمدينة وأنه الإمام المنتظر الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم وأنه الذي سيملأ الأرض عدلاً وقسطاً، هذا ولو أن هناك فرقة أخرى قالت أن محمد بن الحنفية مات وأن الإمام بعده ابنه عبدالله وكان يكنى أبا هاشم.

انظر، التوبختي، فرق الشيعة، طبع المطبعة الحيدرية النجف سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م، ص ١٢٣، ص ١٢٦، ٣٠.

بن الحنفية والي ذلك دعا ابو مسلم . [١] وتذكر أيضا أن محمدا بن علي أخذ العلم علي يدي ابي هاشم وكان محمد يبجله ويجله فكان اذا قام ابو هاشم يركب اخذ له الركاب " فلما مرض ابي هاشم مرضه الذي مات فيه وكان بارض الشراة من بلاد الشام وذلك عند قفوله من لقاء سليمان بدمشق عدل الي محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان بالحميمة، وعهد له بحقوقه في الإمامة في سنة ٩٨ هـ / ٧١٧م [٢] . والتي اليه بأسراره وقال له: أوصيك بتقوي الله فانها خير ماتواصي بها العباد ومن بعد ذلك فان هذا الأمر الذي نطلبه ونسعي فيه وطلبه اخرون وسعوا فيه فيك وفي ولدك [٣] .

هذا ما نقوله الرواية العباسية، أما الشيعة فانهم قالوا: ان أبا هاشم أوصي إلي عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وهو الذي نادي به الشيعة في الكوفة اماما علي عهد مروان بن محمد، وبعد انهزامه امام مروانية اتجه الي فارس واصفهان واصطخر، وانتهى الأمر بمقتله علي يدي الداعية العباسي ابي مسلم الخراساني كما سبق القول .

(١) انظر مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري، الدكتور عبد الجبار المطليبي دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١، ص ١٦٥ (أخبار الإمامة) حيث يقول النص: قالت الخيسانية بامامة محمد بن علي، ونكروا ان ابا اوصي اليه والخيسانية منسوبة الي المختار بن ابي عبيد، وكان يلقب غيبسان، وهو أول من قال بامامة محمد بن علي، وبها كان يقول علي بن عبدالله وولده الي ايام المهدي .

(٢) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص ١٨٥ .

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٨٦ .

١- تسمية الدعوة :

يعتبر محمد بن علي العباسي أول منظم الدعوة العباسية السرية أما ابنه إبراهيم الإمام فكان المفجر لهذه الدعوة حيث نقلها من دعوة سرية إلى علنية ولكنه لم يحن ثمار عمله حيث قتل قبل أن يحقق العباسيون الانتصار فكان أبو العباس عبد الله بن محمد العباسي أول خليفة لبني العباس .

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها الدعوة إلى :

١- الدور السري التحضيري ويبدأ من سنة ٩٧هـ / أو سنة ١٠٠هـ علي اختلاف الروايات التاريخية وكان مقر الدعوة الحميمة ونشاطها في الكوفة ثم مرو . ولم تكن تنظيماً لها قد تبلورت في بادئ الأمر وجابهت انتكاست قوية هزتها مثل حركة خدش والقبض علي بعض الدعاة العباسيين .

٢- الدور العلني الثوري ويبدأ بإرسال الإمام إبراهيم أبا مسلم الخراساني إلى مرو سنة ١٢٨هـ / ٧٤٥-٧٤٦ حيث أعلن الثورة ضد الأمويين سنة ١٢٩هـ بعد أن اختصرت الحركة السرية العباسية . وينتهي هذا الدور بإعلان أبا العباس عبد الله نفسه خليفة في مسجد الكوفة سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩ وعندئذ أعلنت

الحركة السرية عن صبغتها العباسية [١] .

ويلهم من النصوص أنه عندما آلت مقاليد قيادة الحركة الهاشمية [نسبة الي ابي هاشم] الي محمد بن علي العباسي . الامام الجديد - بدأت مرحلة اكثر تنظيما من سابقتها فتعرف علي حامة ابي هاشم [٢] . عرفه عليهم سلمة بن بجير وطلب منه أن يثبت اسماءهم، ليعرفهم ويستظهر بهم علي أمره [٣] ، فكتب محمد بن علي العباسي فيهم سجلا . ومن هؤلاء كما تلص الرواية : سالم بن بجير - حفص بن سليمان وهو ابو سلمة الخلال حفص الاسير - ميسرة الرجال - موسي بن سريج السراج، زياد بن درهم الهمداني، معن بن يزيد الهمداني، المنذر بن سعيد الهمداني [٤] .

وكما تذكر الرواية فإن الاتباع الاوائل كانوا ينتمون الي قبيلة بني مسلمية ومواليها وكذلك من قبيلة همدان [أي من اليمنية] وقال لهم الامام امسكوا عن الجد في امركم حتي يهلك أشج بني امية [عمر بن عبد العزيز] ولا تكثروا من أهل الكوفة، ولا تقبلوا منهم الا أهل الليث الصحيحة [٥] .

(١) انظرا د. فاروق ممره طبيعة الدعوة العباسية ١٩٨ هـ / ٧١٦ م، ١٣٢ هـ /

٧٢٩ م، دراسة تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها طبع دار

الارشاد، بيروت، طبعة ١٩٧٠، ص ١٥٣ .

(٢) انظرا اخبار الدولة العباسية، ص ١٨٨ - ١٩٠ .

(٣) نفس المصدر، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ١٩١ - ٢٩٢ .

(٥) نفس المصدر السابق، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

وكان لا يعرف محمد بن علي بنسبة واسمه الا شيعة الكوفة وهم
التي ثلاثين رجلا، فاذا سئلوا عن اسمه قالوا: امرنا بكتمان اسمه
حتى يظهر [١] وكانت دعوتهم الي الرضا من آل محمد [٢].

ثم قرر الامام عملا بنصيحة كبار ثقاته نقل مركز النشاط
للعنبر الي خراسان مع الاحتفاظ بالكوفة نقطة ارتباط بين مرو وخراسان
والحمية مقر الامام [٣].

وارسل الامام ابا عكرمة زياد بن درهم السراج الي خراسان
وطلب منه السير علي نهج بكير بن ماهان في تأليف الاتباع، واوصاه
بقوله: وان دعوت احدا من العامة فلتكن دعوتك الي الرضا من آل
محمد، فاذا وثقت الرجل في عقله وبصيرته فاشرح له امركم، وقل
بحجتك التي لا يعقلها الا اولو الالباب، وليكن اسمي مستورا عن كل
احد الا عن رجل عدلك في نفسك في ثقتك به، وقد وكدت عليه
وتوثقت منه واخذ بيعته وتقدم بمثل ذلك الي من توجه من رسلك،
فان سللتهم عن اسمي فقولوا نحن في تقية وقد امرنا بكتمان اسم
امامنا - واذا قدمت مرو فاحلل في أهل اليمن وتالف ربيعه، وتوق
مضري وخذ بنصيبك من ثقاتهم واستكثر من الاعاجم، فانهم أهل
دعوتنا وبهم يؤيدها الله [٤].

(١) اخبار الدولة العباسية، ص ١٩٤.

(٢) نفس المصدر، ص ١٩٤.

(٣) انظر، د. فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص ١٩٧.

(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٠٤.

هذا ولقد كان اختيار محمد بن علي العباسي لخراسان كمقر للدعوة موفقا لأنها تنفرد بموقف خاص، دون غيرها من امصار الدولة العربية الاسلامية . يتضح ذلك من وصيته لاتباعه من رجال حين تباينت الآراء حول المكان المناسب للدعوة .

"اما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده، واما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل واما الجزيرة فحرورية مارقة واعراب كاعلاج ومسلمون

في اخلاق النصارى واما اهل الشام فليس يعرفون الا ال ابي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة لنا راسخة . . واما اهل مكة والمدينة فقد غلب عليهم ابو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك مدور سالمة وقلوب فارغة لم تقسمها الاهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانته، ولم يقدر فيها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتعارب الاتباع للسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر وبعد فكانني اتفائل الي المشرق والي مطلع سراج الدنيا ومصباح هذا الخلق" [١] .

ونظم بكير بن ماهان - الذي قال عنه الامام: اسمعوا منه واطيعوا واحموا هولساني اليكم واميدي فيكم فلا تخالفوه ولا تفضوا الامور الا برايه وقد اثرتكم به علي نفسي لثقتي به في النصيحة

لكم واجتهاده في اظهار نور الله فيكم [١] اتباعه السبعين فقسمهم
الي اثنا عشر نقيبا يرأسهم سليمان بن كثير الخزاعي وذلك سنة
١١٨هـ. وأكد علي وجوب مناصحته أمامهم في السر والعلانية، إلا
يطلعوا علي أمرهم احد فغاروا ناحيته ولم يثقوا به [٢].

والنقباء الاثنا عشر هم:

- ١- ابو نصر مالك بن الهيثم
 - ٢- ابو محمد سليمان بن كثير الخزاعي ثم الاسلمي
 - ٣- ابو منصور طلحة بن زريق مولي طلحة الطلحات
 - ٤- زياد بن صالح (مولي خزاعة)
 - ٥- موسى بن كعب (ابو عيينة)
 - ٦- عيسى بن كعب
 - ٧- لافز بن قريظة
 - ٨- ابو سهل بن مجاشع
 - ٩- ابو عبد الحيد قحطبة بن شبيب الطائي من طيء
 - ١٠- ابو داود خالد بن ابراهيم الذفلي من شيبان
 - ١١- اسلم بن سلام من بجيلة
 - ١٢- ابو علي شبل بن طهمان مولي بن
- أسد

وفكرة النقباء الاثني عشر. ونلاحظ ان اكثريتهم كانوا عربا -
والدعاة السبعين فيها اقتداء بنقباء بني اسرائيل وبنقباء الرسول

(١) اخبار الدولة العباسية ص ٢١٣.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٣.

صلى الله عليه وسلم بعد بيعة العقبة فالتص يقول "بسم الله
الرحمن الرحيم" ان السنة في الأولين والمثل في الآخرين، وان الله
يقول "واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا"، ثم قال في آية
اخرى: "وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا" وان رسول الله صلى الله
عليه وسلم وافاه ليلة العقبة سبعون رجلا من الاوس والخزرج
فبايعوه فجعل منهم اثني عشر نقيبا [١].

وهناك [نظراء النقباء] [٢] وقد روي ان عددهم أحد وعشرون
[٣] وهناك الدعوة ودعاة الدعوة [٤].

ويفهم من الرواية أن اهل الدعوة وشيعة الامام كانوا يرسلون
اليه الاموال والحلي حتي يتقوي بها في "احياء الحق وامانة
الباطل" [٥].

موت محمد بن علي وولاية ابنه ابراهيم الامامة:

اعلان الثورة:

مات محمد بن علي العباسي في سنة ١٢٥ هـ بالشراسة من أرض
الشام وكان قد أوصي لابنه ابراهيم بالامامة من بعده اذا قال لغاسته:

(١) اخبار الدولة العباسية من ٢١٤-٢١٥.

(٢) نفس المصدر من ٢١٩-٢٢٠.

(٣) اخبار الدولة العباسية من ٢٢٠.

(٤) اخبار الدولة العباسية من ٢٢١-٢٢٣.

(٥) انظر اخبار الدولة العباسية من ٢٢٣-٢٢٤، من ٢٣٧.

فلکم فيه خلف صدق مني کما أوصي بکیر بن ماهان بأن یعهد بریاسة الدعوة فی الکوفة الی ابي سلمة حفص بن سلیمان الخلال .

وتنسب الروایة الی ابراهیم أنه قام باتخاذ السواد شعارا العباسیین وذلك لأن رایة الرسول صلی الله علیه وسلم كانت سوداء كانت رایة علي ابن ابي طالب سوداء وهو اختیار یتفق مع ما توردہ الملاحم والنبزات علي ان لون الرايات المقبلة من الشرق للقضاء علي ظلم الامویین وانهاء دولتهم [١] .

ومن هنا سمیت الدولة العباسیة بدولة المسودة .

وامر ابراهیم بکیر ماهان بالمضي الی نراسان وان یأمر الشیعة بتسويد الثباب والرايات، وكتب معه کتابا الی الشیعة . نعي الیهم فيه أباه ووعظهم [٢] ، فباع الجميع الامام الجدید [٣] ، ثم قتل بکیر وبرفقته بعض الشیعة العباسیة الذین اتقوا بالامام ابراهیم وتعرفوا علیه وطلبوا منه التعجیل بالثورة وقالوا له: "حتي متي تأکل الطیر لحم أهل بیتک وتصفک دماءهم ترکنا زینا مملوبا بالکناسة وابنه

(١) اخبار الدولة العباسیة ص ١٩٩ .

(٢) اخبار الدولة العباسیة ص ٢٤٠ ، ٢٤٥

(٣) اخبار الدولة العباسیة، ص ٢٤٠ .

ينطردا في البلاد وقد شملكم الخوف وطالت عليكم مدة اهل بيت
السوء [١] .

ظهور ابو مسلم في خراسان:

قرر الامام ابراهيم في سنة ١٢٨هـ [٢] اختيار مولاہ ابا مسلم
الخراساني وذلك بعد أن عرض الامر علي سليمان بن كثير وعلي
قحطبة فرفضوا ليمثله في خراسان . وكتب معه الي شيعته كتابا قال
فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم صدق وعد الله لاوليائه وحقت كلمة
الله علي اعدائه ولا تبديل لكلمات الله، ولن يخلف الله الميعاد . أن
تستفتحوا فقد جاءكم اللتح، فلتقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد
لله رب العالمين اما بعد فقد وجهت اليكم مجد الدهر عبد الرحمن
بن مسلم مولاي فالتقوا اليه ازمة اموركهم وحملوه اعباء الوزر لها
والصدر في محاربة عدوكم وعاهدوا الله علي الطاعة وكونوا بحبله
مستصمين . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم
في الارض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكن لهم دينهم الذي
ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم امنا، يعبدوني لا يشركون بي
شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون" .

(١) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٢١ .

وكان تعرف ابي مسلم للمرة الاولى علي الدعوة العباسية حينما التقى ببعض النقباء العباسيين الذين زاروا بعض العجليين في سجن الكوفة وهم في طريقهم الي اداء فريضة الحج، وكان ابو مسلم يخدم هؤلاء العجليين [من بني معقل] في السجن، فتوسموا فيه نجابة وعقل وأدب فضموه الي دعوتهم وامطحبوه معهم الي ابراهيم الامام بعد ان استأذن مولاه عيس بن ابراهيم السراج [١] واعجب الامام اخلاقه ومنطقه ورأيه وعقله [٢] وغيراسمه الي عبد الرحمن وكناه بأبي مسلم وظل في خدمته يستعمله في حمل رسائله الي الكوفة وخراسان حتي سنة ١٢٨ هـ حين اشخصه الي خراسان.

وكان ابو مسلم علي معرفة بأحوال خراسان - التي كانت الفتنة قد طالت فيها بين نصر بن سيار وعلي بن الكرمانى ومن كان بها من العرب حتي أضجر ذلك كثير من أصحابها وجعلت نفوسهم تطلع الي غير ما هم فيه والي امر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعوا اليماني من الشيعة اليماني والربيعي الربيعي، والمضري المضري حتي كثر من استجار وكفوا بذلك عن القتال في العصبية [٣] حيث اختلف اليها قبل ذلك بأمر من الامام ابراهيم وكانت احداها مع ابي سلمة الخلال الذي التقى بالشيعة وقال لهم قد حضر امركم فأعدوا واستعدوا [٤]

(١) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٧١.

(٢) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٥٦.

(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٤٨.

كما تقول رواية صاحب اخبار الدولة العباسية علي لسان ابي مسلم
"امرني الامام أن انزل في أهل اليمن وأتألف ربيعه، ولا أدع نصيبي
من صالح مضر واحذر أكثرهم من اتباع بني أمية واجمع الي العجم
واختصهم" [١] .

ووصية ابراهيم الامام لابي مسلم تتلخص في الاعتماد علي قبائل
العرب من اليمنية في خراسان، وكان هؤلاء يمثلون علي أواخر أيام
الأمويين حزب المعارضة لعرب الدولة، وأن يتألف ربيعه ويحذر ويشك
في العرب من الهضرية وهم عصبية والي خراسان، نصر بن سيار -
الا ما صلح منهم .

والحقيقة أن انقسام العرب علي أنفسهم في خراسان كان السبب
في نجاح ابي مسلم فائتاء الصراع بين نصر بن سيار الهضري
والكرماني اليمني انضم ابو مسلم الي الكرماني، وعندما حذر نصر
زعيم اليمنية الكرماني من خطورة الناعية العباسي وطلب اليه الاتفاق
ووافق الكرماني كان جزاؤه ان قتله نصر [٢] .

اعلان الثورة

لما فشل خبر ابي مسلم اقبلت الشيعة من كل ناحية وقدم

(١) نفس المصدر، ص ٢٦٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٨٥ .

الدعاة بمن وافقهم من اخوانهم، وتكاثر عددهم يوما بعد يوم [١] وكان ابو مسلم قد نزل في منطقة مرو، لأنها اصلح مكان لاعلان الثورة ومن هناك اخذ يرسل اللقباء الي مختلف الاقاليم في طخارستان ومرو الروذ والطارقان وخوارزم، وحدد ابو مسلم شهر رمضان لاطهار الدعوة، ولكنه ترك لللقباء حرية التصرف فمن اعجله العدو منهم دون الوقت بالاذي والمكروه، فقد حل لهم ان يدفعوا عن انفسهم ويجردوا السيوف "وكذلك من شغله منهم عدوهم عن الوقت فلا حرج عليهم ان يظهروا بعد الوقت" [٢] .

وترك ابو مسلم مكانه في فلين ونزل في قرية سفيلنج" وبث دعاية في الناس واطهر امره" [٣] فسارعت الاعاجم ، وكثير من اهل اليمن وربيعة الي الدعوة من بين متدين بذلك او طالب بدخل [ثاره] او مواتور يرجو أن يدرك بها ثار، واتاه عدة من ذوي البصائر من مضر [٤] .

وتقول الرواية ان ابا مسلم بعث الي نصر وفدا . . وكتب معهم الي نصر كتابا يدعو فيه الي الطاعة والدخول فيما دخل فيه اهل الدعوة ويعلمه ان هذه الرايات السود التي اظهرها هي التي لم يزل يسمع بها ويحذر من أن يكون من صرعاها [٥] .

-
- (١) انظر تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢، ص ٥٩٠ (احداث سنة ١٣٠ هـ ابن الاثير، الكامل ج ٧، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .
 - (٢) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٧٧ .
 - (٣) انظر ابن الاثير، الكامل ج ٤، ص ٣٠٠ .
 - (٤) نفس المصدر، ص ٣٠٠ .
 - (٥) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٨٥ .

واستعمل نصر ضد شيعة العباسيين دعاية دينية قوية حيث قال
هذه المسودة وهي تدعو الي غير ملتنا، وقد اظهروا غير سنتنا
وليسوا من أهل قبلتنا، يعبدون السنائير، ويعبدون الرؤوس علوج
واغنام وعبيد وسقاط العرب والموالي [١] .

وأجابه الناس وظاهروه علي حرب ابي مسلم وكتب نصر الي ابن
هبيرة والي العراق يستمهده فلما استنبط به الامور، كتب الي مروان
الهمار يشكو له ابن هبيرة ويخبره بعظم الامر من قبل ابي مسلم،
وكتب اليه .

أري ظل الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكري	وإن الحرب يبدوها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام (٢)
فإن يك قومنا أضحوا نياما	فقل قوموا فقد حان القيام
لمصري من رحالك ثم قولسي	علي الاسلام والعرب السلام

وكتب يصف له أمر ابي مسلم، وكثرة الدعوة وميل اليمانية
وربيعه اليه، ثم بعث للخليفة رسولا . وظل نصر ينتظر المدد أن
يأتيه، وقد فسد عليه أهل خراسان إلا من كان معه من مضر خاصة
وكتب نصر الي ابن هبيرة يستمهده فلم يمهده [٣] فكتب الي الخليفة

(١) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٠٤-٣٠٥ .

(٣) السعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٧٩ .

مروان ثانية يستنجد به بقوله "كتبت الي أمير المؤمنين لم يبق مني شيء أستعين به علي عدو أمير المؤمنين لأني رجالي ولا في مالي ولا في مكيدتي ولو كنت امددتك بالف فارس من أهل الشام لا كتبت بهم، ولقطعت دابر القوم الظالمين إني حين كتبت إلي أمير المؤمنين قد أخرجت من جميع سلطاني، فأنا واقف علي باب داري، وإن لم تأتني مواد أمير المؤمنين ووكلنا الي ابن هبيرة طردت عن باب داري، ثم لارجوع اليها الي ملتقي العشر". [١]

ثم أن نصرا كما يقول صاحب اخبار الدولة العباسية "جمع وجوه أصحابه وأهل الرأي والمشورة منهم ولم يجتمعوا علي شيء وهنا اضطر نصر الي الاستنجد بالخليفة مروان ثانية يستحثه علي إمداده ويستنفره بقوله "أما بعد فإني ومن معي من عشيرة أمير المؤمنين في موضع من مرو علي مجمع الطريق ومحجة الناس العظمي من مختلف القوافل والرسل والجنود من العراق في حائط قد خدقت فيه علي نفسي ومن معي، وعن يميني وشمالي قري بني تميم وسائر أحياء مصر ليس يشويهم غيرهم إلا قري علي حدهم خاملة الذكر فيها خزاعة وفيها حل طاغيتهم ابو مسلم، فنحن حين كتبت إلي أمير المؤمنين في أمر هائل يتكفأ بنا تكفل السفينة عند هبوب العواصف ونحن من أخواتنا اليمينية واغنامهم ورعاهم، فيما نتوقع من سفهم، ولما قد شعلهم من وراذهم الخبيث... وأنا معتمصم بطاعة أمير المؤمنين. وقد أملنا غياث أمير المؤمنين وورود خيله

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٣١١-٣١٢.

وفرسانه ليجمع الله بهم كل مصر علي غشه وساع في خلافه فلا يكون
مثلنا ياأمير المؤمنين قول الأول

لا أعرفنك بعد اليوم تندبني وفي حياتي مازودتني زادي

ثم قال نصر شعرا يحرض فيه العرب علي الهاشمية

بلغ ربيعه في مرو واخوتهم	ليغضبوا قبل الا ينفع الغضب
ماهلكم تنصبون الحرب بينهم	كان أهل الحبي عن رأيكم فيب
وتستركون عدوا قد اطفاف بكم	فزين غاب الحبي والرأي والادب
ذروا التفرق والاحقاد واجتمعوا	ليوصل الحبل والاصهار والنسب
ان تبعدوا الاردمنا لانقربها	و نحن نحمدكم يوما اذا اقتربوا
اتخذلون اذا احتجنا وننصرهم	لبش والله ماظنوا وماحسبوا(١)

وظهر ابو مسلم وأعلن اسم الامام من أعلي المنبر في صلاة
الجمعة وأسفل المنبر علق علمان اسودان كان قد بعث بهما الامام من
الكوفة واحدهما سمي الظل والاخر السحاب. وكان أبو مسلم وهو
يعقد اللواءين يتلو "أذان للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله علي
نصرهم لتقدير وتناول الظل والسحاب قال: أن السحاب يطبق الارض
وأن الارض كما لاتخلو من الظل كذلك لاتخلو من خليفة عباس الي
آخر الدهر[٢]".

وكذلك ليس أبو مسلم السواد هو واتباعه، كما أنه غير في

(١) اخبار الدولة العباسية ص ٢١١-٣١٢.

(٢) انظر، اخبار الدولة العباسية، ص ٣١١-٣١٢.

بعض الشعائر لها حضر عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالشيعة وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذن والا إقامه، وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة، وبالاذان والاقامة.

وهكذا بدأ أبو مسلم نشاطه في منطقة قبائل خزاعة - كما تقول النصوص ولكنه عندما اصطدم باتحاد قبائل العرب ضده خرج الي قرية الماخوان وغندق بها . ثم عاد إلي نشاطه ورغم أنه أصبح من المشكوك في أمرهم من جانب العرب، إلا أن هؤلاء كانوا مشغولين بنزاعاتهم، فلم يستمر اتحادهم طويلا بل أن عرب اليمنية تحالفوا معه عندما أرسل الي ابن الكرماني واستماله الي جانبه . أما عن انصار أبي مسلم فكانوا خاضعين له تماما، كما كان جنده مطيعين لقوادهم احسن الطاعة .

سقوط مرو:

وبفضل انقسام العرب علي انفسهم وتماسك حزب أبي مسلم، نجح هذا الأخير في الاستيلاء علي مدينة مرو عاصمة الاقليم الواقعة علي نهر المروغان وكان دخولها بفضل معالة اليمنية وعلي رأسهم ابن لكرماني [١]

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٠٩.

ودخل ابو مسلم مرو من باب قنوشير فتلا هذه الآية : ودخل المدينة علي حين غفلة من أهلها" الي اخر الآية، ثم سار الي دار الإمارة فنزلها وعلي بن الكرماني معه ، ثم دعوا الناس للبيعة فلم يتخلف عنها أحد من أهل مرو . ثم خرج علي بن الكرماني وأبو مسلم الي المسجد فصعد علي المنبر وجعل ابو مسلم يبايع الناس، وأقام ابو مسلم ثلاثة أيام يأخذ البيعة علي أهل مرو، وهرب نصر من المدينة يوم الجمعة ١٠ جمادي الأولي سنة ١٣٠هـ [١] وبصحبه امراته المرزبانة، التي اضطر الي تركها في الطريق، واتجه الي مدينة سرخس ومنها الي طوس ثم الي نيسابور .

فتح طوس:

مقتل تميم بن نصر:

ومن مرو اخذ ابو مسلم يدير الحرب ضد نصر . وكان يدير العمليات العسكرية في جانب المسودة عدد من كبار القادة العرب فأول من قام بهجمة القوات الأموية في خراسان كان قحطبة بن صالح، وهو من قبيلة طي العربية . فلقد بدأ قحطبة بهزيمة تميم بن نصر بن سيار في طوس وكان اتباع الضحاك الشيباني، من الخوارج

(١) انظر: أخبار الدولة العباسية، ص ٣١٦-٣١٨.

قد لحقوا بابن نصر هناك وانتهت المعركة بمقتل تميم بن نصر
واستباحه عسكره [١] .

ويذكر صاحب "اخبار الدولة العباسية" ان نصر بن سيار قال
يرثي ابنه تميمها لما بلغه نبا مصرعه:

نكوب فجائع الحدث العظيم	نفي عني العزاء وكنت جلدا
لاجلاء الفوارس عن تميم	وفهم لورث الاحشاء وجدا
يذب عن الجماعة والحريم	ومصرعة علي قطب الامادي
لنفس من اخي ثقة هريم	وفاء للخليفة وابتـذالا
بفارسنا المقاتل في الصميم	فلن يك دهرنا اودي مداء
فما انا بالضعيف ولا السئوم	وان يشبهت بنظمتنا مدو

فتح نيسابور

أما عن نصر فانه هرب من نيسابور الي جرحان، وتمكن بذلك ابو
مسلم من دخول مدينة نيسابور في شوال سنة ١٣٠هـ / يونية
٧٤٨ م . ويعد أن تحقق لابي مسلم هذا النجاح الكبير تخلص من

زعيمي اليمينة من العرب وهما: علي بن الكرمانى وأخوه عثمان
اذ قتلها غدرًا،

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٣-٢٢٦.

فتح جرجان [واخذ الري]:

وعندما استغاث نصر بن سيار بوالي العراق، وابن هبيرة،
ارسل اليه هذا جيشا بجرجان، ولكن قحطبة خرج اليه وهزمه في ذي
الحجة من نفس السنة، بعد ان فتح جرجان ووقع الهزيمة بأهلها
الذين حاولوا الثورة حتي قيل انه قتل منهم مايزيد علي ثلاثين الفا
وبسبب تردد والي العراق ابن هبيرة ساء موقف نصر الذي مات
وهو يفر أمام قحطبة بالقرب من الري " وكان مريضا يحمل حملا "
وبعد وفاة نصر اخذت مدينة الري ومصادر ابو مسلم املاكهم لانهم
كانوا سفيانية كما تقول النصوص واحاط الحسن بن قحطبة ببقية
جيوش أهل الشام في نهاوند . وعندما خرج جيش شامي كبير لفك
حصارهم بقيادة عامر المري والي كرمان وداود بن يزيد بن هبيرة،
في أواخر سنة ١٣١هـ / ٧٤٩ هزمه قحطبة وهو يتقدم قرب
اصفهان . وتقول النصوص "امر قحطبة بمصحف فنصب علي رمح
ونادي يا أهل الشام أنا ندعوكم الي مافي هذا المصحف فشتموه
والمحشوه في القول " وأنه هزم داود بن هبيرة، وأصابوا عسكره
واخذوا منه مالا يعلم قدره من السلاح والمتاع والرقيق والغيل، وما
رؤي عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء مافي هذا العسكر كأنه
مدينة من البرابط والطنابير والمزامير والحرر مالا يحصي " [١]

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣١٦-٣١٧، ٣١٨-٣١٩.

حصار نهاوند

واستراح قحطبة - بعض الوقت بامفهان ثم قدم علي ابنه الحسن بنهاوند وبعد عدة أشهر من القتال استسلم الشاميون بنهاوند دون أن يذروا في مصير أخوانهم بخراسان، هؤلاء قضى عليهم دون شفقة أو رحمة وبذلك انفتح طريق العراق أمام الخراسانية .

مسير قحطبة إلى ابن هبيرة بالعراق:

وخرج قحطبة من نهاوند وتوجه الي العراق واضطر في أول الأمر الي الانسحاب امام يزيد بن هبيرة والي الاقليم ، الذي خرج للقاءه وراء دجلة ولكنه عاد واتجه نحو الكوفة . وتبعه ابن هبيرة وتمكن من مفاجأته في ذي الحجة سني ١٣٦ هـ / اغسطس ٧٤٩ م في معسكره قرب الأنبار، مما اضطر قحطبة الي الانسحاب الي واسط . واثناء القتال الذي كان يدور ليلا سقط قحطبة في النهر الفرات ومات غرقاً [١] . في ليلة الأربعاء ٨ من محرم سنة ١٣٢ هـ [٢] . ولكن القوم اجتمعوا واجمعوا علي الرضا بحميد [الحسن] بن قحطبة في رواية ابن الاثير فبايعوه وسلموا له الأمر [٣] .

(١) ابن الاثير ج ٤٤ ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٢) اخبار الدولة العباسية ٤ ص ٣٧١

(٣) نفس المصدر ص ٣٧١ تاريخ خليفة ج ٢ ص ٥٨٢ احداث سنة

فتح الكوفة

تقدم الحسن بن قحطبة الي الكوفة في الجنود واستولي جيشه عليها بعد أن هزم ابن هبيرة ويفهم من النصوص أن الكوفة اخذت بسهولة، اذ كان محمد بن خالد القسري قد خرج فيها علي الامويين الذين انسحبوا و"سود" أي أعلن دخوله في دعوة العباسيين وكتب بذلك الي قحطبة [١] .

ظهور ابي سلمة بالكوفة

وأرسل أبو سلمة الي حميد بن قحطبة أن يدخل الكوفة بأحسن هيئة وان يظهروا زينتهم، ويشهروا سلاحهم واعلامهم وقوتهم، ففعل وظهر ابوسلمة وأعلن أمره وكان ظهور ابي سلمة وتوليهِ للأمور يوم الجمعة ١٠ من المحرم سنة ١٣٢ هـ وتولي ادارة مقاليد الأمور [٢] .

موت ابراهيم الأمام

وتقول النصوص أن الخليفة مروان بن محمد كان قبل ذلك بقليل قد أمر بالقبض علي الامام ابراهيم الذي اخذ وانفذ الي حران وحبس

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ١٤ ص ٣٦١ .

(٢) اشار الدولة العباسية ص ٣٧٤-٣٧٥ .

الخلال، ومن ابي العباس، والتقي بهم علي الضفة اليسري لنهر الزاب، ودام القتال بين الطرفين تسعة ايام احرز مروان خلالها بعض الانتصارات، ولكن الامر انتهى بوقوع الاضطراب في جيشة اذ كانت كل عصبية تريد ان تتقدم العصبية الاخرى وأعقب ذلك هزيمة مروان نتيجة لخطأ استراتيجي، اذ عقد جسراً علي النهر عبره رغم معارضة وزرائه في ذلك وترتب علي هذا الخطأ ان انقطع الجسر عند الانهزام وكان من غرق يومئذ اكثر ممن قتل " وذلك في ١١ جمادي الثاني من سنة ١٣٢ - ٢٦ يناير ٧٥٠م.

وفر مروان الي الموصل بعد هزيمة الزاب، ولكنه استقبل استقبالاً سيئاً، فسار الي حران، واقام بها اكثر من عشرين يوماً. عندما تبعه عبد الله بن علي الي هناك مضى الي حمص. ولكن مدن الشام كانت قد بدأت تخلع طاعتها بالنسبة للامويين وتسقط بين ايدي العباسيين، مدينة بعد أخرى، مثل : قنسرين وحمص وبعبك ولم تدافع الا دمشق بعض الوقت فدخلت عنوة في ٥ رمضان سنة ١٣٢هـ / ٧ نوفمبر سنة ٧٥٠م. بعد أن حوصرت وضيق عليها الحناق.

وتابع العباسيون مطاردة مروان، اذ سار في اثره صالح بن علي من ابي فطرس الي العريش الي النيل ثم واصل سيره الي صعيد مصر. وفي بلدة بومير من قري اليوم حاول مروان الاختفاء في

أحدي الكنائس [١] . ولكنهم بايتوه وهجموا علي عسكره وضربوا بالطبول وكبروا ونادوا بالثارات ابراهيم " فطن من بعسكر مروان ان قد احاط بهم سائر المسودة .

فقتل مروان في ١٧ من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ / ١٧ أغسطس سنة ٧٥٠ م . واحتز رأس اخر خلفاء الامويين وارسل الي صالح بن علي الذي مثل به فقطع سلسانه وسيره الي ابي العباس الذي كان بالكوفة .

استسلام ابن هبيرة في واسط ومقتله:

بالقضاء علي مروان بن محمد لم يبق الامويين من قوة ولا حول الا قوات ابن هبيرة التي لجأت بعد انهزامها امام ابن قحطبة الي واسط، المدينة الاستراتيجية التي بناها الحجاج في مستنقعات ودافعت عن نفسها مايقرب من العام . بدأ بمناوشات خارج المدينة بين أهل الشام وجيوش الحسن بن قحطبة وانتهت بانهزام أهل الشام والتجائهم الي المدينة وتحصنهم بها وأصبح القتال رميا وتراشقا من بعيد .

ورغم الانقسامات بين اليمنية والقيسية، في صفوف ابن هبيرة، بعد ان كاتب ابو العباس السفاح اليمنية من اصحاب ابن هبيرة ، فان هذا الأخير لم يدخل في مفاوضات مع العباسيين الا عندما علم

(١) انظر ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٣٠-٣٣١ .

بموت مروان وفي هذه الاثناء كانت قيادة القوات العباسية المحاصرة بواسطة قد انتقلت من يدي الحسن بن قحطبة الي ابي جعفر اخي الخليفة . وهذا يبين أن الخليفة . بدأ ينهج سياسة جديدة تهدف الي وضع مقاليد الامور وخاصة القيادات العسكرية بين يدي افراد أسرته . وكتب السفاح الي الحسن بن قحطبة " ان العسكر عسكرك والقواد قوادك ولكن احببت ان يكون اخي حاضرا فاسمع له واطع وأحسن مؤازرته " . وبعد ان علم المحاصرون بمقتل مروان طلبوا الملاح، وجرت السفراء بين ابي جعفر وابن هبيرة ومالت المفاوضات بين الطرفين وكتب ابو جعفر كتاب امان لابن هبيرة، ليث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء اربعين يوما حتي ارتضاه وارسله الي ابي جعفر الذي انقلبه الي اخيه السفاح فأمره بامضائه السفاح المعاهدة ولكنه لم يحترمها، بعد ان اعترض أبو مسلم علي نصوصها وكتب الي السفاح " ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة نسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة " [١]

وانتهى الامر بقتل افراد الحامية المستسلمة واغتيال ابن هبيرة باستسلام واسط ثم القضاء علي القوات الاموية النظامية ونهج العباسيون سياسة ترمي الي استئصال شافة الامويين واستخدام العنت والنقوة ضد افراد الاسرة التعسة، ولم يتوزعوا في ذلك عن استعمال الغدر والخيانة [٢]

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٨ .

(٢) نفس المصدر، ص ٣٣٣ .

مذبحة أبي فطرس:

من أهم المذابح التي غدر فيها عبد الله بن علي عم الخليفة وقائد القوات العباسية في الشام، بعدد كبير من أفراد الأسرة الأموية والتي تسمى بمذبحة أبي فطرس، وذلك بعد أن أمنهم ودعاهم إلى الطعام ويقال أنه بعد قتلهم غيلة أمر بالبسط ففرشت علي جثثهم فاكل عليها وهو يسمح انين بعضهم [١] .

وطارد العباسيون الأمويين في الشام وفي فلسطين والعراق وبعد مطاردة الأحياء انتهكوا حرمة الأموات فنبشت قبور الخلفاء في دمشق بأمر عبد الله بن علي ونثر تراب جثثهم في الهواء، ولم يستثن إلا قبر عمر بن عبد العزيز، ولم ينج من الأمويين إلا حفيد الخليفة هشام وهو عبد الرحمن بن معاوية الذي هرب إلى الأندلس حيث أنشأ دولة أموية جديدة [٢] كما سئري فيما بعد "واستصفيت أموال الأمويين وهدمت قصورهم، وضربت مصانع المياه التي كانوا قد أقاموها حتي لايبقي لذكرهم اثر .

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٣٣-

(٢) انظروا اخبار مجبومة في فتح الأندلس.

الفصل الرابع

إبتداء الدولة العباسية وبيعة أبي العباس

ابتداء الدولة العباسية وبيعة أبي العباس

١٣٢ - ١٣٦ هـ

بويح أبو العباس عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة في ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ [١] ، في الكوفة .

وكان إبراهيم الإمام لما حبس بحران، وتوقع نهايته، قد عهد لأخيه أبي العباس "وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة، ولا يكون له بعد بالحمية لبث ولا عرجة حتي يتوجه الي الكوفة ٠٠٠ [٢]

وخرج أبو العباس ومعه اقاربه من العباسيين فيهم أخوه أبو جعفر [المصور] وعبد الوهاب ومحمد ابن أخيه وأعمامه: داود وعيسى ومالك وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس، وابن عمه داود وابن أخيه عيسى بن موسى حتي قدموا الكوفة في صفر .

(١) انظر: مؤلف مجهول العيون والحدائق، ص ١٩٩، وقارن خليفة بن خياط، تاريخ خليفة ج ٤، ص ٦٠٨ حيث يقول: وبويح ليلة الجمعة بالكوفة ثلاثة عشر بقيت من ربيع الأول سنة اثنين وثلاثين ومائة، بينما تقول رواية المسعودي في مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٤ أنه "بويح يوم الأربعاء لاحدي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنين وثلاثين ومائة، وقيل في النصف من جمادي الآخر، أما رواية ابن الأثير ج ٤، ص ٣٣٦ فتقول انه بويح بالخلافة في شهر ربيع الأول لثلاث عشرة مضت منه وقيل في جمادي الأول.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٥ .

ونستشف من الروايات ان "وزير آل محمد" وهو ابو سلمة
الخلال كانت له نوايا خاصة وانه كان يميل الي العلويين فظهر انه
لم يبايع شخصيا الا ابراهيم الامام وهذا يفسر كيف انه اخفي وصول
العباسيين الي الكوفة لمدة تزيد علي اربعين يوما . وحاول في هذه
الفترة أن يتصل بالعلويين فارسل رسالتين من نسخة واحدة الي الامام
ابي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي
طالب . وعبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب يدعو كل احدهما
الي القدوم اليه ليصرف الدعوة اليه ويأخذ بيعة أهل خراسان .
ولقد كان جواب جعفر بن محمد احراق الرسالة وانكر معرفته بأبي
سلمة . أما عبدالله فقد شاور جعفر الصادق فحذره الصادق من نتيجة
الانقياد وراء الخلال قائلا له : "ومتى كان أهل خراسان شيعة لك
أنت بعثت ابا مسلم الي خراسان أنت امرته بلبس السواد ولكن
عبد الله استاء من كلام جعفر واعتبره حسدا منه [١] .

أما الدوافع التي دفعت الخلال للقيام بهذا العمل فمن ذلك خوفه
بعد مقتل ابراهيم الامام من انتقام الامر ونساده .

ولقد فشلت محاولات الخلال . واخيرا عرف احد كبار اتباع ابي
مسلم بوجود الخليفة الجديد فذهب اليه ومعه عدد من زعماء
الخراسانية والقواد وبايعوا ابا العباس، وسلموا عليه بالخلافة، وعزوه
في ابراهيم الامام واضطر ابو سلمة الي اللهاج ومبايعة ابي
العباس [٢] .

(١) السبعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٧-٩٨ .

(٢) انظر الطبري تاريخ الرسل والملو ج ١٧ ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ابن الاثير

ج ٤ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

وتداولوها فجاوروا فيها وأستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملا الله
لهم حيناً حتي أسفوا فلما أسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا
وتدارك بنا امتنا وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمن بنا علي الدين
استضعفوا في الأرض وختم بنا كما اففتح بنا .

يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، انتم الذين لم
تتغيروا عن ذلك ولم يثكنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتي
ادركتهم زماننا واثاكم الله بدولتنا فانتم اسعد الناس بنا واكرمهم
علينا وقد رذتكم في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح
المبيح والثائر المبير" [١] .

وأثناء الخطبة تملكته الحمي فاضطر أن يقطع أول خطبة له
فوق المنبر . ولكن عمه داود بن علي تكلم نيابة عنه، ومن بين
ماقاله في خطبته "لقد كانت أموركم ترمضنا ونحن علي عرشنا
وتشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم واستنزالهم بكم
واستلثارهم بفيئكم صدقاتكم وصغانكم عليكم لكم ذمة الله تبارك
وتعالى وذمة رسوله صلي الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله
علينا ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في
العامّة والخامّة بسيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم، تباتبا
لبني حرب بن أمية وبني مروان اثروا في مدتهم العاجلة علي الاجلة
والدار الفانية علي النار الباقية، فركبوا الاثام وظلموا الانام" [٢] .
ثم قال يا أهل الكوفة انا والله مازلتنا وظلمونا بن علي حقنا

(١) انظر الطبري تاريخ الرسل والملوكة، ص ٢٠٤، وفي نسخة أبي الفضل ابراهيم

طبع دار المعارف مصر ١٩٦٦، ص ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٠٧، ٢٠٨، ابن الأثير الاقبال، ج ٢، ص ٢٠٧ .

حتي اباح الله لنا شيعتنا اهل خراسان فاحياهم حقنا . . وأظهر بهم دولتنا واراكم الله ماكنتم تنتظرون فاطهرفيكم الخليفة من هاشم واداكم علي اهل الشام ونقل اليكم السلطان وأعز الاسلام . . وان لكل اهل بيت مصرنا وانتم مصرنا الا وانه مامعد منبركم ههنا خليفة بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب واميير المؤمنين عبدالله بن محمد وأشار بيده الي ابي العباس السفاح ثم قال " واعلمو ان هذا الامر فينا ليس بخارج منا حتي نسله الي عيسي بن مريم عليه السلام] [١] .

يتضح من الخطبتان السمات المميزة للعصر الجديد ومنها:

أن الدعوة العباسية قامت من اجل احلال الاسلام الذي فشل بنو مروان في تطبيق مبادئه
- وان لبني العباس الحق في الخلافة لانهم اقرباء الرسول صلي الله عليه وسلم من جهة عمه العباس بن عبد المطلب الذي مات بعد موت الرسول .

- تحقيق العدالة للمظلومين والمستضعفين من الناس .

- التأكيد علي نقل مركز الثقل السياسي من الشام الي العراق .

- زيادة الاعطيات [اعطيات الجند] الي مائة درهم .

(١) نلس المصدر السابق، ج ١٧، ص ١٤٢٧، ابن الاثير الكامل، ج ١٤، ص ٣٢٥

... ولكن الخليفة حذرهم من أية حركة قائلا بأنه الثائر المعبير.

- أكد علي وضع آل العباس من الاسلام وأهله وانهم بنو هاشم وأهل البيت.

- فندد الخليفة بأي السببية في قولهم بأن الخلافة من حق آل علي وبين أئمة العباسيين في احقاق الحق وازهاق الباطل.

ندد ابو العباس بسياسة الامويين وظلمهم الناس وكيف ان العباسيين هم الذين اذلوا دونتهم واعلن حلول عهد العدل والاصلاح.

وهكذا قامت الأسرة الخلالية الجديدة وهي أسرة العباسيين بالكوفة وأول خلفائها هو ابو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

والظاهر ان الخليفة كان يشك في موقف وزيره ابي سلمة الخلال ولذلك نجد انه لا يقيم في الكوفة . ولكن انتقل الي حيث يوجد العسكر العباسي الخراساني حمام اعين ثم بعد ذلك ينتقل الي الحيرة وينزل في الهاشمية العاصمة الجديدة ثم انه بعد ذلك تخلص من ابي سلمة الخلال علي يدي بعض اتباع ابي مسلم. [١]

(١) انظر ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٣٦.

وعلي أيام السفاح تم القضاء علي مروان بن محمد - كما سبق القول حدث كل هذا، وأهل الشام - الذين كانوا يكون العناء لمروان يتفون موقف المتفرج علي نهاية الدولة التي كانوا يدينون لها بكل شيء. هذا ولو أنهم بعد ذلك حاولوا القيام برد فعل فنقضوا وخلعوا في بعض المدن مثل: حران وقنسرين ودمشق.

وأهم تلك الثورات ثورة قنسرين، إذ قامت القيسية بها ونادت بأبي محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا اليه وقالوا: هذا السفيفاني المنتظر. ولكن عبد الله بن علي تمكن من تشتيت شمل الثوار في أواخر سنة ١٣٣ هـ. ووقع أبو محمد بين أيدي العباسيين وهو يفر الي الحجاز وذلك علي أيام المنصور [١].

وعصر أبو العباس لم يبلغ خمس سنوات، وعمل السفاح بمعاونه أخيه أبي جعفر علي أن يتقلد الهاشميون مقاليد الأمور في الدولة، فعهد الي أخوته وأبنائه وأبناء عمومته بالقيادات العسكرية وولايات الأقاليم كما بدأ سياسة غريبة تهدف الي التخلص من كبار التابع والعمال الذين يحس بخطورتهم.

الثورات علي عهد أبي العباس:

وعلي عهد أبي العباس قامت بعض الثورات في خراسان، وفي إقليم ماوراء النهر ولكن الجيوش العباسية الخرسانية استطاعت أن

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٣٤-٢٣٥.

تقضي عليها بسهولة وكذلك استطاعت جيوش الدولة ان تحرز انتصارات في المشرق وان تدفع بحدود الدولة نحو اواسط آسية .

ثورة بخاري:

ثورة بخاري هذه خطيرة اذ تزعمها رجل اسمه شريك المهري من قبيلة مهرة . هذا الرجل كان يؤيد ال البيت في اول الامر، ولكنه نقم علي السياسة التي انتهجها ابو مسلم عندما توسع في استغلال سفك الدماء . والتف حوله اكثر من ٣٠ الف رجل من منطقة بخاري ومنطقة خوارزم وأرسل ابو مسلم جيشا لقتال هذا الثائر علي رأسه زياد بن صالح الخزاعي، وعاون ابن صالح ملك بخاري واخذت الثورة بكثير من العنف والقسوة ويقال ان المدينة تركت طعمة للنيران لمدة ثلاثة ايام، كما صلب الاسري علي ابوابها . [١]

وظهر علي اطراف الدولة خطر جديد، ذلك ان الصين بدأت تتدخل في شئون ما وراء النهر . ولكن زياد بن صالح بعد ان قضى علي ثورة بخاري استطاع ان يحرز نصراً عظيماً علي القوات الصينية في وقعة تسمى طراز وتبلغ الروايات العربية في ذلك النصر فتقول ان المسلمين قتلوا حوالي خمسين الفا واسروا نحو عشرين الفا، وهرب باقي الجيش الي الصين .

وأسمرت الصين في سياستها التي تهدف الي مساعدة الحكام

(١) انظر النرخشي، تاريخ بخاري، ترجمة الدكتور ابي عبدالمجيد بدوي، نصر الله ميسر الطرازي طبعة دار المعارف، مصر، ص ٩١-٩٣ ابن الاثير، ج ٤، ص ٣٤١، ٣٤٢.

الوطنيين، علي الخروج علي الحكم العربي. ولكن عامل بلخ الذي عينه ابو مسلم هو ابا داود خالد بين ابراهيم نجح في قمع ثورة الختل التي فراميرها الي بلاد الصين، وكذلك قتل دهقان كش ونسف.

وهكذا استطاع ابو مسلم ان يحرز نجاحا كبيرا في سياسته الخارجية بتأمينه لحدود الدولة الخارجية كما نجح في سياسته الداخلية. وهذا النجاح الكبير زاد بطبيعة الحال من هيبة الداعي الهاشمي واثار الخوف في نفوس العباسيين.

خروج زياد بن صالح:

ففي سنة ١٣٥ هـ قامت ثورة في أرض ماوراء النهر، بقيادة زياد بن صالح ومعه سباع بن النعمان الأزدي - وهو الذي كان قد أرسله السفاح الي زياد بن صالح وأمره ان رأي فرسه ان يثب علي ابي مسلم فيقتله. وكان ابو مسلم قد عينهما واليين لما وراء النهر. والظاهر انهما رفعوا رايه العصيان بتحريض من السفاح، ولكنهما لم ينجحا في ثورتهم تلك فقتل سباع بمدينة امل. أما عن زياد بن صالح فقد انفض عنه جده وهرب الي دهقان قرية باركت فقتله فبعث راسه الي ابي مسلم [١].

ولم يكن هذا يعني انتهاء محاولات الخليفة ضد عامله الكبير وذلك، انه ربما قرر ابو العباس السفاح بالاتفاق مع اخيه ابي جعفر

(١) انظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٧، ص ٤٦٦ - ٤٦٧، ابن

الانبار، ج ١، ص ٣٤٤.

التخلص من ذلك المنافس الخطير . ولكن الهدية وافت ابا العباس فتوفي في ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ / يونية ٧٥٤ وهو في ريعان شبابه في الانبار وقد راح ضحية الحمي التي امت به، اوفي وباء الجدري [١]

القضاء على ابي سلمة الخلال:

كان ابو مسلم شديد الحسد لتزايد نفوذ ابي سلمة في العراق وتذكر الروايات انه اقترح علي الخيفة التخلص منه وانه كتب اليه يقول له "قد احل الله لك يا أمير المؤمنين دمه لأنه قد نكث وغير وبدل" ولكن السفاح رد علي ذلك بأنه لا يريد ان يبدأ عهده بقتل رجل من شيعته مثل ابي سلمة لجهوده في نشر الدعوة [٢] . كما كلمه ايضا ابو جعفر [المنصور] أخوه وداود بن علي عمه في ذلك . وكان ابو مسلم قد راسلها وطلب منها ان يشير ا علي السفاح بقتله .

ولكن ابو مسلم كما نستشف من الروايات ارسل جماعة من ثقاته لقتل ابي سلمة وانتهاز فرصة انصرافه من عند السفاح من الانبار وليس معه احد . "فوثب عليه اصحاب ابي مسلم فقتلوه" واشيع ان ابا سلمة قتل الخوارج، وكان مقتله في رجب سنة ١٣٢ هـ .

(١) خليفة تاريخ خليفة ج ١ ص ١٦٢٩ احداث سنة ١٣٦ هـ وقارن البسعودي مروج الذهب ج ١ ص ٩٤ حيث يقول "ومات بالانبار في مدينته التي اشتهرها وذلك يوم الاحد لاشنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ابن الاشير ج ١ ص ٣٤٦ .

(٢) انظر البسعودي ج ١ ص ١١٥-١١٦ .

الفصل الخامس

خلافة المنصور

خلافة المنصور

١٣٦ - ١٥٨ هـ

بعد ابي العباس تبوأ عرش الخلافة اخوه ابو جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الملقب بالمنصور بالله.

ويعتبر ابو جعفر المأسس الحقيقي للدولة العباسية.

وأول المشاكل التي واجهها المنصور هي أحقية ولايته لعهد ابي العباس إذ تذكر الرواية أنه في سنة ١٣٦ هـ أخذ ابو العباس البيعة بولاية عهد المسلمين وبالخلافة من بعده ل أخيه ابي جعفر عبد الله بن محمد، ومن بعد ابي جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي وأنه "جعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته".

رغم كل هذا فإن اعتلاءه العرش لم يتم دون نزاع فعندما توفي ابو العباس السفاح، كان اخوه ابو جعفر اميرا للحج، وبصحبته ابو مسلم وقام بأخذ البيعة لابي جعفر، عيسى بن موسى ولي العهد الثاني الذي كان واليا للكوفة. وكتب عيسى الي ابي جعفر يعلمه بموت السفاح والبيعة له، كما كتب الي الامصار يطلب البيعة

للخليفة الجديد [١] .

ثورة عبد الله بن علي العباسي:

وفي ذلك الوقت كان عم الخليفة عبد الله بن علي، بطل وقعة الزاب والذي كان واليا علي بلاد الشام، وكان قد سار علي رأس قواده من الشاميين والخرسانية علي الصائفة وهو يقصد بيزنطة . وعندما وصله خبر وفاة ابو العباس وولاية المنصور توقف عن المسير ودعا قواده ورجاله الي مبايعته، وكان لابد ان يبرر موقفه هذا ويظهر احقية في المطالبة بالخلافة فقال: ان السراح حين اراد ان يوجه الجنود الي مروان بن محمد لم ينتدب غيوري وعلي هذا خرجت من عنده وهذا يعني انه كان يرى ان قتال الخليفة الاموي حقا للخليفة الذي سيحل مكانه وان انتداب الخليفة له للقيام بهذا الامر بحناه نيابته عنه وانه لا يتنازل عن هذه النيابة ولا يعترف بما حدث بعد ذلك من التغيير والتبديل والعهد لغيره . ووقف الي جانب عبد الله عدد من القواد وبايعوه بالفعل . والذي لاشك فيه ان تشجيع اهل الشام عصبية الدولة الاموية - كان من الاسباب التي قوت عبد الله وجرأته علي الثورة .

سار عبد الله بن علي ونزل حران . وقتل ابو جعفر من الحج ليجد نفسه امام ثورة عمة ولم يجد مفرأ من الاستنجاد بابي مسلم رغم ماكان يكنه له من الحقد، رغم ماكان يظهره الخراساني من تعال

(١) انظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٧١، انظر ابن الاثير الكامل، ج ٤، ص ٣٤٧، وقارن خليفة بن خياط تاريخ خليفة ص ١٢٩، البسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٢٨ .

وما كان يشعر به في قرارة نفسه من الأفضال والخدمات الكبيرة التي
أداها للدولة حتي أنه غلب علي أبي جعفر، الذي كان أميراً للحج،
فكان أبو مسلم يكسو الأعراب ويصلح الآبار، والطريق، وكان الأكر
له [١] .

أمر المنصور أبا مسلم بالمسير لحرب عبد الله بن علي .
والظاهر أن عبد الله خشي غدر جنده من الخرسانية الذين كانوا
يدينون بالطاعة والولاء لأبي مسلم فتخلص منهم وقتل منهم الكثيرين
ولم يبق له إلا أهل الشام .

سار أبو مسلم إلي حران وانسحب عبد الله بن علي من حران
إلي نصيبين وتحصن هناك، ولم يرد المنصور أن ينفرد أبو مسلم
بالقيادة فاستدعي القائد المشهور الحسن بن قحطبة من أرمينية، وكان
والياً عليها وأمره أن يوافي أبو مسلم فلحق به في الموصل . وتقدم
أبو مسلم حتي نزل قريباً من عبد الله من ناحية نصيبين . والظاهر
أن مراكز أهل الشام كانت حصينة منيعة فلجأ أبو مسلم إلي خطة
سليمة لزعزعتهم عن مراكزهم الاستراتيجية فكتب إلي عبد الله بأنه
لم يأت لقتاله وإنما ولي الشام بأمر من الخليفة وأنه متوجه لتقلد
ولايته وعندئذ خشي أهل الشام من الخرسانية أصحاب أبي مسلم علي
ديارهم وطلبوا أن يسيروا إلي بلادهم لحمايتهم . وكان عبد الله يعلم
أن ما أعلنه أبو مسلم لم يكن إلا خدعة . وأنه لابد أن يتناصبه القتال
ولكن أهل الشام لم يقتنعوا بذلك فقرر عبد الله الرحيل معهم نحو

(١) انظر، ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٥٠ .

الشام وعندئذ تحول ابو مسلم فنزل في معسكر عبد الله بن علي في
الموضع الحصين . "وغور ماحوله من المياه والقي فيها الجيف"
وأضطر عبد الله والشاميون الي النزول في موضع عسكر ابي مسلم .
واستمر الصراع بين الفريقين مدة طويلة زادت الي اكثر من خمسة
أشهر . وكان اهل الشام اكثر فرسانا، ورعم حصانة المواقع التي
احتلها ابو مسلم، فان الشاميين استطاعوا بعد شهر من المناوشات
من توجيه هجمة قوية نحو المعسكر العباسي وتمكنوا من زحزحته
عن مواضعه .

وتشير النصوص الي مهارة ابي مسلم في تسيير دفة القتال
فقد اقام عريش كان يجلس عليه فينظر الي رجاله فاذا رأي خلا في
بعض صفوفه أرسل الرسل الي مختلف القواد لاتخاذ الموقف
المناسب .

ولم يستطع اهل الشام ان يستفيدوا من ذلك النجاح المحقق الذي
احرزوه، وفي شهر جمادي الثاني سنة ١٣٧ هـ دارت المعركة
الحاسمة يتخلص تكتيك هذه الموقعة في أن ابا مسلم امر الحسن
بن قحطبة ان يعبئ الميمنة اكثرها الي الميسرة وان يترك في
الميمنة جماعة اصحابه واشدائهم ولما رأي ذلك اهل الشام كشفوا
ميسرتهم وانضموا الي ميمنتهم بازاء ميسرة ابي مسلم وهنا امر
ابو مسلم اهل القلب والميمنة ان يهجموا علي ميسرة اهل الشام .
ونجحت هذه الخطة وانهزم اصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم .

أكتفي أبو مسلم بالانتصار فأعلن الأمان في الناس وأمر بعدم الانتقام من المهزمين ولما كتب الي المنصور يعلمه بالنصر وبلاستيلاء علي معسكر عبد الله أرسل المنصور موله ليحصى الغنائم . وكان ذلك من الأسباب التي اثارت غضب أبو مسلم، وعملت علي زيادة الجفوة بينه وبين الخليفة . تقول الرواية ان ابا مسلم قال: أنا أمين في الدماء خائن في الأموال [١] .

أما عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد بن علي الذي كان معه فلجأ عبد الله الي أخيه سليمان الذي كان واليا علي البصرة وتواري عنده حتي سنة ١٣٩هـ وعندما عزل سليمان وطلب اليه المنصور ان يبعث بعبد الله بعد ان امنه ولكنه سجن وانتهي الأمر بقتله فيما بعد [٢] .

لجأ عبد الصمد الي موسى بن عيسى ولي العهد في الكوفة وطلب اليه الأمان وانتهي هو الآخر نهاية شبيهة بعبد الله [٣] .

وهكذا تغلب المنصور علي اولي الصعاب التي اعترضته بعد

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٥٠، وقارن البسعودي مروج الذهب ج ٤ ص ١٣٩ حيث يقول " فبعث اليه المنصور بيقطين بن موسى لقبض لخزائن فلما دخل يقطين علي ابن مسلم قال: السلام عليك ايها الامير، قال: لاسلم عليك يا ابن اللخاء اوتين علي الدماء ولاوتين علي الاموال" .

(٢) انظر ابن الاثير، ج ٤، ص ٣٥٠ ج ٥ ص ٢٤ احداث سنة ١٤٧هـ البسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٦٠-١٦١ .

خلافته وهي ثورة أهل الشام بزعامة عمه عبد الله وذلك بفضل رجل الدولة أبي مسلم الخراساني الذي لم يلبث أن يلاقي مصرعه بدوره علي يدي الخليفة .

مقتل أبي مسلم الخراساني:

مما سبق يتضح لنا أن سلطان أبي مسلم في خراسان كان قد توطد بعد تخلصه من العرب الذين كانوا يتوقنون الي تقلد الأمور في ولاية خراسان وازدادت سلطة أبو مسلم .

والحقيقة ان النزاع بين أبي جعفر وأبو مسلم الي سنة ١٣٢هـ الي أوائل ايام السفاح وذلك بعد مقتل أبي سلمة الخلال وعندما أرسل السفاح أخاه أبا جعفر الي أبي مسلم بخراسان ومعه العهد لأبي مسلم بولاية خراسان وبالببيعة للسفاح ولأبي جعفر من بعده فلم يهتم الزعيم الخراساني بولي العهد اي بأبي جعفر الذي كان يقول لأخيه اطعني واقتل أبا مسلم فوالله ان في رأسه لغدره [١]

وحاول أبو العباس التقليل من نفوذ أبي مسلم واغتياله عدة مرات من ذلك ماتقول الرواية من أنه أمره باستقاط من لم يكن من أهل خراسان من جنده ليقتل من نفوذه ولكن أبا مسلم ادرك الحيلة [٢] وتجلت قوة أبي مسلم في نفس الوقت عندما أرسل

(١) انظر العيون والحدايق ص ٢١٣-٢١٤ ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٣٥٤-٣٤٦

(٢) انظر الجهشيارى كتاب الوزراء والكتاب ص ٩٤

السفاح عمه عيسى بن علي واليا بفارس وتقول الرواية ان عمال ابي مسلم هناك تصدوا له بل وبلغ الأمر ان بعضهم اراد قتل عيسى بن علي، وعلي ذلك كان من الطبيعي أن يفكر السفاح وأبو جعفر في التخلص من "أمين آل محمد" بعد ان تخلصوا من "وزير آل محمد" وذلك حسب السياسة التي رسمها والتي كانت ترمي الي تأكيد سلطان الهاشميين. ويظن أن السفاح وافق علي التخلص من أبي مسلم ولكنه عاد واجل ذلك للفرصة اخري. وأخيراً في نهاية سنة ١٣٦هـ طلب ابو مسلم من السفاح ان يوليه امرة الحج وان يكون نائبه يوم عرفة ولكن السفاح جعله تحت امره أخيه ابي جعفر الذي اخذ امرة الحج لنفسه وحضر من ولايته ارمينية من اجل ذلك وتأثر ابو مسلم وأمرها لأبي جعفر وعهد الي الظهور بجانبه. ثم انه عندما وصله نبأ موت السفاح وهم في طريق العودة لم يسارع أبا مسلم ببيعه المنصور الا بعد ان لفت الأخير نظره الي ذلك في كتاب ارسله اليه. وأثناء قتال عبد الله بن علي لاحظ الحسن بن قحطبة ان أبا مسلم كان يهزأ ويستخف بالكتب التي كانت تصله من أمير المؤمنين فكتب بذلك الي الوزير ابو ايوب [١]. وأخيرا زاد التوتر عندما ارسل المنصور مولاة ليحصى الغنائم التي استولي عليها في معسكر أهل الشام.

وأحسن المنصور خطورة الرجل وحاول ابعاده عن خراسان معقله وموطن سلطانه، فعرض عليه ان يوليه بلاد الشام ومصر، وطلب اليه

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٥٠-٣٥١.

ان يسير الي ولايته الجديدة . وشعر ابو مسلم بما يضره الخليفة فلم يقبل ما عرض عليه . وقرر العودة الي ولايته خراسان . ولكن المنصور رغبة ورهبة واتصل بنائب ابي مسلم في خراسان الذي هدد ابا مسلم وجعله يخضع لاوامر الخليفة . ويفضل اغراء بعض اصحابه سار ابو مسلم الي المنصور ليعتذر له عما بدر منه ، وكان المنصور في ذلك الوقت قد سار من الانبار الي المدائن ليتنظر مكان العاصمة الجديدة . وقابل رجال المنصور ابا مسلم قبولا حسنا ، واطهروا له آيات الاجلال وطمانوه ثم دخل ابو مسلم علي المنصور ، فاقبل عليه الخليفة يعاتبه ويعدد له هفواته وسقطاته . واعتذر ابو مسلم عن ذلك ببلاده وماكان منه ، وماقام به فكان رد المنصور . "يا ابن الخبيثة والله لو كانت امه مكانك لاجزأت انها عملت في دولتنا وبريحتنا فلو كان ذلك اليك ماقطعت فتيلاد [١] . وامر به لقتل تحت ناظرية في ٢٥ شعبان سنة ١٣٧ هـ .

وتقول النصوص ان جعفر بن حنظلة لما نظر الي ابي مسلم مقتولا قال للمنصور يا امير المؤمنين عد من هذا اليوم خلافتك [٢]

وبعد مقتل المنصور لابي مسلم خطب الناس وحلرهم من الخروج من انس الطاعة الي وحشة المعصية وبرر موقفه من الرجل الذي ابلي في سبيلهم احسن البلاد بقوله ، ولم يمنعنا الحق له من اضاء الحق فيه [٣]

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٥٢-٣٥٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٥٦ .

الموقف في خراسان عقب مقتل ابي مسلم

ثورة سبأذ:

لم يمر موت ابي مسلم بسلام وذلك انه قامت بخراسان ثورة تطالب بدم ابي مسلم هذه الحركة تزعمها رجل من احدي قري مدينة نيسابور اسمه "سبأذ" . واستجاب لدعوة هذا الرجل التي قالت بعودة ابي مسلم "وانه لم يموت ولن يموت حتي يظهر فيملاء الارض عدلا [١] كثير من الناس .

واستطاع سبأذ ان يستولي علي نيسابور وقومس والري . واتي بالكثير من اموال العلف والتدريب والذهب ولكن جيوش الخليفة لمكثت عن شزيمته بين همدان والري وانتهي الامر بقتله [٢] .

ولكن هذا لايعني خضوع خراسان اذ ستظل البلاد ارضا خصبة مالحة لقيام الحركات المعادية للدولة اذ تقول الرواية انه في سنة ١٤١ هـ قام الراوندية من اهل خراسان ممن يدينون بانكار ابي مسلم ويعتقدون بتناسخ الارواح، ونادوا بالوهية المنصور وساروا من خراسان الي الهاشمية وحاول الخليفة ان يستعمل معهم اللين والسياسة ولكنه لم يوفق في ذلك مما اضطره الي التشدد معهم واستعمال العنف والقوة فحبس زعماءهم ولكن الامر تطور الي ان قاموا بثورة هددت المنصور نفسه اذ كسروا السجين واخرجوا

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٤٤ .

(٢) انظر ابن الاثير، ج ٤، ص ٣٥٧ .

أصحابهم واتجهوا نحو الخليفة الذي أظهر شجاعة نادرة في قتلهم
والتنكيل بهم.

وسيطل حزب أبي مسلم هنا قائما وسيضم إليه كثير من أهل
البلاد واتخذ هذا الحزب المناوئ للدولة شعارا مضادا شعارا الدولة
الأ وهو اللون الأبيض وعلي ذلك أصبحوا يسمون بالمبيضة [١].

هذا عن ثورات المشرق ذات الأفكار العارضة.

كذلك عرفت الدولة بعض الثورات مثل: ثورة الخوارج في
الجزيرة تلك الثورة التي أخمدها الدولة [٢].

والثورة التي قام بها القائد الذي هزم سبئاذ في سنة ١٣٨
هـ وهو جمهور بن مرار العجلي. هذا الرجل بعد أن هزم سبئاذ
واستولى على خزائنه، رفع راية العصيان، ولكن انتهى الأمر بهزيمة
جمهور، ومقتل الكثير من أصحابه. وهرب جمهور إلى أذربيجان ولكن
أصحابه قتلوه وحملوا رأسه إلى المنصور.

ثورة عبد الجبار بخراسان

في سنة ١٤١ هـ قام والي خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن
الأرذلي بثورة وسير إليه الخليفة ابنه ولي عهد المهدي الذي تمكن

(١) ابن الأثير، ج ٤، ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) ابن الأثير، ج ٤، ص ٣٥٨-٣٥٩.

من القضاء علي الثورة بسهولة . ولكن المنصور حرص علي الا يضيع نفقات الحملة التي كان قد جهد في تجهيزها فوجهها الي بلاد طبرستان .

وفي سنة ١٤٢ هـ قام والي السند عيينه بن موسى بن كعب، الذي كان بعيداً في أقصى المشرق بالثورة ولكن الدولة استطاعت أن تقضي عليه، كما أنها اقرت الأمور وقضت علي الثورة التي قامت في بلاد الديلم وهذه الحملات حمت حدود الدولة وصانتها [١] .

موقف العلويين:

أن العباسيين كما نعرف - عندما قاموا بثورتهم انما قاموا بها باسم آل البيت وانتقاما وثارا لمقتل العلويين واستغلوا عطف الناس علي العلويين خاصة في بلاد الحجاز . وحين بدأ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دعوته السرية كان حذرا واستند في ادعائه بالخلافة الي وصية ابي هاشم عبد الله، كما كان شعار الدعوة الي "الرضا من آل محمد" واستطاع ابنه ابراهيم الامام الذي خلفه في زعامة الدعوة ان يوجه جهوده الي خراسان حيث توجد القبائل العربية المتلمزة من الادارة الاموية . وكللت جهوده بالنجاح الا انه قتل قبل وصول الشيعة العباسية الي العراق واحتلالها الكوفة .

وقد بايع زعماء الدعوة ابا العباس عبد الله بن محمد خليفة

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٦٨ .

للدولة العباسية وما ان تسلم العباسيون مقاليد السلطة حتي نظروا الي العلويين نظرة ريبة بآثارهم المنافسين لهم علي الخلافة ويشكلون مصدر خطر علي الدولة الجديدة . أما الشيعة العلويون فقد نظروا الي العباسيين كمغتصبين للسلطة من اصحابها الشرعيين ، وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة حيث أصبح نزاعا بين الهاشميين انفسهم . بين العباسيين والعلويين [١] .

علي أن العلويين لم يكونوا متحدين او متقنين علي زعامة واحدة تنظم كفاحهم المسلح وغير المسلح تجاه العباسيين . ثم ان كثرة القيادات العلوية يعني بالتالي ان ولاء الشيعة في تلك الفترة لم يكن باتجاه واحد واضح نحو فرع علوي معين .

قامت حركة العلويين ضد أسرة بني العباس في المدينة ، وكانت المدينة مركز الأسرة العلوية الكبيرة ، وكان المنصور ، يعتقد أن للعلويين سلطانا كبيرا هناك ولذلك فهو شديد العرص علي قمع حركتهم وعلي بسط سلطانه علي الحرمين بصفته الامام . واجتهد المنصور في طلب مدبري الثورة وهما : محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الذي يلقب " بالنفس الزكية " [وكان يدعي بالنفس الزكية لزهده ونسكه كما يقول المسعودي] واخوه ابراهيم . وكانت الدعوة للنفس الزكية والسبب في مطالبة محمد بن عبد الله بن الحسن

(١) انظر د. ماروق . عمه بحوث في التاريخ العباسي ، الطبعة الاولى بيروت ، لبنان ١٩٧٧ ، ص ٩٣ (موقف العلويين السياسي من العباسيين اولاً : الموقف منها تعكسه الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية) .

بالخلافة انه كان يري احقيته في الملك وذلك من قبل ان يلي المنصور وربما قبل أخيه ابي العباس . وتقول الروايات ان ابا مسلمة كان قد راسل عبد الله بن الحسن ابو محمد هنا وانه عرض عليه الخلافة وان عبد الله قبلها . وكان يرأسل جعفر الصادق ولم يقبلها ولولا تأخر الرسول في العودة لربما انتقلت الامة فعلا الي الفرع العلوي .

وتقول الرواية ان عبد الله عندما عرض عليه هذا الأمر قال :
انما يريد القوم ابني محمد لانه مهدي هذه الامة [٩] .

وكان محمد النفس الزكية واخوه ابراهيم قد تخلفا عن الحضور مع من حضر عنده من بني هاشم مع من حج علي ايام السفاح . والظاهر ان محمد ادعي ان المنصور كان قد بايعه في مكة في اواخر ايام مروان بن محمد وعلي هذا الاساس قام هو بالدعوة لنفسه . وهناك تفاصيل عن مطالبة المنصور لمحمد ولأخيه ابراهيم منذ سنة ١٤٠ هـ الي سنة ١٣٦ هـ حينما اعلن الثورة .

في هذه الفترة تجشم العلويات الكثير من المشاق واضطر الي التنقل بين البصرة والمدينة والسند والكوفة كما ارسل محمد اخوته

(١) نفس المرجع ١ ص ٩٣ .

وابناءه في سائر الامصار والبلدان للدعوة له، فأرسل ابنه عليا الي مصر يدعو اليه ولكنه قتل بها [١].

وحاول العلويون ان يدبروا مؤامرة لقتل المنصور في موسم الحج في سنة ١٤٠ هـ ولكن هذه المؤامرة فشلت وراح ضحيتها بعض اصحاب محمد الذي كان قد عاد الي المدينة وتمكن بفضل تساهل واليها من الخروج عنها . وعزل المنصور هذا الوالي وعين مكانه محمد بن خالد بن عبد الله القسري وأمدّه بالاموال وفوض اليه سلطات واسعة في كشف «تفتيش» المدينة ولكنه لم ينجح في مهمته . فعين المنصور عاملاً اخر مكانه اسمه رياح بن عثمان بن حيان المري [٢] وذلك في سنة ١٤٤ هـ وجد الوالي الجديد في طلب محمد ولكنه لم ينجح فلجأ الي سجن كل العلويين من أبناء الحسن من الفرع الحسيني وليس من الفرع الحسيني فقيدوا بالحديد والسلاسل وعذب بعضهم بقسوة في حجرة المنصور، بل قتل البعض . ويسير بعدد منهم الي الكوفة حيث حبسوا . وازاء هذه الاجراءات التعسفية اضطر محمد ان يضع حدا لهذه المأساة وذلك بأن اعلن الثورة في سنة ١٤٥ هـ وعلم الوالي بها يدبره محمد فحاول تلافي الثورة وحمل اهل المدينة المسئولية الجماعية . وكان يساند الحركة العلوية من الناحية الشرعية القانونية الفقية مالك بن انس صاحب المذهب المالكي . من ذلك ان مالك بن انس حلل الناس من البيعة ومن يمين

(١) ابن الاثير، ج ١، ص ٣٧٤.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٧٣.

الولاء للمنصور فقال لهم " انما بايعتكم مكرهين وليس علي مكره
يمين [٦] ولذلك لم يفلح التهديد وتشاور العلويون وكسروا السجن
وحرروا اقاربهم ممن كانوا قد سجنوا وتوجهوا الي دار الامارة
واستولوا عليها وأسروا الوالي.

وبعد أن استولي محمد علي المدينة بدأ في تنظيمها الاداري
فاستعمل واليا وقاضيا وصاحب بيت السلاح وصاحب الشرط، وكذلك
انشأ ديونا للعطاء وسجل في الديوان اسماء اعوانه واتباعه.

وبدا محمد يرسل الولاة الي الاقاليم المختلفة، لدولته الناشئة،
فأرسل واليا الي مكة هزم واليها العباسي وبعث باخر الي اليمن،
وبثالث الي بلاد الشام. ولكن هذا الاخير لم يستطع ان ينجح في
مهمته.

ويمكننا ان ننظر الي اختيار محمد للمدينة كمركز لثورته علي
أنه عمل لا يدل علي بعد النظر السياسي، والظاهر أن محمد نفسه
كان يعرف ذلك اذ تقول الرواية أنه قال في خطبته في المسجد:
"أن أحق الناس بالقيام في هذا الدين ابناء المهاجرين والانصار"
وقال: اني والله بين أظهركم وانتم عندي أهل قوة ولاشدة ولكني
اخرتكم لنفسي [٢] هذا يعني ان المسألة في نظرة كانت مسألة
تقليد وسنة لاتقوم علي اعتبارات اقتصادية أو بشرية وهنا لا يكفي

(١) نفس المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٣.

وهذا لا يكفي بطبيعة الحال لأن الظروف كانت قد تغيرت عما كانت عليه في الفترة الأولى في بداية الإسلام.

وعندما بلغ المنصور خبر الثورة جزع وطلب النصح من كل مايمكنه نصحه رغم علمه بعدم خطورة ثورة محمد في المدينة فإنه لجأ إلى استعمال السياسة والمداورة وكتب إلى محمد ويطلب إليه العودة إلى الطاعة ويعطيه الأمان المطلق له ولأهله ولكل من بايعه مع الوعد بالزرق والعطاء الجزيل كما أنه سوغه ما أصاب من دم أو مال . ورد محمد بالرفض بطبيعة الحال .

وهذه المراسلات التي دارت بين المنصور وبين محمد النفس الزكية تبين الأسانيد الشرعية والجدل الفقهي الذي كان يستند إليه كل من الفريقين فمحمد يقول : "فإن الحق حقنا وإنما ادعيتهم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا" ، كما يقول "أن أبانا عليا كان الوصي وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ثم يقول : "وأنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الإسلام" .

ثم هو بعد ذلك يؤمن المنصور أن دخل في طاعته وأجاب دعوته علي نفسه وماله وعلي كل أمر أحدثت إلا حدا من حدود الله أوحى لمسلم أو معاهد فقد علمت مايلزم من ذلك [١] .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٥٥

وهذا الشرط الأخير يدل علي صلابة في الرأي فيما يتعلق بالأمور الدينية وهو يدل في نفس الوقت علي عدم بعد النظر السياسي . كما أنه يلاحظ أن أمان المنصور لا يعتد به ويذكر بالأمان الذي أعطاه لابن هبيرة ولعمه عبد الله بن علي والأمان الذي أعطي لأبي مسلم .

ولم يكن من العسير علي الخليفة العباسي أن يفند ادعاءات العلوي فهو يلفت نظره الي أنه فخر بقرابة النساء لتفضل به الجفاة والافوغاء ولم يجعل النساء كالعمومة لأن الله جعل العم أبا . يحتج أن العباس من أعمام النبي صلي الله عليه وسلم أسلم تبعاً لما تقوله الآية : **وانذر عشيرتک الاقربين** بينما لم يسلم أبو طالب ثم هو يفند حقوق علي بن أبي طالب في الخلافة ويدفع بعدم كفايته فانه رغم سابقته في الإسلام دعا النبي عندما مرض غيره للصلاة بالناس ثم أنه لم ينتخب يوم السقيفة . ولما كان في الستة الذين عيّنهم عمر تركوه كلهم دفعا ولم يروا حقاً له فيها .

وبعد أن يروي له قصة جهاد العلويين وفشلهم علي أيام علي الذي اجتمع الحكمان علي خلعه وحسن الذي باعها من معاوية وحسين الذي قتل ثم تقتيل الأمويين لهم . ويقول أن العباسيين هم الذين طلبوا ثأرهم وأدركوا بدمائهم وأنه لا يجوز له أن يأخذ ذلك حجة عليهم [١] .

هذا عن دفع العلويين وتفنيد حججهم ثم هو بعد ذلك يبين

(١) ابن الأثير ١ ج ١ ص ٦٠

ادعاءات العباسيين في مطالبتهم بوراثة خلافة النبي فيقول ان العباس كانت له سقاية الحج . وولاية زمزم في الجاهلية والاسلام ثم يذكر حقوق العباس التي لا تنازع في هذا الميراث وهو انه لم يبق من بني عبد المطلب بعد النبي غيره بمعني انه يريد ان يجعل الخلافة تركه يرثها اقرب الناس الي النبي وهذه هي وجهة نظر اقارب النبي والشيعة . وهي في الحقيقة بعيدة عن السنة وعن روح الاسلام .

تلك كانت حجج كل من الفريقين . وكان علي القوة ان تقرر لمن تكون الخلافة . وندب المنصور عيسي بن موسي ولي العهد لمحاربة العلوي وارسل معه ابنه محمد واقترب عيسي من المدينة واستشار محمد النفس الزكية اتباعه فاشار عليه البعض بالخروج من المدينة ولكنه اخذ برأي القائلين بالمقام ثم انهم بتفكيرهم المثالي التقليدي الساذج فكروا كما فعل النبي في حفر خندق يحميهم من المهاجمين . هنا مع أن بعضهم لم يرغب عنه . . ضعف هذا الموقف من الناحية العسكرية الاستراتيجية .

ولم يكن تأييد اهل المدينة لمحمد قويا، كما خرج اناس من اهل المدينة بلراريهم واهليهم الي الاعراض والجبال وبقي محمد في شذمة يسيره وامر المنصور نائبه الايقاتل اهل المدينة الا فيما ندر ان يتسامح معهم، ولكنه الح عليه في القبض علي محمد وعدم تمكينه من الهرب وان يعلن مسئولية جميع القبائل اذا تمكن النفس الزكية

من الفرار . وعرف محمد خنوع المدنيين واتخذ معهم بعض الاجراءات العنيفة ولكنه سمح في اخر الامر لمن يريد الخروج منهم ان يخرج . وحاصر عيسى المدينة وسد منافذها وتمكن جنده من الوصول الي الخندق فردموه وتفرق معظم اتباع محمد النفس الزكية الذي سقط قتيلا بعد قتال سريع مجيد وذلك في منتصف رمضان سنة ١٤٥هـ كانون أول «ديسمبر» ٧٦٢م [١]

ولم يكن للثورة العلوية من رد فعل في المدينة الا اضطراب السودان في البلد الذين استولوا علي بعض امتعة الوالي الجديد ولكن امرهم انتهى الي الهدوء [٢]

وهكذا يقضي المنصور علي محمد النفس الزكية ولكن بقي اخوه ابراهيم الذي خرج في البصرة والتي كانت ثورته اشد خطرا علي المنصور .

ثورة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن اخي محمد بالبصرة :

كان ابراهيم يدعو - كما سبق القول - لآخيه محمد، واغلب الظن ان الاخوين كانا قد اتفقا علي أن يعملوا منفصلين، وذلك حتي تتم المباغتة للدولة وحتى اذا ما انهزم احدهما نجا الآخر ولو عرف ابراهيم كيف يستغل الظروف ويسير بخيوشته ضد المنصور وقت ان

(١) ابن الاثير ، الكام ، ج ٥ ص ٨-١١ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٣-١٤ .

كان المنصور في ضعف نتيجة لانتشار قواته في اطراف الدولة لربما انتهت ثورته في البصرة بالنجاح.

وكما تقول الروايات اتخذ ابراهيم المشرق مجالا لنشاطه وذلك في فارس وكرمان والاهواز وذلك قبل قدومه البصرة واستقراره بها.

وبدا ابراهيم حركته في البصرة في شهر رمضان سنة ١٤٥ هـ [١] بداية طيبة وكانت الظروف مواتية له اذ تقول رواية خليفة بن خياط، التي ترجع الي شهود عيان للاحداث ان الوالي سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب سلم دار الامارة الي ابراهيم من غير قتال [٢] ثم قوي امره بما استولي عليه من دواب الجند وما أخذه من الأموال بعد الاستيلاء علي دار الامارة . واستطاعت طلائع قواته وان تحرز بعض النصر علي القوات العباسية فاستولت علي الاهواز بعد ان الحقت الهزيمة بواليتها، كما نجحت في دخول فارس وتمكنت من تملك مدينة واسط، وهي المركز الاستراتيجي الممتاز في سنة الوقت.

ولم يكن لدي المنصور، إلا قلة من العسكر، اذ كانت جيوش الدولة موزعة في الحجاز وفي خراسان وفي افريقية التي كانت مضطربة ايضا، واحس المنصور بحرج موقفه فأظهر الزهد والتبسك والتعسف. ولكن سرعان ما استعاد رباطة جأشه فاستدعي عيسى بن موسي من المدينة وطلب بعض جيوشه التي كانت بالري وكتب الي

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٦.

(٢) ابن الاثير، تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢، ص ٦٤٩.

المهدي ابنه يأمره بارسال القوات لاستعادة الأهواز ووجه عيسى بن موسى الي قتال ابراهيم وطلب اهل الكوفة من ابراهيم المسير ليستعين بهم ولكن النصوص تقول انه كان مثاليا فخشي ان خرج أهل الكوفة اليه ان تفتك خيل المنصور بنسائهم واطفالهم [١] .

وأخيرا خرج ابراهيم من البصرة للقاء عيسى ونزل في موضع يعرف باسم باخمرا "علي بعد ١٦ فرسخ من الكوفة" وحسب تقاليد هؤلاء الثوار المثاليين، وكما حدث في المدينة رفضوا ان يقاتلوا فرقا حتي اذا ما انهزمت فرقة خرجت فرقة غيرها للقتال وامسروا علي ان يقاتلوا صفا مثل أهل الاسلام رغم ما قيل لهم من ان الصف اذا انهزم تداعي سائره واقتتل الناس قتالا شديدا، وانتصر اصحاب ابراهيم في البداية ولكن الامر انتهى بهزيمتهم وبمقتل ابراهيم في ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ

وبذلك اندحرت الثورة العلوية وخلص الامر للعباسيين .

بناء مدينة بغداد:

انصرف اهتمام المنصور، الي تشييد حاضره جديدة للدولة . وكان قد شرع في ذلك، عقب توليه الخلافة مباشرة . فتقول النصوص انه كان يبحث عن موضع مناسب لتلك العاصمة . وكان السفاح قد استقر في الأنبار في الهاشمية وهي التي استقر فيها المنصور في اول

(١) ابن الاثير، الكامل، ١٥٢-١٨٥ .

عنده - ولما كانت الهاشمية علي الضفة اليسري للفرات فانها كانت قريبة من الكوفة . والكوفة كانت مركز العلويين وهي التي سببت الكثير من القتل للدولة الاموية ربما كان هذا هو السبب في عدم اختيار ذلك الموضع لبناء العاصمة الكبرى .

وتجمع الروايات علي أن المنصور لم يبن مدينته الجديدة في مكان قفر خال من السكان بل ان الكتاب يذكرون عددا من الاماكن العامرة بالقرب منها ويذكرون من بين هذه الاماكن بغداد علي الضفة الغربية لنهر دجلة وربما كانت هذه القرية نواة عاصمة المنصور المستديرة .

واسم بغداد يعني "عطية الله" وتقول النصوص ايضا ان المنصور عندما بناها سماها "مدينة السلام" وكان يطلق علي المدينة ايضا اسم المنصورية وذلك نسبة الي بانيها وكذلك عرقت باسم الزوار .

وكان اختيار المنصور لذلك الموضع موقفا وذلك ان ازدهار المنطقة يرجع الي مركزها الممتاز من نواحي كثيرة . فالارض في هذا المكان خصبة جيدة بسبب وقوعها بين دجلة والفرات في ذلك الموضع الذي تضيق به المسافة بين النهرين، فكان يمكن تهيئة وسائل الري فيها بسهولة عن طريق القنوات التي تصل بين النهرين والتي كانت مألحة للملاحة . ووجود هذه القنوات كان يجعل المدينة في

موضع استراتيجي حصين فتقول الرواية انه قيل للمنصور عندما اختار هذا الموضع: "ات بين انهار لا يصل اليك عدوك الا علي جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر واخربت القنطرة لم يصل اليك. ودجلة والفرات والصراة خنادق هذه المدينة، وانت متوسط للبصرة والكوفة وواسط الموصل والسواد وانت قريب من البر والبحر والجبل [١]."

ووضع المنصور بيده اول لبنة في بناء المدينة في سنة ١٤٥ هـ وقال "بسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عبادة والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا علي بركة الله" [٢]

وبعد تخطيط المدينة، وبلوغ السور مقدار قامة، قامت الثورة العلوية في المدينة والبصرة فصرف المنصور كل همه اليها وترك البناء حتي تم له القضاء علي النفس الزكية واخيه ابراهيم.

واستلزم البناء جمع عدد كبير من الصناع والفعلة من مختلف الجهات وهناك تفاصيل عن العمال ومراتبهم من: الاستاذ الي الروزكاري. وأشرف علي البناء وحساب النفقات قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقہ وذوي الأمانة والمعرفة بالهندسة من هؤلاء الفقيه الشهير ابو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي [٣].

وقسمت المدينة الي أربعة مناطق تسمى ارباع وذلك تحت

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٤

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٥.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٥.

اشرف اربعة من القواد يسهرون علي العمل الذي استمر طوال اربع سنوات . وخططت المدينة ورسمت حسب خطة جعلتها تتسع في شكل دائري . فالتص يقول " وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الي السلطان من بعض وبدئ ببناء قصر الخليفة في وسطها ، والي جانب القصر بني المسجد الجامع . ويفهم من النصوص ان مدينة المدائن القديمة امتدت ببغداد بكثير من مواد البناء الكبيرة التي قامت عليها . وحول نواه المدينة اي حول القصر والجامع تجمعت بغداد في شكل دائري وقسمت الي احياء منفصلة تخترق هذه الاحياء طرق عريضة مستقيمة كان يبلغ عرض الطريق منها ٤٠ ذراعا واتسعت المدينة وعملت فيها مجاري المياه ، وأقيمت فوقها القناطر وانشئت المهاريج ، وحصنت المدينة تحصينا قويا حتي تكون الاقامة فيها مأمونة ثم احيطت بسورين أحدهما من الداخل والآخر خارجي ، وكان السور الداخلي اعلي من السور الخارجي . وكانت المنطقة بين السورين تسمى الفصيل . وجعل للمدينة أربعة ابواب المسافة بين كل من باب من ابوابها والباب الذي يليه تقدر بميل . ومن هذه الابواب باب خراسان وكان يسمى باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان وهو في الشرق وباب الكوفة الذي يسمى ايضا باب الكوخ في اتجاه الكوفة وفي اتجاه الحجاز وفي الغرب باب الشام ، وفي اتجاه الجنوب باب البصرة ، وهو يوصل الي منطقة الاهواز وفارس وخورسنان . ويقال ان المنصور لم يصنع للمدينة ابوابا جديدة ولكنه استجلب لها الابواب من مدينة واسط باستثناء باب الشام الذي صممه المنصور . وشعر المنصور بضيق قصره وسط المدينة التي تزدحم بالسكان ، وبني بعد الانتهاء من المدينة المدورة وخارج اسوارها

الشرقية قصرا ثانيا هو قمر الخلد . وحدث شغب بين أهل السوق فاضطر الخليفة ان يخرج أهل الأسواق من المدينة وان يسكنهم في منطقة الكرخ في الجنوب . وبني أيضا المنصور الجزء الشرقي من بغداد وأنشأ في هذا المكان الجديد وشمال القصر الذي خصص ليكون معسكرا لولي العهد المهدي قصر "الرصافة" [١] ووزعت الأراضي المحيطة بالمدينة كاقطاعات لأقارب المنصور ولعاليه وللكبار رجال الحاشية .

ومن هذا الوصف يمكن ان نرجح ان المنصور عندما بني مدينته كان يهدف الي بناء معسكر لجنده الخراسانية بعيدا عن مدينة الكوفة بمعنى أن نشأة بغداد كانت اشبه ماتكون بنشأة المدن التي بنيت في صدر الاسلام مثل: البصرة والنسطاط والقيروان التي أسست لتكون قواعد عسكرية للجند العربي في تلك الاقاليم .

بعض مظاهر نظم الدولة:

وظهرت المدينة الجديدة بمظهر يختلف عن مدينة دمشق حاضرة الامويين فالخليفة العباسي ظهر بمظهر الامام أولا وقبل كل شيء وكلمة الامام هنا لها معني دينيا اكثر من كلمة الخليفة او كلمة اديب المؤمنين فالامام هنا مشتقة من امانة الصلاة .

وعمل العباسيون علي تأكيد صفتهم الدينية هذه فكانوا يرتدون

(١) انظر الاشارة التكملة ج ٥ ص ٣٣-٣٤ .

البردة التي كان يلبسها الرسول «صلي الله عليه وسلم» هذا في الوقت الذي عهدوا فيه بجزء كبير من سلطانهم الزمني الي الوزير . ووظيفة الوزير تعتبر تجديدا عباسيا فيما يتعلق بادارة الدولة وذلك ان اللقب لم يعرف عند الامويين قبل ذلك . كان اللقب عند الامويين هو لقب الكاتب (١) .

واحاط الدليغة العباسي نفسه بمظاهر الابهة والعظمة .

أما عن البلاط العباسي، فكان يظهر فيه الي جانب أفراد الاسرة وآل النبي صلي الله عليه وسلم، وهؤلاء كانوا يكونوا طبقة الاعيان، الي جانبهم كان يظهر كبار رجال الدولة والموالي، كما كان هناك القراء والفقهاء والاطباء وعلماء الفلك والشعراء والموسيقيون والمضحكون والخصيان . كل هذا يعني ان خليفة بغداد لم يعد شيخ قبيلة بل اصبح وريث ملوك فارس .

ولم تعد الوظائف الكبيرة في الدولة وفقا علي البلاط بل أصبحت تمنح وكذلك أصبحت الملابس الرسمية التي تعرف بالخلع هي السمة المميزة لاصحاب الرتب الكبيرة، وكذلك القلائس الطويلة التي أمر المنصور كبار موظفيه بلبسها .

واذا كان الامويون قد عرفوا وظيفة الحاجب وهو الرجل الذي

(١) انظروا الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٤٢٤، ص ٨٤-٨٥ .

ينظم مقابلات الخليفة فان الخليفة العباسي اصبح بعيدا كل البعد عن العامة بفضل عدد كبير من الحجاب والموظفين ورجال الدولة الذين كانوا يزدادون عددا من مرور الوقت.

والي المنصور يرجع الفضل في وضع نظم الدولة العباسية فقد حافظ علي النظام الساساني البيزنطي الذي كان معمولا به علي أيام الامويين كما أنه جدد بناء هذا التنظيم فأصبح علي كل ولاية عامل او وال وكان لافراد الاسرة نصيب كبير في هذه الولايات.

البريد

وبفضل نظام البريد الذي عرفه الامويون والذي توسع فيه المنصور استطاع الخليفة ان يفرض رقابة شديدة علي ادارة الولايات المختلفة .

وكان علي اصحاب البريد ان يقوموا بكل الاستعلامات رغم ان عملهم كان يتركز في امداد الخليفة بالمعلومات المتعلقة بقيام الولاة باداء مهام وظائفهم في أعمالهم . وكانت تقارير اصحاب البريد لها أهمية خاصة فعن طريق هذه التقارير كان تعرف حالة المحاصيل فتتخذ الاجراءات المناسبة في الوقت المناسب عندما يكون الوقت وقت جذب . وكانت احصاءات البريد هذه المصدر الذي استقي منه الجيل التالي علم الجغرافية الذي ازدهر عند العرب .

وتقول النصوص ان المنصور قال: "ما احوجني ان يكون علي بابي اربعة نفر لايكون علي بابي اعف منهم هم اركان الدولة ولايصح الملك الابههم. اما احدهم فقاص لاتأخذه في الله لوحة لاثم، والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي وصاحب حراج يستقصي ولايظلم الرعية فاني عن ظلمها غني ثم عض علي اصبعه السبابة ثلاثة مرات يقول في كل مرة اه اه قيل: ماهو ياامير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء علي الصحة [١] .

الفقه:

وضم المنصور الي بلاطه كبار الفقهاء واصحاب المعرفة بعلم الحديث والفقه . وكان تقريب الفقهاء يعني ان الدولة المثالية التي تعتنى بنشر العدل والشرع اصبحت حقيقة واقعة .

وفي ذلك الوقت كان مؤسسا المذهبين الكبيرين الا وهما: المذهب الحنفي والمذهب المالكي علي قيد الحياة كانا يميلان الي العلويين يقال ان ابا حنيفة كان يميل الي ابراهيم بن عبد الله عندما قام بثورته في البصرة .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت كان من الموالي ههنا ولوان اصحابه وتلاميذه سيضعون له نسبا يرجع الي ملوك آل ساسان .

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٦

وعاش ابو حنيفة في الكوفة وكان يشتغل بتجارة الحرير،
وتوفي ابو حنيفة في سنة ١٥٠هـ / ٧ في بغداد . وكان قد قام
بالقاء الدروس في الكوفة وكانت له اراؤه الفقهية وفتاويه . وتتميز
مدرسة ابوحنيفة في التوسع في استعمال "الرأي" وكذلك
القياس.

اما عن مالك بن انس مؤسس المذهب المالكي بالمدينة فقد عرف
بميله للعلويين ايضا، والظاهر أنه عوقب وضرب بالسياط لهذا السبب
وذلك بعد ان فشلت ثورة النفس الزكية . ولكن الخلفاء سيقدرون
مالك فيما بعد وسيزوره هارون الرشيد عند ادائه فريضة الحج وذلك
قبل موته بقليل . وبينما كان اتباع مالك ينشرون مذهبهم في بلاد
العرب خاصة وفي الاندلس، دخل الحنفيون في خدمة الدولة وعملوا
علي نشر مذهبهم وخاصة بعد أن شغل أبو يوسف ^١ واحد تلاميذ ابو
حنيفة ^٢ منصب قاضي القضاة، فأصبح المذهب الحنفي هو المذهب
الرسمي .

ومدرسة مالك بن انس مبنية علي الأحاديث وذلك بسبب وجوده
في مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم وهويهتم بالمتن أكثر من
اهتمامه بالاسناد وهو علاوة علي اتخاذ القرآن والسنة كأصلين
للتشريع يضيف اليهما ما تعارف عليه اهل المدينة . أي انه يرى ان
الاجماع هو اجماع اهل المدينة .

فتنة الموصل سنة ١٥٨هـ:

ويتأسس العاصمة الجديدة بغداد أصبحت سياسة الدولة شرقية ورغم أن المنصور اهتم اهتماماً كبيراً بتأمين وصيانة حدود دولته فعمل علي تعقب الخارجين والقضاء عليهم فان هذه السياسة الحازمة لم تمنع قيام الثورات في كثير من الجهات من ذلك ثورة الخوارج بالموصل سنة ١٥٨ هـ والقالقل التي أثارها الأكراد بهذه الجهات مما جعل المنصور يستعمل خالد بن برمك علي الموصل فتهر خالد المفسدين وكانت له هيبة في نفوس الناس [١].

ثورة استاذ سيس:

قامت بخراسان ثورة بقيادة رجل يعرف باسم استاذ سيس وذلك في سنة ١٥٠هـ، وكانت هذه الثورة خطيرة مثلها في ذلك مثل الثورات المذهبية التي قامت بايران. فيقال ان هذا الرجل ادعي النبوة وان اصحابه اظهروا الفسق وقطع السبيل، وانضم الي جانب هذا الرجل كثير من الاتباع "وغلب علي عامة خراسان". واستطاع ان يوقع الهزيمة بعدد من الجيوش العباسية، ولكن امره انتهى بالهزيمة بعد ان سبب للدولة متاعب شديدة [٢].

(١) ابن الاثير، الكامل، ٥٢، ص ٤٦-٤٧.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ٥٢، ص ٢٨-٢٩.

السياسة الخارجية:

الحرب ضد بيزنطة:

أما عن السياسة الخارجية فإنها كانت تتلخص في الصراع الذي أصبح تقليديا بين الإسلام وبين الدولة البيزنطية، ولقد طال الصراع ضد بيزنطة لمدة زادت علي أربع قرون هي التي بدأت بالتوسع الإسلامي. وإنتهت سنة ١٠٩٥هـ بالحروب الصليبية . ورغم طول هذه الفترة كانت هذه الحرب سقيمة لم يستطع احد طرفيها ان يحرز انتصارا حاسما وخلال هذه الفترة عرفت بيزنطة عصرا من القوة علي ايام الابطرة الايسوريين وكان هذا من اسباب رجحان كفة بيزنطة ولكن اتت مسألة النزاع الداخلي في بيزنطة من اجل عبادة الصور ثم الاضطرابات التي دلتها فاضعت من قوة بيزنطة وهكذا كانت الفرمة موالية للعنصر في سنة ١٤٩هـ ولكي يوجه هجوما ضد البيزنطيين .

والحقيقة ان الامبراطورية البيزنطية لم تكن مهددة تماما من جانب الخلافة كما ان الخلافة كانت أقل عرضة للخطر من جانب البيزنطيين ولهذا السبب يطلق بعض الكتاب الافرنج علي هذه الحرب اسم "حرب العظمة" فهو يرى ان هذه الحرب لم تكن ضرورية ولكن الاسلام كان عليه ان يشعر دولة الكفار بسلوته وهيبته ولهذا كانت تقوم القوات الاسلامية بتلك الحملات التي تعرف باسم "المواف

والشواتي" وهو يرى ان المصالح الاقتصادية بين بيزنطة وبين الاسلام كانت توجب قيام اتفاق ودي بين الطرفين

وعلي أية حال كان مجال العمليات العسكرية ضد بيزنطة هي المنطقة المحاذية لجبال طوروس في الشرق وهي المنطقة التي رقت عند الكتاب باسم "العواصم" أو "الثغور" ومعناها الحد الذي يفصل بين دولة الاسلام وبين دولة الكفر خلف هذه المنطقة كانت توجد الممرات والمنافذ في الجبال وكانت هذه الممرات محمية بالقواعد والقلاع، وهذه القواعد كانت مدنا اغريقية قديمة جدها العرب واعادوا بناءها وحولوها الي حصون وأهم هذه الحصون ادنه وطرطوس والمصيصة وسميساط وملطية، ومرج دابق، وخلف هذه القلاع كانت تمتد اقاليم اسية الصغرى وهي ارض الروم وهذه الارض كانت هدف القوات الاسلامية خلال الصوائف والشواتي ترهب بها الاعداء وترجع بالسبي والمغانم اما عن الهدف الحقيقي للجيش الاسلامي فكان هو عاصمة الدولة البيزنطية ولكن قوات الاسلام لم تستطع تحقيق الاستيلاء علي القسطنطينية .

والذي يلاحظ هو ان الصوائف لم تكن تذهب علي ايام المنصور الي بيزنطة الا اذا كان العسكر غير منشغلين في اخماد ثورة . . . تقول الرواية في سنة ١٣٧هـ "لم يكن للناس في هذه السنة صائف لشغل السلطان بحرب سباز" [١]

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٤ ص ٣٥٨ .

ولهذا السبب نجد انه في السنة التالية يتمكن الامبراطور قسطنطين من اخذ ملطية وبهدم اسوارها ولكن المسلمين استطاعوا ان يستعيدوها واعادوا بناءها وعمروها .

وبعد ذلك عقدت معاهدة في سنة ١٣٩ هـ بين المنصور وبين الامبراطور قسطنطين وعلي ذلك فلم تعد الغارات الا في سنة ١٤٦ هـ بعد ان انتهى المنصور من حرب العلويين [٢] .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدي:

اضطر عيسى في سنة ١٤٧ هـ ان يحل الناس من البيعة له وذلك بعد ضغط شديد من المنصور استعمل فيه الكثير من الاساليب العنيفة واخذ المنصور البيعة لابنه المهدي بدلا من عيسى الذي اصبح يلي المهدي في ولاية العهد - وتقول الرواية ان عيسى قال "انا ذا أشهد ان نسائي طوائق ومعالكي احرار وما املك في سبيل الله تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين" .

ويقال ان الناس تندروا بعد ذلك بقولهم: "هنا الذي كان غدا فصار بعد غد" [٢]

(١) نفس المصدر السابق، ج ٤٤ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٢) نفس المصدر، ج ٤٥ ص ٢٢ - ٢٣ .

وفاة المنصور:

وفي شهر ذي الحجة من سنة ١٥٨ هـ توفي المنصور وكان في طريقه الي الحج بالقرب من مكة .

وكان المنصور كما تصفه الروايات من الحزم ومواب التدبير وحسن السياسة علي ماتجاوز كل وصف [١] فقد كان يشغل صدر نهاره بالامر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والاطراف وامن السبل، والنظر في الخراج والنفقات، ومصلحة معاش الرعية . . فاذا صلي العصر جلس لاهل بيته فاذا صلي العشاء الاخيرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والاطراف . . وشاور سماره فاذا مضى ثلث الليل قام الي فراشه وانصرف سماره، واذا مضى الثلث الثاني قام فتوضا وصلي حتي يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في ايوانه [٢] .

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٦٣ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٧ .

الفصل السادس

خلافة المهدي

خلافة المهدي

١٥٨ - ١٦٩هـ

مات المنصور - كما سبق القول - بالقرب من مكة وهو في طريقه لاداء فريضة الحج، واحتفل بتأييده وأخذ البيعة لابنه المهدي.

ويفهم من النصوص أن الذي اخذ البيعة للمهدي هو ابنه موسى «الهادي» وكان من بين الحاضرين عدد من كبار رجال الدولة، وبعض عمومه الهادي بل وتذكر الرواية ان عيسى بن موسى، ولي العهد الثاني، كان حاضرا بدوره كان مترددا، والنص يقول: "ابي من البيعة" . ولكنه بايع [١]

ووصل نبا وفاة المنصور الي المهدي الذي كان ببغداد في منتصف شهر ذي الحجة وارسلت اليه اشارات الملك وهي: بردة النبي صلي الله عليه وسلم، والقضيب وخاتم الخلافة .

وفي بغداد تمت البيعة الثانية للخليفة الجديد وهي "بيعة العامة وأولي" المشاكل التي اعترضت المهدي هي ولاية العهد، فقد كان عيسى بن موسى هو ولي العهد الثاني . ومر عيسى بن موسى بنفس المحنة التي عرّفها في عهد المنصور، فقد التعرض للاضطهاد

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٠٠.

والتهديد والترغيب ومحاولة اقناعه عن طريق النقهاء والقضاة خلع نفسه في أوائل سنة ١٦٠هـ، وبايع للمهدي، كما بايع ابنه موسى الهادي بولاية العهد. ثم جلس المهدي في الغد، وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم، وخرج إلى الجامع ومعه عيسى بن موسى فخطب الناس وأخبرهم بخلع عيسى والبيعة للهادي فأسرع الناس لمبايعته،

أما عن العلويين فلا تذكر الروايات أنه قام بأعمال عنيفة. ضدهم وكان المهدي كما تقول الرواية محببا إلى الخاص والعام. لأنه افتتح أمره برد المظالم وكف عن القتل وأمن الخائف وانصف المظلوم. -
إلا أن المهدي كما يفهم من النصوص استتني بعض العلويين من التمتع بالعفو، وهو الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي مما اضطره إلى الهرب من سجنه وأقلق ذلك الخليفة ولكن الأمر انتهى بطلب العلوي الأمان من الخليفة فأمنه المهدي ووصله

وأطلق المهدي كما تقول الرواية ابني داود بن طهمان، الذي كان يناصر إبراهيم في البصرة وقرب ابنه يعقوب - بن داود - تقريبا شديدا واستوزره وقرب داود بدوره الزيدية من العلويين "فجمعهم وولاهم أمور الخلافة في الشرق والمغرب" وكان ذلك من الأسباب التي دفعت الشاعر بشار بن برد إلى أن يقول بيتية المشهورين:

بنى أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

والظاهر ان الخليفة ادرك خطورة امر ترك مقاليد أمور الدولة الي وزيره فتخلص منه، سجنه، وذهب بصره في السجن، وبقي محبوسا حتي عهد هاروق الرشيد، اذ شفع اليه فيه يحيي بن خالد بن برمك، فأمر الرشيد باخراجه من سجنه، واحسن اليه ورد اليه ماله، وأختار يعقوب الإقامة في مكة فاقام بها حتي مات في سنة ١٨٧هـ [١] .

موقف الخوارج:

كان الخوارج يلجأون كعادتهم الي القيام بأعمال العنف والشدة من ذلك ما تذكره النصوص من قيام ثورة خارجية بخراسان في سنة ١٦٠ هـ تزعمها رجل يعرب باسم يوسف بن ابراهيم ويلقب "بالبرم" وقد قيل أنه كان حروريا واستطاع التغلب علي بوشنج ومرو الروذ والجوزجان، ولكن جيوش الخليفة استطاعت القضاء علي الثوار والقبض علي يوسف هذا الذي سبق الي الرصافة حيث قطعت يدها بها ورجلاه وقتل هو اصحابه وصلبوا علي الجسر .

وفي اواخر هذه السنة قامت ثورة خارجية أخرى بنواحي الموصل، ينفرد بذكر تفاصيل دقيقة عنها خليفة من خياط في تاريخه، كما ينفرد بايراد نص الرسائل المتبادلة بين الثائر الخارجي

(١) ابن الاثير، الكامل، ٥٢٥ هـ، ٦٦٠ .

عبد السلام الإشكوي والخليفة المهدي وقد سببت حركة الإشكوي -
الذي استولي علي معظم ديار ربيعه - الكثير من المتاعب للدولة،
وذلك قبل ان يقتضي عليها ويقتل زعيمها .

الحركات المذهبية:

حركة المقنع:

أما عن الحركات المذهبية التي اشتهرت بها خراسان منذ مقتل
ابي مسلم فانها انتجت علي أيام المهدي ثورة كبيرة قام بها رجل
يعرفه الكتاب بلقب "المقنع" وهذا الرجل كان يؤمن بالتناسخ، واسم
هذا الرجل هاشم وهو من مرو الروذ، واعتنق هاشم فكرة التناسخ
والحول فقال: "أن الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة
نوح وهلم جرا الي ابي مسلم الخراساني ثم تحول الي هاشم . وكان
هذا يعني ان روح الله قد تجسست في علي ذلك يقول بعض الكتاب أنه
ادعي الألوهية . وبدأت الدعوة التي قام بها المقنع في منطقة كش
ونسف - من أرض ما رواء النهر - والتف حوله جمع كثير وأيده
أعداء الدولة من أتباع مذهب ابي مسلم الذين عرفوا بالمبيضة ببخاري
والمغد، وساعد هذه الثورة قيام الثورة الخارجية في خراسان (ثورة
البرم) وكذلك اعانة الترك الذين استنجد بهم فتمكن المقنع من
السيطرة علي الاقليم في وقت قليل، كما استطاع ان يحقق عددا من
الانتصارات علي قوات الخلافة التي سارت ضده . وكان الرجل يظهر

امام الناس مرتدياً قناعاً، هذا القناع منسوج بخيوط الذهب حتي يبهل الابصار عن طريق اشراق الانوار الالهية كما كان يدعي. وتقول النصوص ان اتباعه كانوا يسجدون له، ولهذا السبب عرف بالمقنع وربما كان السبب في ارتدائه ذلك القناع هو محاولته اخفاء تشويه وجهه. اذ تقول الرواية "انه كان أعور" [١].

وبعد عدة حملات كلفت بالظفر استطاعت الجيوش العباسية هزيمة الثوار في منطقة بخاري بعد ان ضيقوا عليهم الخناق وحاصروهم حوالي اربعة اشهر ولكن المهزمين لم يستسلموا اذ لحقوا بالقوات الرئيسية للمقنع وطالت المناوشات طوال سنة ١٦٠ هـ دون جدوي في السنة التالية وهي سنة ١٦١ هـ تجمعت قوات الخلافة وتقدمت نحو التأثير، وشدت عليه الحصار حتي اضطر كثير من اتباعه الي الاستسلام وذلك بعد أخذ الامان سرا منه وبقي المقنع في قلة من أصحابه زهاء الفين، وعندما أيقن بالهلاك اضطر الي القاء نفسه هو وأهله ونسائه وخوامه في النار وذلك بعد ان احرق كل ما في قلعتة. ومن دابة وثوب غير ذلك، وتقول الرواية انه قال: من أحب أن يرتفع معي الي السماء فليلق نفسه معي في هذه النار. [٢]

ورغم القضاء علي الفتنة، وقتل امير بخاري، فان ذلك المذهب

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٨.

ظل باقيا في كش وبغض قري بخاري ونهاية هاشم الغربية هذه كانت سببا في افتتان من بقي من اصحاب كما تقول النصوص [١].

وتقول النصوص ان المهدي "جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الافاق وقتلهم" [٢] كما تقول الرواية انه قال لولي عهده الهادي وقد قدم اليه زنديقا فقتله وامر بصلبه يابني اذا صار الامر اليك فتجرد لهذه العصابة يعني اصحاب ماني - فانها تدعو الناس الي طاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا، والعمل للأخرة ثم تخرجها من هذا الي تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها، ثم تخرجها الي عبادة اثنين، احدهما النور والاخر الظلمة، ثم تبيع بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من المهدي لينتقذوهم من ضلال الظلمة الي هداية النور. فارفع فيها الخشب وجرد السيف فيها وتقرب بأمرها الي الله [٣]

وحوالي ذلك الوقت عهد المهدي بالتفتيش علي الزنادقة الي موظف خاص يعرف باسم المتولي لأمر الزنادقة او صاحب الزنادقة. وتذكر الرواية أن اول من تقلد هذا المنصب الجديد هو عمر الكلواذاني [٤] الذي توفي سنة ١٦٨، فولي مكانه محمد بن عيسى بن حمدويه الذي كان غنيفا "فقتل عن الزنادقة خلقا كثيرا" [٥].

(١) ابن الاثير، الكامل، ٥٥٢ هـ، ص ٥٨٠.

(٢) انظر، ابن الاثير، الكامل، ٥٥٢ هـ، ص ٦٩٠.

(٣) نفس المصدر، ص ٨١٠.

(٤) ابن الاثير، ٥٥٢ هـ، ص ٦٩٠.

(٥) ابن الاثير، ٥٥٢ هـ، ص ٦٣٠.

ولاشك في أن تهمة الزندقة هذه كانت تحقق لل خليفة ولعماله هدفين في وقت واحد اول هذه الهدفين هو التخلص من الاعداء السياسيين والثاني كسب حب الشعب . وهناك نصوص نستشف منها ذلك فعندما يود الخليفة التخلص من وزيره برمييه بالزندقة وتذكر الرواية ان المهدي عندما تجهز لغزو الروم في سنة ١٦٣هـ، أرسل وهو بحلب - فجمع من يتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين [١٦] .

ونهج خلفاء المهدي نفس السياسة فوجهوا تهمة الزندقة الي كل من ارادوا التخلص منه بل والي كل اصحاب الاراء التي لا ترضي الخليفة .

اما عهد المهدي فهو عهد ازدهار ورخاء . وقد قصد بابه الشعراء فآكرمهم واغدق عليهم . ويرجع الفضل الي المهدي في انشاء شبكة من الطرق وكذلك تحسين نظام البريد . وعلي ايام المهدي غدت مدينة بغداد المحطة الرئيسية لتجارة الهند، ويفضل اهتمام الخليفة ازدهرت الصناعة واهتم المهدي اهتماما خاصة كما تقول النصوص بالحرمين، فأمر ببناء المحطات للقوافل علي طول الطريق الي مكة، وأمر ببناء المصانع ((الصهاريج)) لخزن المياه، وحفر الابار، وقد هذا العمل لموظف خاص أطلق عليه "صاحب المصانع" [٢] . كما أمر المهدي كما تقول الرواية في سنة ١٦٧هـ باقامة البريد بين مكة

(١) ابن الاثير، الكامل، ٥٢هـ، ٦٣هـ .

(٢) انظر، ابن الاثير، ٥٢هـ، ٦٠هـ، ٦٤هـ حيث تقول الرواية ان المهدي سار للحج، فاما بلغ العقبة وراي قلة الماء خافا ولحق الناس عطش شديد حتي كادوا يهلكون، وغضب المهدي علي يقطين لانه صاحب المصانع .

والمدينة وكذلك بينهما وبين اليمن "ولم يكن هناك بريد قبل ذلك" [١] وعلي أيامه جددت كسوة الكعبة، كما أمر بالزيادة في المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم [سنة ١٦٧هـ] فدخلت فيه دور كثيرة .

وعلي عهده أيضا تم بناء مسجد الرصافة وسورها وخدمتها، كما زاد في مسجدي البصرة والموصل [٢]

وتنسب إليه النصوص انه وضع في سنة ١٦٢هـ ديوان الازمة كما "اجري علي المجلدين وأهل السجون الازراق في جميع الافاق" [٣] .

السياسة نحو بيزنطة:

وكانت سياسة المهدي ازاء بيزنطة، نفس السياسة التقليدية للدولة العربية الاسلامية، وينسب للمهدي تجهيز حملات قوية ضد بيزنطة ولكنها لم تحرز انتصارات حاسمة .

ففي سنة ١٦٣هـ تذكر الرواية أن المهدي تجهز بنفسه وأعد عدة عظيمة وجمع الاجناد من خراسان وغيرها، وخرج علي رأس قوات كبيرة، وكان بصحبته ابنه هرون «الرشيد» بينما استخلف علي بغداد

(١) انظر، ابن الاثير، ص ٦٨ .

(٢) ابن الاثير، ١٥٢ ص ٥٧، ص ٦٩ .

(٣) ابن الاثير، ١٥٢ ص ٦٩ .

ابنه موسى «الهادي»، وسار الي الموصل الجزيرة ومن هناك عبر
الفرات الي حلب، ثم رافق ابنه هرون حتي جاز الدرب «أي المهر»
المهدي الي ارض الروم، وهناك ودعه وعاد ادراجه ليزوربيت
المقدس [١] .

وسار الرشيد بأرض العدو وكان بصحبته عدد من كبار القواد
منهم عيسى بن موسى والحسن بن قحطبة، كما كانت امانة الحملة من
امور العساكر والنفقات والكتابة موكولة الي يحيى بن خالد الذي كان
كاتب الرشيد واغلب الظن ان هذه الحملة لم تأت بنتائج كبيرة وذلك
انها تمكنت من فتح احد الحصون فقط بعد حصار استمر أكثر من
شهر، ولي سنة ١٦٤ هـ أي السنة التالية ردت بيزنطة بأن تقدم
البطريق ميخائيل وتحدي الصائفة الاسلامية التي اضطرت الي
الانسحاب وعادت مما اثار سخط المهدي علي قائد الصائفة حتي انه
رغب في قتله [٢] .

وترتب علي ذلك انه في سنة ١٦٥ هـ سار المهدي ابنه هرون
«الرشيد» علي رأس حملة عظيمة بلغت حوالي «٩٥ ألف رجل كما
تقول الرواية» [٣] والظاهر انها لاقت نجاحا اذ أن القائد البيزنطي
اضطر الي الانسحاب امام هرون الذي توغل هو والخرسانية في أرض

(١) نفس المصدر، ص ٦٣ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٤ .

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٦٥ .

الروم الي أن وصلوا الي خليج البوسفور . وخافت ايرين «أمراة اليون كما يقول بن الاثير» الوصية علي ابنها قسطنطين السادس واضطرت الي عقد الصلح او الهدنة لمدة ثلاث سنوات علي ان تدفع الجزية السنوية ، وسينقض البيزنطيون هذه الهدنة قبل حلول اجلها وذلك في أواخر سنة ١٦٨ هـ أي قبل وفاة المهدي [١] .

أما عن موقف المهدي ازاء المغرب والاندلس فسراه بتفصيل فيما بعد اما من جهة المشرق فتقول النصوص أن المهدي أهتم بالمشرق حتي بلاد الهند وذلك انه ارسل حملة بحرية الي هذه البلاد ١٦٩ هـ وكانت هذه الحملة تحوي كثيرا من الجند النظامي والمتطوعة ، وهاجمت هذه الحملة احدي المدن الساحلية الهندية ، وخربت معبد المدينة البوذي "البد" واخذت المدينة ، وعاد المسلمون محملين بالأسري والمغانم ولكن الحملة انتهت نهاية اليمة قرب ساحل فارس اذ عصفت بها الرياح فتكسرت معظم المراكب [٢] .

موت الهدي:

وفي سنة ١٦٩ هـ مات المهدي، بعد خلافه دامت عشر سنين، وترك الخلافة لابنه موسى الذي تلقب بالهادي [٣]

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٥ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٥٥ .

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٧١ .

الفصل السابع

خلافة الهادي

خلافة الهادي

١٦٩ - ١٧٠ هـ

ببيع لموسي «الهادي» بالخلافة، في بغداد في نفس اليوم الذي مات فيه المهدي وكان مقيما بحرجان، يحارب اهل طبرستان وكتب الرشيد الي الاتفاق بوفاة المهدي واخذ البيعة للهادي [١] ونستشف من الروايات قيام نزاع خفي بين ابني المهدي وهما: موسي «الهادي» الذي تنازل له عيسي بن موسي «الذي مات سنة ١٦٧ هـ» [٢] عن ولاية العهد، وهارون الرشيد، الذي أخذت له البيعة كولي ثان للعهد في سنة ١٦٦ هـ [٣] والذي كانت أمه الخيزران تهتم بشئون الحكم منذ عهد زوجها المهدي وأغلب الظن انه مما ساعد علي دقة الموقف ان المهدي اشرك الاخوين في الحكم علي أيامه فعهد بمشرق الدولة الي ولي العهد موسي كما عهد بمغربها الي ولي العهد الثاني هارون وكان لكل منهما ديوانه الخاص. فلي سنة ١٦٣ هـ ولي المهدي هارون الرشيد المغرب كله من الانبار حتي افريقية، وأضاف الي ذلك اذربيجان وأرمينية وجعل لهارون كاتب علي الخراج هو ثابت بن موسي، وعلي ديوان رسائله يحيي بن خالد بن برمك. وزاد في حرج الموقف أن المهدي كما تقول الروايات مال في اخر اخر أيامه الي عزل ابنه موسي الهادي والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه عليه، ويقال ان المهدي مات وهو خارج للهادي وهو بمنطقة جرجان ليخلعه بعد ان بعث اليه في القدوم عليه لهذا الغرض وامتنع الهادي ولهذا تحاول بعض الروايات ان تفسر موت المهدي فتقول انه لم يمت

(١) ابن الاثير، ج ٥ ص ٧٣-٧٤.

(٢) ابن الاثير، ج ٥ ص ٦٩.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٦٦.

ميتة طبيعية وانه مات في حالة صيد اومات مسموما [١] .

ولن تطول خلافة الهادي اكثر من سنة وثلاثة أشهر أرقته «شغلته» فيها مسألي ولاية العهد، وذلك أن الهادي شعر بخطر أخيه هاروق الذي كانت تؤيده أمه «الخيزران» وكانت تتدخل في شئون الحكم، فعمل علي الحد من سلطانها كما حاول أن يحمل الرشيد علي التنازل عن ولاية العهد وبدأ يتخذ اجراءات مشددة ضد أخيه، وسلبه امتيازاته كولي للعهد فالص يقول: "امر الهادي - ان لايسار بين يدي هرون بالحربة فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه [٢] .

ونستبين من النصوص أن الرشيد كان مستعدا للتنازل عن ولاية العهد لابن أخيه جعفر وربما تم ذلك لولا صغر سن ابن الهادي ونصح يحيى بن خالد بن برمك للرشيد بعدم الاستجابة لطلب أخيه الخليفة، وعرف الهادي تأثير يحيى علي الرشيد، فبعث اليه وتهدهه ورماه بالكفر" ولكن ابن برمك تمكن من اقناع الخليفة بترك هذه المسألة بعض الوقت، ونصح به بالآ يحمل الناس علي نكث الايمان اي حث الايمان أي تحللهم من البيعة وبين له ان ابنه جعفر لم يزل صغيرا وسأله "أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر - وهو لم يبلغ الحنث - أو يرضون به لمصالحهم وحجهم وغزو" ثم رغبة في أن يكون ابنه ولي العهد الثاني .

(١) ابن الاثير ج ٥، ص ٧١ .

(٢) انظر ابن الاثير الكامل ج ٥، ص ٧١ (من الحد من شئون امه)

ثورة الحسين بن علي بالمدينة

أما عن العلويين، فإنهم قاموا بالثورة في المدينة ومكة وستفشل هذه الثورة في الحجاز كما فشلت سابقتها من قبل، ولكنها ستنتج في بلاد المغرب الأقصى وتزعج هذه الثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي أبي طالب المعروف بقتيل فخ عند مكة .

أما عن سبب اشتعال الثورة فهو ان والي المدينة وهو حفيد عمر بن الخطاب اسمه عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - اقام الحد علي احد العلويين الذي يعرف باسم الزفت وذلك لشربه النبيذ . واحتج العلوي وهو الحسين بن علي علي عقاب المتهمين وقال للوالي ان اهل العراق لا يرون به بأسا، وكفل الحسين بن علي الثائر ابا الزفت «أي ضمنه» ولكن ابا الزفت تغيب عن العرض الذي كان يجب عليه ان يحضره وكان في هذا حرج للضامن، الذي لم يجد سوي الثورة ردا علي رهانات الوالي وجاء العلويون صباحا الي المسجد فبايعوا الحسين علي كتاب الله وسنة نبيه للمرتضي من آل محمد* وتمكن الثوار من هزيمة الوالي ونهبوا بيت المال، الا ان اهل المدينة لم يجيبوهم فخرجوا بعد احد عشر يوما . وذهب الحسين الي مكة وتمكن من ضم كثير من العبيد حوله وذلك بعد ان اعلن تحريرهم . وكان في مكة كثير العباسيين، وكان معهم الهوالي والسلاح فاجتمع العباسيون "بذي طوي" وقادهم محمد بن سليمان بن علي والي البصرة وقاتلوا العلويين ودمكهم ومن الحاق

الهزيمة بهم، وقتل المطالب بالخلافة وتمكن كثير من الثوار من النجاة باختلاطهم بالحجاج. وتمكن أحد العلويين وهواد ادريس بن عبدالله من الهرب الي مصر وهناك حملة صاحب البريد الذي كان يتشبح الي بلاد المغرب حيث وصل الي مدينة "وليلي" في منطقة طنجة وهناك استجاب له بربور اورية وكون دولة الادراسة وبني مدينة فاس التي ستصبح عاصمة المغرب الاقصى [١].

الخــوارج

اما عن الخوارج فانهم ثاروا بالجزيرة وهزموا الوالي قرب الموصل ولم يقض عليهم الا بعد ان قتل زعيمهم غيلة [٢].

الزنادقة:

اما عن الزنادقة فتقول الرواية ان المهدي اوصي الهادي بمحاربتهم دون شفقة وانه كان قد أمر باعداد الف جلع لصلبهم ولكن الموت لم يمهله [٣] - اذ خرج الي الموصل وعاد منها شديد المرض، والظاهر انه لم يميت ميتة طبيعية بسبب معاودته التفكير في خلق اخيه هرون من ولاية العهد. وهناك روايات يستشف منها أن الخيرزان هي التي دبرت موته [٤].

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٧٤-٧٦.

(٢) ابن الاثير، ج ٥، ص ٧٧.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٨١.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٧٨-٧٩.

الفصل الثامن

خلافة الرشيد

خلافة الرشيد

١٧٠ - ١٩٣هـ

بويج لهرون الرشيد بالخلافة في الليلة التي مات فيها الهادي .
واستمر حكم هرون الرشيد حوالي ٢٣ عاما شهدت الدولة العباسية
خلالها اوج مجدها وعظمتها .

وفي السنوات الأولى من حكم هارون تركت أمور الدولة لوزير
الخلافة يحيى بن خالد . ويحيى هذا كان واقعا تحت تأثير الخيزران
ام الخلافة التي ماتت في اواخر سنة ١٧٣هـ .

وعلى ايام المهدي قام يحيى بن خالد بن برمك بولاية اد ربيحان
ثم أنه استدعي الي بغداد، وعندما عين الرشيد واليا للولايات
الغربية من الدولة بالإضافة الي ارمينية وادريجان كان يحيى بن خالد
علي ديوانه وظل يحيى مخلصا للرشيد فنصحه بعدم التنازل عن ولاية
العهد عندما حاول الهادي ان يرغمه علي ذلك وربما لقي يحيى بعض
العنت في هذا السبيل فتقول بعض الروايات انه سجن بعض الوقت
وان الهادي كان يفكر في قتله وقد اعترف له الرشيد بوفاته واخرجه
من الحبس واستوزوه، وادار يحيى مقاليد الأمور في الدولة
بالاشتراك مع ابيه الفضل وجعفر من ١٧٠-١٨٧هـ .

وبينما كان الفضل يلي الولايات الشرقية تمكن من تحقيق أعمال

عسكرية كبيرة فاخضع الديلم، وغزا ما وراء النهر وبلغ نفوذه هناك حتى منطقة اشروسنة وكذلك حقق الفضل أعمالاً سلمية هامة فاليه ينسب بناء المساجد والرباطات الكثيرة في اقليم خراسان.

وفي نفس الوقت كان أخوه جعفر ببغداد مقرباً الى الخليفة تاركاً الولايات التي كانت تابعة له لنوابه وكان يستفيد من غلاتها فقط. ولكن صداقته للخليفة انتهت. وهناك عدة روايات تبين الاسباب التي ادت الى حلق الخليفة عليه وأخرها قصة حريم فتقول النصوص أنه لم يحترم الزواج السوري الذي كان عقده الخليفة له علي أخته العباسة وذلك لكي يتمتع الرشيد بمحضرها [١].

وملأ سنة ١٧٣هـ عند وفاة أم الخليفة أعلي جعفر من حمل الخاتم الذي كان يحمله حتى ذلك الوقت، وعهد به وكذلك ببعض شئون الدولة الى الفضل بن الربيع [٢].

وفي سنة ١٨٧ هـ عندما قفل الرشيد من اداء فريضة الحج وكان حريصاً علي القيام بها باستمرار قتل جعفر في اول صفر، وكان جعفر يبلغ من العمر حوالي ٣٧ عاماً وعرض رأسه علي الجسر الأوسط ببغداد كما عرض نصفي جسده علي الجسرين الآخرين حتي أضر بأحراقهما فيما بعد سنة ١٨٩هـ.

أما عن والده وأخوته فإنه قبض عليهم وصودرت أملاكهم

(١) ابن الاثير، الكامل، ٥٢، ص ٨٢، ص ٩٩.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ٥٢، ص ١١٤.

وأموالهم وسينتهي الامر بيحيي في أن يموت محبوسا سنة ١٩٠ هـ
له من العمر ٧٠ عاما وسيتوفي الفضل في سنة ١٩٣ هـ له من
العمر ٤٥ عاما [١]

لم تنقطع الاضطرابات الداخلية في الدولة علي أيام هارون
الرشيد كما نستبين من الروايات فقد سرت هذه الاضطرابات في
دمشق والموصل والجزيرة وحتى مصر ايضا واشترك فيها العلويون
والخوارج معا.

الفتنة بدمشق:

ففي سنة ١٧٦ هـ قامت الفتنة في دمشق بين العصبيتين
المصرية واليمية وساد البلاد الفوضى نحو سنتين ووقع بين
العصبيتين معارك سقط فيها كثير من الناس ورغم عزل والي
دمشق عبد الصمد بن علي واستعمال عامل جديد هو ابراهيم بن صالح
بن علي فان الفتنة لم تخمد بل زادها الوالي الجديد تأججا اذ انه
وقف الي جانب اليمية ضد اعدائهم وانتصر القيسية علي اليمية
ونهبوا مواضعهم قرب دمشق بل واستولوا علي دمشق وعندئذ
اضطرت اليمية الي طلب الامان، وأراد ابن الوالي ان ينتقم من
الثوار فكان ذلك نليرا بتجدد المعارك، ولم ينف القتال الا عند
وصول قائد الرشيد الذي قبلت القيسية طاعته.

(١) انظر ابن الاثير، الكامل، ج ١٥ ص ١٢٤، ص ١٢٨-١٢٩.

ولم يستمر الهدوء طويلاً إذ يوجد في حويلات سنة ١٨٠ هـ ذكر لمسير جعفر بن يحيى بن خالد الي الشام بنفسه. ومعه القواد والعساكر والأسلح والأموال وذلك "للعصبة التي بها" فتمكن من تسكين الفتنة وإطفاء الثائرة وعاد الناس الي الأمن والسكون [١]

الفتنة بالموصل:

وشهدت الموصل الكثير من الثورات منها ثورة سنة ١٧٧ هـ التي تزعمها رجل من الأزد تمكن من السيطرة علي الناحية وحبى خراجها مدة سنتين حتي خرج اليه الرشيد بنفسه، وهدم سور المدينة وأقسم ليقتلن من لقي من أهلها لولا أن أفتاه القاضي أبو يوسف ومنعه من ذلك ولم يتمكن الرشيد من القبض علي الثائر الذي فر الي أرمينية واستعمل الرشيد علي أرمينية وال أساء فهم السيرة وظلمهم وطالبهم بخراج سنين مضت فهاجر أكثر أهل البلد عنها [٢].

خراسان

أما عن بلاد خراسان فإنه الي جانب الثورات الخارجية التي عرفت شهدت أيضا حدوث اضطرابات وفتن منها ثورة قام بها رجل يعرف بابن الخصيب وذلك بمدينة نسا في سنة ١٨٣ هـ واتعب هذا الرجل والي خراسان وهو علي بن عيسى بن ماهان تعباً شديداً وذلك

(١) نفس المصدر، ص ٩١-٩٣، ص ١٠٣-

(٢) نفس المصدر، ص ٩٦، ص ١٠٣.

انه بعد أن طلب الامان عاد ونقض وغدر بابن الوالي وتغلب علي
ابيورد وطوس ونيسابور وحاصر مدينة مرو ولكنه عجز عن
اخذها واضطر عيسي بن ماهان الي المسير اليه في سنة ١٨٦هـ الي
نسا "فقتله وسبي نساءه وذرائه واستقامت خراسان" [٨]

والظاهر أن الخليفة - كما نستبين من النصوص - كان مسئولا
الي حد كبير عن اضطراب بلاد خراسان وذلك ان الوالي علي بن
عيسي استغل البلاد استغلالا سيئا وكتب كبراء أهل البلد واشرافها
الي الرشيد في سنة ١٨٩هـ يشكون سوء سيرة ابن ماهان وظلمه
واستخفافه بهم وأخذ اموالهم "سار الرشيد الي الري لينظر في امر
خلع الوالي ولكن الاخير اتاه من خراسان وأهدي له الهدايا الكثيرة
والأموال العظيمة وأهدي لجميع من معه من أهل بيته وولده وكتابه
وقواده من الطرف والجواهر وغير ذلك . وانتهي الامر بطبيعة الحال
بان رده الخليفة الي ولايته من جديد" [٩] .

ولكنه في سنة ١٩٠ هـ اضطرب مشرق الدولة من جديد وذلك
عندما ظهر [شار] رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند من أرض
ماوراء النهر وذلك لأسباب تتعلق بالأخلاق . ووجد رافع وقيد وطيف
به علي حمار ليكون غطة لغيره فثار واستطاع أن يستولي علي
المدينة وقتل عاملها وهزم جيشا ارسله اليه عيسي بن علي بن ماهان
وغلب رافع علي بقية ما وراء النهر ثم انه بعد ذلك استمال الترك
المقيمين في هذه النواحي وتمكن هؤلاء من قتل عيسي بن علي .

(١) انظر، ابن الاثير، ج ٥، ص ١٠٢، ص ١٠٨، ص ١١٠، ص ١١٣ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٢٠-١٢١ .

وعندما سار علي بن عيسى الي مرو ليحميها من رافع عزله الرشيد
كما نستبين من النصوص طمعا في امواله واستعمل بدلا منه هرثمة
بن اعين وقبض ابن اعين علي الوالي المعزول واخذ امواله بأمر من
الرشيد . وجد هرثمة في حرب رافع فحاصره بسمرقند واستعان بظاهر
بن الحسين القائد المشهور في قتاله واهتم الخليفة بأمر رافع واشفق
من تزايد خطره حتي انه عزم علي الخروج اليه بنفسه . ولكن الرشيد
سيهوت في الطريق وذلك قبل القضاء علي ثورة رافع بن الليث التي
ستستمر حتي سنة ١٩٥هـ [١] .

أما عن الخوارج فان ثوراتهم لم تنقطع خاصة في اقليم الجزيرة ،
وكذلك في خراسان .

ففي اول عهد الرشيد قام احدهم بالجزيرة وهزم الوالي وتقدم
نحو الموصل وهزم حامية المدينة ولم تتمكن جيوش الخليفة من
النيل منه الا بعد عناء شديد .

وفي سنة ١٧٥هـ خرج احد الموالي من القيسية وهو حصن
الخارجي بخراسان وهزم والي سجستان ، واستولي علي عدد من المدن
واستطاع كما تقول الروايات وهو في قلة من قواته لم تتجاوز
الستمائة رجل ان يهزم الجيش الذي سيره والي خراسان وكان يبلغ
اثني عشر الفا .

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ، ص ١٢٢ .

وظل الثائر بيعث في البلاد فسادا حتي قتل سنة
١٧٧هـ [١] .

واثناء ثورة الحسين، قام خارجي آخر بالجزيرة وقدم الموصل
وتمكن من هزيمة عسكرها وذلك قبل ان يقتل [٢] .

أما الثورة الخارجية التي ازعجت الخليفة فهي ثورة الوليد بن
طريف التغلبي الذي خرج بالجزيرة سنة ١٧٨هـ وفتك بالملحة
العباسية في نصيبين وقوي امره فدخل ارمينية واذريجان وارض
الجزيرة وعاث فيهم واتعب قائد الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني وبعد
مقتل هذا الثائر قام الرشيد باداء العمرة شكرا لله [٣]

وفي سنة ١٧٩هـ خرج بخراسان ثالر خارجي اخر هو حمزة بن
اترك السجستاني الذي دوخ جيوش علي بن عيسي بن ماهان، حتي ان
الوالي "قصد القرى التي كان أهلها يعينون حمزة فاحرقها وقتل من
فيها" وتورد النصوص ان هذا الثائر قام باعمال فطیعة منها انه كان
يقتل الغلمان بالمكاتبة كما كان يقتل معلمهم واضطر طاهر بن
الحسين عامل ابن ماهان علي بوشنج الي القيام باعمال رهيبة ضد
الخوارج المحاربين منهم والقاعدين غير المحاربين ومن لهم ديوان ومن
لا ديوان لهم تقول الروايات انه كان يشد الرجل منهم في شجرتين
يجمعهما ثم يرسلهما فتأخذ كل شجرة نصفه وذلك حتي طلبوا الامان
في سنة ١٨٥هـ .

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٨٩ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٩٤ .

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٩٧، ص ١٠١ .

الفتنة بمصر:

هذه الاضطرابات التي سرت في أرجاء الدولة بلغت ارض مصر
الامنة المطمئنة بدورها فقام في سنة ١٧٨هـ أهل الحوف وهم من
قيس قضاة بالثورة وقاتلوا عاملهم الذي استنجد بعامل فلسطين.
وبعد أن أخذت الثورة امر الخليفة بعزل والي مصر وعين آخر
مكانه.

الشيعة:

أما عن العلويين «الشيعة» فكان لهم نشاطهم المعادي أيضا ولو
أن نشاطهم لم يصل الي درجة خطيرة كما هو الحال بالنسبة
للخوارج. ففي أول عهد الرشيد أطمأن العلويين وظهر من كان
مختفيا منهم مثل ابراهيم بن اسماعيل المعروف بطباطبا، وعلي بن
الحسين بن ابراهيم بن عبدالله بن الحسين. وفي سنة ١٧١ هـ
تذكر النصوص أن الرشيد أمر باخراج الطالبين من بغداد الي مدينة
النبي صلي الله عليه وسلم ماعدا العباس بن الحسن بن عبدالله بن
عباس [١].

ظهور يحيى بن عبدالله بالديلم

قام يحيى بن عبدالله بن الحسن بالثورة علي الرشد في بلاد

(١) انظر ابن الاثير، الديلم، ج ١، ص ١٨٣، ص ٨٥٥.

الديلم في سنة ١٧٦هـ وازعج هارون، فندب لقتاله الفضل بن يحيى،
ومعه مناديد القواد، وولا، جرجان وطبرستان والري وغيرها. ولجأ
الفضل الى السياسة فكتب يحيى ولطفه، كما اتصل بصاحب الديلم
وبدل له الاموال وأخيرا استجاب يحيى للصلح علي أن يكتب له
الرشيد امانا بخطه وأن يشهد علي هذا الامان. "القضاة والفقهاء
وجلة بني هاشم ومشايخهم" فاجابه الرشيد الي ذلك، وعظمت منزلة
الفضل عنده، وقدم الفضل معه يحيى بن عبدالله بغداد فاستقبله
الرشيد استقبالا حسنا، الا أن امانة ووعدده لم يكونا بأهم من امان
أسلافه وذلك انه لم يحترم ذلك الامان وأمر بحبس العلوي. وتمكن
الرشيد من اعطاء نقضه العهد صفة الشرعية فأنتاه بعض القضاة بأن
هذا الامان منتقض من وجوه كثيرة وظل يحيى في سجن الرشيد حتي
وفاته الأجل [١].

السياسة الخارجية

الصراع ضد بيزنطة

فيما يتعلق بالسياسة الخارجية في الدولة فقد استمر الصراع
ضد بيزنطة طوال عهد الرشيد وزادت حدته بسبب اهتمام الرشيد
اهتماما خاصا بالجهاد وذلك منذ ايام والده المهدي الذي كان يعهد
اليه بقيادة الحملات في بلاد الروم.

(١) نفس المصدر السابق، ص ٩٠.

وبدأ الرشيد خالافته في سنة ١٧٠ هـ باجراء اصلاح. رئيسي علي الحدود البيزنطية وذلك أنه اصلح الثغور جميعها وشحنها بالحميات من الخرسانية وجعل من هذه المنطقة ولاية مستقلة واسماها " العواصم" وكانت الصوائف ووفي بعض الاحيان الشواتي تسير الي ارض الروم بانتظام وكان الاسطول يساعد في البحر في كثير من الاحيان. وفي سنة ١٨١ هـ سار الرشيد بنفسه علي رأس الجيوش وافتح عددا من الحصون. وتم الاتفاق بين البيزنطيين والمسلمين علي فداء الاسري، وتولي ذلك من قبل المسلمين القاسم بن الرشيد ومعه الاعيان من أهل الثغور والعلماء وتم التبادل قرب طرسوس وكان عدد الاسري المتبادلين ثلاثة الاف وسبعماية [١].

وفي سنة ١٨٧ هـ توغل القاسم بن الرشيد في أرض الروم وحاصر عددا من الحصون حتي اضطر البيزنطيون الي شراء انشحاب المسلمين عن طريق دفع الجزية وتحرير اكثر من ثلاثماية وعشرين اسير مسلم وفي هذه الاثناء قامت ثورة في بلاط بيزنطة كان من نتائجها خلع ايرين «ريني» واعتلاء وزير ماليتها نقفور العرش. وعمل الامبراطور الجديد علي نهج سياسة مناهضة الخلافة ورفض الجزية واستلزم قيام حملة قادها الرشيد بنفسه فحاصر مدينة هرقله ونشر الخراب حتي اضطر نقفور الي دفع الجزية الا انه نقض الاتفاق بعد رجوع الرشيد مباشرة فاضطر الخليفة الي الرجوع الي ارض الروم اثناء الشتاء رغم قسوة البرد.

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٠٥-١٠٦.

واشتدت الحرب بعد ذلك وتذكر النصوص انه قتل في الحرب من الروم في سنة ١٨٨هـ اربعون الفا وسبعماية . ولكن هذه المائفة لم تكن لها نتيجة ملموسة [١] .

وفي سنة ١٩٠هـ استطاع الرشيد الانتقام لغدر نقفور فسار علي رأس جيش كبير تباع النصوص في عدده فتقول انه زاد علي مائة الف وخمسة وثلاثين الفا "سوي الاتباع والمتطوعة ومن ديوان له" وحاصر هرقله حصارا شديدا طوال شهر حتي سقطت وسارت طوابير المسلمين في مختلف انحاء آسيا الصغرى تخرب وتذهب وتشر الذعر في كل مكان . وانتهى الامر بخضوع نقفور واضطر الي دفع الجزية ولكن هذه النتيجة كانت مؤقتة . ولم تكن الحملات الاسلاميه التي تلت ذلك ناجحة تماما . اذ تذكر النصوص ان الروم استطاعوا ان يقفوا امام المسلمين ان يزعموهم في بعض الاحيان الي الانسحاب، وعلي ذلك لم تستطع الدولة ان تحقق انتصارات حاسمة وطال الصراع لمدة طويلة دون ان ياتي بثمرة بالنسبة لأي من الطرفين المتنازعين [٢] .

ومات الرشيد في مدينة طوس سنة ١٩٣هـ وهو متوجه لاجهاد الثورة التي قام بها حفيد نصر بن سيار بنجي المشرق . وترك الخلافة محل نزاع بين ابنيه الامين والمأمون، وقد اشرك الرشيد ابنيه معه في الحكم وقد بدأ الرشيد بأن عهد الي ابنه محمد بن زبيدة ولقبه

(١) نفس المصدر، ص ١٢٠ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ٥٥٢ هـ ص ١٢٦ .

بالأمين وكان طفلاً صغيراً بلغ من العمر حوالي خمس سنوات . ثم
شعر بالغبن بالنسبة لابنه عبدالله وكان من أم ولد خرسانية ، فعهد له
سنة ٢٨٢ هـ بولاية العهد بعد الأمين واشركه في الحكم فولاه
مشرق الدولة - أي خراسان ومايتصل بها الي همدان ولقبه المأمون
وعهد بتدبير شؤنه الي جعفر بن يحيى بن خالد ولم يكتف الرشيد
بهذا بل بايع لابنه الثالث وهو القاسم بولاية العهد بعد المأمون
ولقبه بالملتحن ولكنه جعل للمأمون حرية التصرف في تشييته
اوخلعه . وكان للابن الثالث ولايته هو الآخر في الجزيرة والشغور
والعواصم . [٦] .

وفي سنة ١٨٦ هـ عندما سار الرشيد الي مكة لاداء فريضة
الحج اصطحب معه أبناءه ، وفي مكة دعا الفقهاء والقضاة وكبار رجال
الدولة وكتب كتابا أشهد فيه علي الأمين بالوفاء لله للمأمون كما
كتب كتابا اخر اشهد فيه علي المأمون الوفاء للأمين وعلق الكتابين
في الكعبة [٢] ولكن عندما توفي الرشيد في سنة ١٩٣ هـ قرب
طوس ال عسكره جميعا الي المأمون الذي كان مصاحبا له .

(١) نفس المصدر ، ص ١١٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١١٣ .

الفصل التاسع

الصراع بين الأمين والمأمون

خلافة الامين

«١٩٢ - ١٩٨ هـ»

«٨٠٨ - ٨١٢ هـ»

الصراع بين الامين والمأمون

المقدمات

يموت الرشيد أوشكت الدولة العباسية ان تنقسم الي قسمين ينازع كل منهما الآخر: الجزء الغربي حيث مدينة الخلفاء ، بغداد، وعلي رأسه الامين والجزء الشرقي اي خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون بمدينة مرو، ويعود الفضل في هذا التقسيم الي الرشيدكما رأينا بل ولربما تحقق الانفصال فعلا بين مشرق الدولة ومغربها عقب وفاته مباشرة ولو ان كلا من الابنين احترم وصية ابيه . والظاهر ان هذا الانفصال كان لابد منه اذ ان المشرق الايراني كانت له امانيه واماله السياسية التي يعمل علي تحقيقها، والتي ظهرت جليا بقيام الدولة العباسية نفسها . وسنري فعلا ان المشرق الايراني سيحقق استقلاله فعلا - ان لم يكن شكلا علي عهد الطاهرين وعلي ايام المأمون .

ويفهم من ذلك ان مسألة الصراع بين ابناء الرشيد لن تأخذ شكل نزاع عائلي من اجل وراثة العرش بل سيكون لها شكل النزاع الشعبي او العصبي بين العرب والفرس . وعلي ذلك فلن يكون للمطالبين بالخلافة رأي كبير في سير الحوادث هذا علي ان طفر المأمون، وغلبته علي الامين، أن هو الا انتصار للمشرق الايراني علي العرب العربي بعيد الي الاذهان قيام امر العباسيين علي اكتاف

الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب وتغلبهم علي العالم العربي الشامي، أحس بذلك وزير المأمون الفضل بن سهل الايراني الاصل، الحديث، الاسلام «منذ خمس سنوات» فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الاوئي [١] كان يقول للتميمي نعيمك مقام موسى بن كعب وللربيعي نعيمك مقام ابي داود، وخالد بن ابراهيم نعيمك مقام قحطبة .

بدأ الاختلاف بين الامين الذي له بالخلافة وبين المأمون عندما رفض الامين - بصفته صاحب السلطان - الاعتراف بما اوصي به الرشيد، من ان يؤول عسكره وكل مافيه من الاموال والامتعة والعدد الي المأمون . وعمل علي ان يعود هذا الجيس بكل اثقاله اليه، بفضل الفضل بن الربيع الذي حضر وفاة الرشيد، وغيره من القواد الذين ارسل اليهم بتعليماته . ولكي يخفف من روع المأمون كتب ايضا يهون عليه من الامر . ويأمره بترك الجزع وأخذ البيعة لهما، وكذلك لآخيهما القاسم «المؤتمن» .

وقام ابن الربيع بدعوة الجند الي الانفضاض من حول المأمون والعودة الي بغداد . فعلا اجابه كثير منهم رغم ما قام به قواد المأمون علي رأسهم ابن سهل من تذكير الناس ببيعة المأمون وسؤالهم الوفاء وتحذيرهم الحث «قال ابن الربيع انما أنا واحد من الجند» نتج عن ذلك ان اشفق المأمون عن حرج الموقف ولكن ابن سهل طمأنه ورسم له السياسة الواجب اتباعها، والتي تتلخص اولا

(١) انظر ٩، د. سعد زغلول، التاريخ العباسي والاندلسي، ص ١١٤ .

في الاعتصام بخراسان، اذ ان الخراسانية اخواله «المأمون» وهم بحكم قرابتهم هذه لن ينقضوا البيعة التي له في اعناقهم «ثانيا انتهاج سياسة دينية رزينة بدعوة الفقهاء الي الحق والعمل به واحياء السنن». ثم الاهتمام شخصا بأمورالدولة ورد المظلم واطهار التقشف والزهد. وبدأ تنفيذ هذا البرنامج بعمل موفق، وذلك انه وضع اوخفض ربع الخراج عن خراسان مما كان له وقع حسن عند أهل البلاد «قالوا بن اختنا وابن عم نبينا». كما أنه لاین الامین فی نفس الوقت الذي عمل فيه علي توطيد مركزه في ولايته الشرقية، بأن كتب اليه وعظمه واهداه الهدايا.

أما عن الامين فانه من جهته لم يرض عن موقف اخيه، وعمل علي اعادة الوحدة للدولة وعلي ان يحقق لنفسه السيادة الفعلية وبدأ ذلك علي حساب الاخ الثالث، وهو القاسم «المؤتمن» الذي كان يلي الجزيرة وما يتبعها بأن نحاه عن جزء كبير من ولايته واقره علي قنشرين والعوامم فقط وكانت هذه هي الخطوة الاولى "في السنة التالية ١٩٤ هـ «٨١٠م» خطا الخطوة الثانية وكان فيها تهديد مباشر للمأمون ومايمكن ان نسميه بتمهيد للأغارة علي حقوقه في وراثة العرش والخلافة. اذ امر الامين باغراء وزيره الفضل بن ربيع بالدعاء لابنه موسي. الذي كان طفلا صغيرا في خطبة الجمعة الي جانب الدعاء لأخويه.

وكان من الطبيعي ان لايسكت المأمون - تحت ضغط وزيره

الفضل ابن سهل هو ايضا - علي هذا العمل غير الودي واجاب عليه
بالمثل بأن تجاهل خليفة بغداد، وقطع كل علاقة به «استقط اسمه في
الطرز ومن النحود وقطع عنه البريد». وزاد ذلك من تأزم الموقف،
اذ كشف الامين عن نواياه وارسل بعثه الي المأمون يطالبه بالحضور
عنده ببغداد وكان الهدف من هذه الزيارة هو الضغط عليه للتنازل عن
بعض حقوقه في الوراثة. «تقديم موسي بن الامين عليه» وربما في
ولايته للمشرق [طلب اليه ان ينزل عن بعض كور خراسان وان يكون
عنده صاحب البريد يكاتبه بالاخبار].

وكان من الطبيعي ان يرفض المأمون اجابة مطلب الخليفة [١] كما لم
يوافق حزبه اطلاقا علي خروجه من خراسان، هذا رغم ان الموقف
السياسي للاطراف الشرقية من ولايته كان ينذر بالخطر. فاذا كان
رافع بن الليث قد مال الي الاستسلام والطاعة فان غيره كان قد اعلن
العصيان مثل جابغو أو جبغوية الفارلوق «علي سيحون» وخاقان
التبت، وملك كابل الذي كان يستعد للاغارة علي خراسان، وملك
اترار «مركز الغزو» الذي منع الضريبة.

واستطاع ابن سهل ان يدير الامور تدييرا حسنا، وان يظهر
مقدرة سياسية فائقة. وذلك أنه بدا بأن استمال أحد افراد بعثه
الامين وهو العباس بن موسي بن عيسي «حفيد عيسي بن موسي الذي
خلع علي عهدي المنصور والمهدي» وعدة أمري الموسم ومواضع من
مصر - فكان يكتب اليهم بالاخبار من بغداد ثم أنه شدد الحراسة

(١) كتب له المأمون «انما انا عامل من عمال امير المؤمنين وعمون من
اموانه امري الرشيد - معناه تمسكه بوحية ابيه - بلزوم الشجر
ولعمري ان مقامي به اراد علي امير المؤمنين واعظم عناء للمسلمين.
انظروا ابن الاشيرة ج ٥ ص ١٣٩-١٤٠.

علي حدود خراسان ومنع العبور الي ولايات الا لشخاص المعروفين.
اما فيما يتعلق بملوك الاطراف من الوطنيين فان الفضل نصح المأمون
بارسال خطابات لجابغو والخابقان يؤكد لهما سيادتهما علي بلادهما،
ويعددهما بالمساعدة ضد اعدائهما وان يرسل هدايا الي ملك كابل وأن
يعفي امير اترار من جزية عام. وفعلا نجحت هذه الاجراءات في
استتباب الامن والسلام في هذه النواحي.

خلع المأمون:

حاول الامين انفاذ الرسل لاقناع المأمون بالعدول عن موقفه
ولكنهم منعوا عند الري من حرية الاتصال باهل البلاد: حفظوا في
حال سفرهم واقامتهم من ان يخبروا او «يستخبروا» عند ذلك رأي
الامين ان القطيعة قد تمت وعمل علي أن يعيد توحيد الدولة عن
طريق استعمال اساليب العنف. وفي اوائل سنة ١٩٥هـ اعلن خلع
المأمون من ولاية العهد واخذ البيعة لابنه موسى بدلا منه ولقبه
"الناطق بالحق" وجعل له ديوانا من شرطة وحرس ووسائل وعهد
بإدارة شئونه وتأديبه الي علي بن عيسى بن ماهان والي خراسان
السابق ثم عهد لابنه الاخر عبد الله ولقبه "القائم بالحق" كما اعلن
عدم صلاحية النقود التي ضربها المأمون والتي لاتحمل اسم خليفة
بغداد للتداول [١].

واتبع الامين ذلك بأن ارسل الي الكعبة واتي بكتابي العهد

(١) انظر ابن الاثير، الكامل، ٥، ص ١٤٦، احداث سنة ١٩٥هـ (نظر
قسطح خطبة المأمون، سعد زغلول، ص ١١٧).

الذين كتبهما الرشيد ومزقهما . وخرج من حيز الكلام الي حيز العمل وكلف علي بن عيسى بن ماهان القائم بامر ولي العهد الجديد بالسير الي خراسان للقبض علي ولي العهد المخلوع وتنفيذ ما اتخذه من اجراءات ضده .

ولاشك في ان اختيار بن ماهان للقيام بهذه المهمة لم يكن اختبارا موفقا فالرجل معروف بسوء السيرة في خراسان لجشعه في ابتزاز الاموال حتي اضطر الرشيد الي عزله بعد ان جمع ثروة طائلة وبعد ان كان يقاسمه في استغلاله للبلاد . والظاهر ان الاهواء الشخصية قامت بدورها في هذا الاختبار ، فابن ماهان كان يطمع في العودة الي منصبه القديم المغري . وربما اراد الامين ان يكيد لاهل خراسان فولاه هذا الامر نكاية فيهم ، ولكن بلغ عدم التوفيق ، هذا ، حدا قيل معه ان عينا للفضل ابن سهل هو الذي اشار بانفاذه حتي يقاومه اهل خراسان .

بداية الصراع

سار علي بن عيسى علي رأس ٥٠ الف رجل ، وخرج الامين ووجوه اهل دولته لوداعه . واتجه جيش بغداد نحو الري حيث كان طاهر بن الحسين قائد المأمون يعد العدة للدفاع ويستعد للقتال وحاول علي ابن عيسى ان يستغل معرفته السابقة للبلاد والاتصال بالملوك الوطنيين واثارتهم ، هذا ولو أننا لانعرف الي اي حد نجحت

هذه الخطة رغم ما يقوله الكتاب من أن هؤلاء الملوك اجابوه الي قطع طريق خراسان . ولكن المحقق ان ابن مهران استهان بأمر طاهر، اذ تقول النصوص بأنه لما طلب اليه اصحابه بث العيون وعمل خندق، قال : "مثل طاهر لا يستعد له" وخرج طاهر من مدينة الري في جيش قليل العدد [نسبياً ٤ آلاف] حيث عسكر علي بعد قليل منها «ه فراسخ». كما حرض جنده علي القتال خالفاً الامين داعياً بالخلافة للامامون. وكان الغرض هو اعطاء موقعة جيشه صفة شرعية حتي لا يخيل للجند انهم يقتلون موقف الخرجين علي صاحب الامر . واتخذ كل من الجيشين تشكيل القتال ووقعت الواحد منهما امام الآخر .

وبدا طاهر بمظاهرة سياسية بان حمل صاحب شرطته بيعة المامون وعلقها علي رمحه، ودعا علي بن عيسي الي تقوي الله في البيعة التي اخداها ولما خرج احد اصحاب ابن مهران عليه بالسيف اظهر شجاعة فائقة، اذ حمل عليه واخذ منه السيف بيديه وصرعه ولها سمي طاهر ذو اليمينين .

وفي هذه الاثناء حدثت مفاجاة سيئة بالنسبة لطاهر، وذلك ان اهل الري اغلقوا باب المدينة دون عسكرة، ولكن يظهر انه كان يتوقع مثل هذا منهم ولذلك فضل الخروج والقتال بعيداً عن المدينة فامر اصحابه بالاشتغال بمن امامهم فقط . وبدأ القتال في صالح علي بن عيسي فهزمت ميمنته ميسرة طاهر هزيمة منكرة، وعرجت ميسرته علي ميمنة طاهر فزحزحتها عن مواضعها . ولكن طاهر اظهر كفاءة

عسكرية عظيمة فلم يفت سوء الموقف في عهده، فأمر أصحابه بالقيام بهجوم خاطف «حملة خارجية» علي قلب علي ابن عيسي. ويفضل ذلك الهجوم القوي تحول الموقف لصالح طاهر فانسحب جناح ابن ماهان، وكثر القتل في أصحابه وسقط هو قتيلا بضربه سهم في الميدان. ولم ينقذ المهزمين الا حلول الليل بعد ان التجأ كثيرون منهم الي معسكر طاهر بعد ان امنهم.

الزحف على بغداد

كانت هذه الواقعة فاتحة سلسلة من الانتصارات قادت طاهر من الري الي بغداد تعيد الي الدهن الحملة المظفرة التي قام بها فحطبة بن صالح من خراسان الي العراق. وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الامين عبد الرحمن بن جبلة الذي ولي همدان، والذي كان يأمل ان يلي كل ما يفتحه من أرض خراسان. هزمه طاهر مرتين، حاصر مدينة همدان حتي فجر اهل المدينة، فطلب عبدالرحمن الامان وخرج عن المدينة، ولكنه كان يضمر الغدر بطاهر اذ شن عليه هجوما شديدا يالشا انتهى بقتله وهزيمة أصحابه كان هذا الرجل متعصبا للامين ضد المأمون في أول الامر فقال لايري امير المؤمنين وجهة ابداء، وبعد الاستيلاء علي همدان عمل طاهر علي تأمين طهيرة قواته عن طريق احتلال قزوين، ولم ينتظر قائد الامين وجيشه الكثيف وصول طاهر اذ انه رأي الجلاء عن البلاد، فوضع طاهر حامية لمنع مرور أية قوات من هناك.

وبذلك خلت البلاد لطاهر فتقدم يحتل الكور والمدن حتي وصل الي قرب حلوان، حيث عسكر هناك وكان الانتصارين اللذين احرزهما طاهر اثرهما الكبير في اضعاف الروح المعنوية لدي قواد وجيوش الامين. فبعد ان بحث الفضل بن الربيع عن قائد عربي متعصب للعرب، هو اسد بن يزيد ابن مزيد، وبعد ان حرضه من اجل المحافظة علي قوة الشعب العربي [١] فشل في تسييره اذا كان للقائد العربي مطالب مالية [٢]. لم يقابلها الامين بالرفض فقط بل امر بحبسه كذلك واخيرا نجح في تسيير عم اسد وهو احمد بن مزيد لحرب طاهر وسير معه عبد الله بن حميد بن قحطبة ولكنها لم يتقدما الي ابعد من خانقين. واكتفي طاهر بان ظل في مكانه ودس عليهم الجواسيس والعيون ولم يزل يحتال حتي وقع الاختلاف في معسكر اعدائه [٣] وقاتل بعضهم بعضا حتي اضطر قائدا بغداد الي الرجوع عن خانقين دون ملاقاته طاهر الذي تقدم ونزل حلوان نفسها.

الاضطراب في الشام :

في هذا الوقت بينما كانت الامور مستقرة في خراسان، وبينما كان امر المأمون في تحسن مستمر بدأ مغرب الدولة ومركز الخلافة يضطرب وسارت الامور علي غير مايشتهي الامين حتي انه وقع اسيرا

(١) قال له: انما نحن شعب من اصل اري قوي قويينا وان ضعف ضعلنا وبعد ان ينقذ الامين للهوة ومبته يقول: وقد خشيت ان نهلك بهلاكه وانت فارس الغرب وابن فارسها انظر ابن الاثير، ج ٥٥ ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) طالب بصرف رزق سنة وجعل رزق سنة اخري مع الجيلة.

(٣) كان يزحفون ان الامين وضع العطاء.

بين ايدي الثوار، وفقد خلافته لفترة ما . والغريب في هذا الشأن ان بلاد الشام، وهي مركز الدولة العربية السابقة ومعقد آمال الشعب العربي وامانيه في هذا الصراع العنصري كانت نهب الفتن والقتل منذ البداية .

ففي سنة ١٩٤ هـ ثارت حمص علي عامل الامين فعزله، ولكنه ولي آخرأ مكانه انتقم من أهلها حتي طلبوا الامان ثم هاجوا بعد ذلك فاضطر الي الانتقام من جديد . وفي السنة التالية سنة ١٩٥ واثناء انهزام جيوش الامين امام طاهر طن اهل الشام ان امر العباسيين ودولة الفرس الي بوار فثارت دمشق ودعت الي عودة الامويين «السفياني المنتظر» اعلنت احمد حفدة معاوية ويدعيه ابو العميطر علي «علي بن عبد الله بن خالد» وكان علوي الام «نفيسة بنت عبد الله» مشتغلا بالعلم، ويبلغ من العمر ٩٠ عاما خليفة «ذي الحجة» وتمكن ابو العميطر من اخراج عامل دمشق وذلك بفضل معونة احد موالى بن امية وعندما سير الامين لحربه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان لم يسر هذا الاخير الي دمشق بل اكتفي بالانتظار بالركة .

واحسن السفياني السيرة اول الامر ولكنه لم يكن ليستطيع القضاء علي الخصومات القديمة بين العصبية العربية من كلب وقيس او التوفيق بينهما ففي اول الامر اتخذ اكثر اصحابه من كلب ولكنه عاد وخاصهم واتفق مع قيس ولكن الزعيم الكلبي محمد بن صالح ابن بيهس اوقع به هزيمة منكرة وحاصره في دمشق وقتل ابنه وارسل راسه للامين . وحدث ان مرض ابن بيهس فعمل علي الكيد للسفياني

فبايع أمويًا آخر بالخلافة «مسلمة بن يعقوب» ونجحت خطته، وتمكن الأموي الجديد من القبض على السفيناني وقرب القيسية فلما عوفي ابن بيهس من مرضه عاد وحاصر دمشق فسلمها إليه القيسية وهرب الأموي والسفيناني بعد أن دامت الفتنة حوالي ٣ سنوات «محرم سنة ١٩٨هـ» وظل ابن بيهس بدمشق حتى وصل إليها عبدالله بن طاهر.

وكان عبد الملك بن صالح، الذي أخرجه الأمين من السجن عند ولايته [١] قد حاول أن يجد علاجاً لنكبة الشام فطلب إلى الأمين أن يوليه أياها ومنه بأنه يمكنه أن يجيش أهل الشام لنجدته. ولكن فشل عبد الملك في مهمته إذ قامت الفتنة بين الخراسانيين وأهل الشام بينما كان هو مريضاً، وانتهت الفتنة بانهزام العرب، فمات الرجل سنة ١٩٦ هـ متأسفاً لنكبتهم وضياع أمله فيهم.

وبئس كذلك الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان الذي كان أرسله الأمين إلى الشام من تقويم الحالة بعد موت عبد الملك فعاد إلى بغداد ولما أراد الأمين أن يحاسبه عما فعل رلغ راية العصيان وهزم جند الخليفة وأعلن خلعه [١١ رجب] وأخذ البيعة للمأمون. ولم ينقض يومان حتى كان الخليفة أسيراً وهو وأمه زبيدة، وتم ذلك بتدبير العباس بن موسى بن عيسى الذي كان قد استماله الفضل بن سهل كما رأينا ولكن الحسين لم يستطع السيطرة على الموقف فثار به الجند وأطلق الأمين وأعيد إلى كرسي الخلافة. وبذلك قدر للنزاع

(١) وكان الرشيد قد حبسه أيام نكبة البرامكة. انظر ابن الأثير، ٥٢

بين الاخوين ان يستمر مدة اطول.

وفي هذه الاثناء وقعت بغداد فريسة للفوضى وبلغ من حرج مركز الامين انه لم ينتقم من الرجل الذي خلعه بل عفا عنه [١] واكثر من هذا انه لم يجد قائدا غيره للقيام بحرب [٢] المأمون فوجهه لذلك. ولكن الحسين كان قد فقد الثقة في موقف الامين فحاول الهرب الا أنه اخذ وقتل* وظهر الفشل في حزب بغداد بهرب الفضل بن الربيع، وكان القوة المحركة لهذا الحزب واحتفائه بعدمقتل الحسين.

ظهر بجلاء اذن ان موقف بغداد ميلوس منه وكان من الطبيعي ان تتقدم جيوش خراسان بسهولة والايصاف طاهر بن الحسين عقبات خطيرة فتمكن من الاستيلاء علي الاهواز بعد أن حاول واليها الدفاع عنها فلقي حتفه كما ان طاهر اصيب في هذه المعركة بجراح بليغة «نقطعت يده» وباستيلائه علي الاهواز تمكن من السيطرة علي الهامة والبحرين وعمان «علي الخليج الفارسي من شبه جزيرة العرب» ارسل اليها عمالا يلونها من طرفه واستمر تقدم طاهر المظفر دون مقاومة حتي اتي واسط التي استسلمت للخراسانية دون مقاومة هذه المرة ومنها ارسل احد قواده الي الكوفة وكانت قد خلعت الامين واعترفت بخلافة المأمون «كان عليها العباس بن موسي صنيعة ابن سهل، ولم تنجح محاولات بغداد لاستردادها».

(١) قال الحسين عندما طلب الامين «ما انا بهمن ولا مسامر ولا مضحك»

انظر ابن الاثير ج ٥ ص ١٥١.

(٢) قيل ما هو باكثرنا سنة وما هو بكبر منا حسبا ولا بامظنا منزلة

ولمني، انظر ابن الاثير ج ٥ ص ١٥٢.

وبذلك تم طاهر الاستيلاء علي كل الاراضي الواقعة بين واسط والكوفة كما أعلن والي البصرة خضوعه له، وأعقبه والي الموصل. وبهذا أصبحت بغداد شبة محاصرة وأنقطعت عن كل الولايات الشرقية والجنوبية، وتم خروج كل بلاد العرب جميعا من سلطان الامين، بدخول مكة والمدينة في طاعة المأمون. ورغم أن موقف الامين كان لا يبشر بأي امل الا انه ظل جامدا في تصرفاته لا يريد سوي التشبث بعاصمة الخلافة التي أصبحت محاصرة «لم يصبح لها اتصال الا ببلاد الشام المضطربة» فهو لا يريد الخروج منها - كما نصحه بعض الناس - ومحاولة تنظيم قواته من جديد بالشام ولا هو يحاول المرونة واستعمال السياسة ومفاوضة اعدائه في سبيل انقاذ ما يمكن انقاذه اذا كان هناك ما يمكن انقاذه.

في هذه الظروف تقدمت جيوش المأمون، ومارت تقترب من بغداد شيئا فشيئا، وكانت كلها قربت اضطربت امر الجيوش البغدادية وانسحب افرادها. هذا ما حدث بالمهائن «علي بعد» كالم من بغداد» حيث نزل طاهر «بصرصر» وماحدث بالنهروان حيث نزل هرثمة بن أعين. كل هذا والامين لا يفقد الأمل، بل وربما اعتقد في مقدرة بغداد وحدها علي استعادة دولتها المفقودة ففي محاولة أخيرة عمل علي استمالة جيوش طاهر ببذل الاموال والتلويج ببريق الذهب، ودس بينهم الجواسيس ونجحت التجربة جزئيا اذ شغب بعض الجند علي طاهر وانضم فريق منهم الي جانب الامين «حوالي ٥ الاف» ولكن النجاح لم يذهب الي ابعد من ذلك اذ تمكن طاهر بسرعة من

السيطرة علي رجاله وهزم جيش بغداد الذي اقترب من مواقعه فلجأ الي داخل المدينة التي اصبحت مطوقة تماما من جميع الجهات وافلت زمام القواد - الذين كانوا يطلبون المال بجشع والحاج-من يدي الامين وعمت العاصمة الفوضى، فنقبت السجون وخرج أهلها وثار العامة والغوغاء وساد النهب والسلب والاضطراب.

رغم حالة الفوضى التي عمت بغداد لم يكن من السهل اخذ المدينة التي بناها المنصور لتكون أولا وقبل كل شيء معسكراً لجنوده وملجأ يستقر فيه -في امان من مفاجأة الاعداء - فللمدينة سورها الضخمان، والخندق الممتد بينهما، ثم هي مقسمة بعد ذلك الي احياء «أرباع» شبه منفصلة تتوسطها المدينة الملكية، ويمكن لكل منها أن ينظم دفاعه الخاص. بعد ذلك هناك الاحياء والاسواق خارج الاسوار وهي مكتظة بالعباني والسكان ويمكن الاعتماد بها.

عرف طاهر ذلك وعمل علي ضرب حصار محكم حول المعسكر الضخم. فقسم دائرة الحصار الي اربع مناطق وعهد بكل منطقة الي قائد. ونزل هزئمة بالمنطقة الشرقية «وراء دجلة» بينما نزل طاهر بالمنطقة الغربية من ناحية باب الانيار «باب الكوفة».

وصمم الامين من جهته علي المقاومة المستميتة دون النظر الي العواقب مضحيا بمدينة الخلفاء العالمية. فلما أحوجاه المال ضرب أنية الذهب والقضة وفتحها في اصحابه ولما خرجت عليه احياء

المدينة امر باحراقها رميا بالنقط والنيران وبالمجانيق . ولم يتورع طاهر عن فعل مثل هذا أيضا بالنسبة للأحياء التي ظلت تقاومه وسماها دار النكت «أهل الأرباض ومدينة المنصور واسواق الكوخ والخلد، لامتلائها بالعامه والغوغاء» كما أنه لجأ الي أرهاب الاعيان الذين لم يخرجوا اليه من الهاشميين وكبلر القواد في أموالهم وأمالكهم فصادر مزارعهم الموجودة خارج المدينة .

ولم يمض وقت طويل حتي انتهت المقاومة النظامية وانهارت معنويات الجنود وضعفوا عن القتال . كما أستأمن كثير من وجوه المدينة ومن القواد وظل الغوغاء وأهل السوق وباعه الطريق، من أعداء النظام والا من ينهبون ويسلبون ويقامون جنود طاهر . ورغم أنهم لم يكونوا مسلحين أوكانوا يحملون اسلحة بدائية مثل المخالي فيها الصخر والحجارة، ومعها المقاليع فأنهم أمكنهم شل حركة جيوش طاهر النظامية لمدة ما، بل وأكثر من هذا تمكنوا اثناء قتال الشوارع والبيوت من أن يلحقوا بهم في بعض الأحيان خسائر فادحة وان يحرزوا بعض الانتصارات أيضا . واتخذ طاهر ازاء هذه المقاومة اجراءات شديدة فأمر بهدم كثير من الدور والأحياء «ما بين دجلة ودار الرقيق، وباب الشام، وباب الكوفة الي الصراه وريض حميد ونهر كرخايا» حتي عم الخراب واضطر كثير من أهل المدينة الي الجلاء عنها . وبعد ذلك عمد الي منع الاقوات عن المدينة «صرف السفن التي يحمل اليها القوت الي الفرات» فغلا السعر وأصبح الناس في ضيق شديد .

سقوط بغداد ونهاية الامين:

وأخيرا تقدم طاهر من جهة الكرخ وتمكن من دخول المدينة عنوة واحتل أسواق الكرخ ثم عمل علي حصار مدينة المنصور - المدينة الملكية وسط بغداد حيث كان الامين قد التجأ هو وأمه وأهله بعد ان فارقه كثير من جنده وجواربه، واحاط قصورها «قصر زبيدة وقصر الخلد» بالمجانيق - ورغم هذا الضيق الشديد الذي وقع فيه الامين فانه لم يتخل عن عاداته من الانصراف الي الغناء والاستمتاع بالشراب والموسيقى - وربما وجد في ذلك بعض التخفيف من محنته، وكان هذا ايلانا بالنهاية، إذ لم يعد أمامه سوي الاختيار بين احد شيئين: امام القيام بمحاولة يائسة لاختراق صفوف المحاصرين بها تبقي لديه من الخيل وأما الاستسلام وطلب الامان - ولما لم يكن الامين من هؤلاء الرجال الذين يزدادون عزما كلما ازدادت الصعاب شدة، فانه ركن الي طلب الامان - وكل ماقلعه أنه لم يرض ان يكون استسلامه لطاهر بل فضل عليه هرثمة بن أعين.

وكان من الطبيعي ان يثير ذلك طاهرا صاحب الحصار - وتمكن الطرفان من ايجاد حل لذلك، اذ اتفق علي أن يدفع الامين شعار الخلافة والخاتم والقضيب والبردة - الي طاهر - واتي هرثمة بحراقة في دجلة ونقل الامين اليها «وحدة» ولكن طاهرا لم يكن

ليرض أن يفوته شرف استسلام الخليفة . فدير اغراق الحراقة بأيدي اصحابه تدييرا سالرا . وتنتهي قصة الامين نهاية مأساة روائية «تراجيدية» بأن يؤسر وهو شبه عريان، ويحبس في احدي الدور . وفي ظلام منتصف الليل الذي تبدده بعض المشاعل يدخل عليه بعض الرجال من العجم ويلبحونه ذبح الشاة من قفاه «في يوم الاحد ٢٣ محرم ١٩٨هـ» ويسيروا برأسه الي طاهر الذي يرسلها بدوره الي المأمون صاحب العرش دون منافس .

استلمت بغداد بعد اذن، وفي يوم الجمعة التالي «٢٨ من المحرم» دخل طاهر بغداد وصلي الجمعة ودعا للمأمون . وكان المتوقع أن تهدأ الاحوال ويستتب الامن وتستقر الامور بعد موت الامين وخلوص الامر للمأمون وهذا ما لم يحدث . فالمسألة كانت اكثر من ذلك تعقيدا، اذ معني انتصار صاحب الولايات الشرعية هو أن مركز الخلافة والحكم كان يتزعزع نحو المشرق . وفعلا لن يدخل المأمون بغداد الا بعد ست [٦] سنوات قضاها في عاصمة ولايته الشرقية . وخلال هذه السنوات الست ستعرف بغداد كما ستعرف الولايات الغربية الوانا من الاضطراب وصلوتا من الفتن والثورات وذلك حتي يعود الخليفة من جديد الي عاصمة بغداد .

فبعد دخول طاهر بغداد لم تلبث الثورة أن شبت بالمدينة واشترك فيها الجند الذين طالبوا بارزاقهم ونادوا بموسي بن الامين . وطن طاهر أن في الامر مؤامرة فخرج عن المدينة وعزم علي التكيل

بأهل الأرباض . ولولا تدخل الأعيان واعتذارهم اليه . وعندئذ حمل
ظاهر ولدي الأمين وهما موسى وعبد الله وأمر بتسييرهما الي
المأمون بخراسان .

الفصل العاشر

خلافة المأمون

خلافة المأمون

« ١٩٨ - ٥٢١٨ هـ »

٨١٣ - ٨٣٣ م

وحسب السياسة التقليدية للخلفاء العباسيين عمل الخليفة الجديد علي التخلص ممن يستشعر خطره من كبار الرجال الذين مهدوا له الطريق الي الملك فكان نصيب الفاتح الكبير طاهر بن الحسين أن أمر بالتخلي عن كل فتوحاته، من كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن للحسن ابن سهل أخى الوزير الخطير الفصل، الذي استعمله المأمون - بايحاء الوزير من غير شك - ولم يفعل طاهر سوى مدافعتة بتسليم الخراج حتي وفي الجند اأزاقهم، وبعد ذلك كان علي طاهر ان يسير حسب أوامر الحسن بن سهل الي الرقة علي رأس قوات غير كافية لحرب احد ثوار الشام من رجال الامين، وهو ابن شيث «نصر بن سيار» الذي غلب علي نواحي حلب وما جاورها من الجهات، وعبر الفرات الي الجانب الشرقي يبغي التغلب عليه وفي نفس الوقت ولي طاهر الولايات المضطربة، والتي لم تكن قد دخلت في الطاعة بعد، وهي الموصل والجزيرة والشام والمغرب. أما عن هزيمة بن اعين فسيكون مصيره الموت بعد قليل.

العلويون وثورة ابي السرايا:

انتهز اعداء الدولة وعدم الاستقرار هذا وعملوا علي الاستفادة من الاضطراب والصيّد في الماء العكر، كما يقال، فظن العلويون ودعاتهم ان الخلافة العباسية ضد ضعفها الصراع وان الفرصة مواتية لقيام دولتهم المنتظرة وفي ١٠ من جمادي الثانية سنة ١٩٩ هـ اعلنوا امامة ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن اسماعيل المعروف بابن طباطبا بالكوفة، مركز العلويين ودعوا للرضا من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة .

وربما كانت الظروف التي قامت اثناءها دعوة ابن طباطبا تدعو الي التفكير في موقف قواد المأمون مثل طاهر وهرثمة، وهل كان لهذا الموقف تأثير غير مباشر علي الاقل علي سير الحوادث في ذلك الاتجاه، فتتحية طاهر عما كان اليه من الاعمال التي افتتحها، والعهد بها الي الحسن بن سهل اخي وزير المأمون القوي الذي اصبح يدعي ذا الرئاستين، كان من شأنه ان دارت الشائعات بأن الوزير غلب علي المأمون، وكان من الطبيعي أن يثير ذلك بني هاشم ووجوه الناس وان يهيج الفتن، وهذا عن طاهر، أما فيما يتعلق بهرثمة فان الرجل الذي قام بأمر حرب العلوي اي بقيادة جيوشه هو ابو السرايا الذي كان مخاطر اشبه مايكون بزعماء العصابات والذي كان يعمل تحت قيادة هرثمة اثناء الصراع بين

الامين والمامون . فلما استتب الامن عاد الرجل الي سيرته الاولى .
هنا يمكن التساؤل عما اذا كانت علاقة هرثمة قد انقطعت نهائيا
بهذا المخامر؟ وهل لم يكن من صالح هرثمة ان تقوم امام منافسة
ظاهر بعض المعاصي من الصعب ان نجد اجوبة لهذه الاسئلة .

علي كل حال التقى ابو السرايا بابن طباطبا واصبح قائده .
وعندما وجه الحسن بن سهل اليهما جيشا تمكنا من هزيمة هلا
الجيش في اخر جمادي الثاني ولكن في الشهر التالي يموت ابن
طباطبا . والظاهر ان ابا السرايا الذي كان يريد ان يكون صاحب
الامر الفعلي تخلص منه نسمة واقام مكانه غلاما علويا للمحمد بن
زيد . فتحقق له ماكان يبغى وعندما ارسل الحسن بن سهل جيشا
ثانيا تمكن ابو السرايا من القضاء عليه قضاء تاما .

وعندئذ احس الطالبيون بقوتهم فانتشروا في البلاد يبشرون
بدولتهم ودعوا نصر بن شيبث بالشام الي بيعتهم فرفض ، وقال : انما
حاربتهم محاربة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم . وضرب ابو
السرايا الدراهم بالكوفة وسير قواته الي البصرة وواسط
ونواحيهما ، بل واكثر من هلا ظن ان اطراف الدولة قد دانت له
او علي وشك ان تدن ، فارسل العمال والولاة الي مختلف الجهات
: الي البصرة والي مكة حيث فسد موسم الحج هلا العام والي
اليمن وفارس والاهواز وفعل غلب رجاله علي البصرة والاهواز
والمدائن واليمن ، كما انسحبت امام قائده جيوش الحسن بن سهل

التي كانت بواسطة الي بغداد، حتي طمع في دخول بغداد نفسها .

وعند استفحل الخطر، اضطر الحسن بن سهل الي استدعاء هرثمة الذي كان قد سار نحو خراسان وهو مختلف مع الحسن . ورضي هرثمة بعد امتناع الذهب لحرب ابي السرايا، وتمكن من هزيمته بسهولة قرب المدائن فارتد ابو السرايا والطلبون الي الكوفة حيث قاموا باعمال انتقامية ضد من بها من بني العباس، فهدموا دورهم وانتهبوا وخربوا ضياعهم، ولكن لم يلبث ابو السرايا ان خرج منها ودخلها هرثمة «في ١٦ من المحرم سنة ٢٠٠هـ» وانتهي الامر بالقبض علي ابي السرايا وقتله وتسيير راسه الي المأمون .

في هذه الفترة القصيرة التي عرف فيها العلويون سطوة الحكم والسلطان قاموا باعمال انتقامية شنيعة، كما اساءوا السيرة . فكما حدث في الكوفة حدث في البصرة حتي سمي زيد بن جعفر بزيد النار، لكثرة ما أحرق بالبصرة في دور العباسيين . وفي اليمن اطلق علي ابراهيم بن موسى جعفر "الجزار لكثرة من قتل باليمن وسبي وأخذ من الأموال . وكذلك لم تسلم مكة والكعبة من فعالهم السيئة، فقام الافطس «الحسين بن الحسن» عامل ابي السرايا بالاستيلاء علي ودائع بني العباس هناك وأخذ اموال الناس ومال اصحابه علي شباييك الكعبة واخذوا ماكان عليها من أساطين الذهب اليسيرة وماكان بخزانتها من المال . ولما بلغه موت ابي السرايا الح

علي محمد بن جعفر العجوز في قبول الخليفة واجبروا الناس علي بيعته . وأخيراً تمادي الطالبيون في عيهم وانتهكوا الاعراض [١]

وأخيراً تمكنت جنود هرثمة مع جنود والي اليمن المطرود من هزيمتهم واعتذر محمد بن جعفر بأنها كانت فتنة عمت الأرض، وخلص نفسه فسير به الي المأمون بمرور سنة ٢٠١ هـ هكذا قضي تماماً علي الفتنة العلوية التي ربما كان له ضلع في افارتها نكايه في ابني سهل اللذين غلبا علي الخليفة او هلكا ماسيتهم به اعداؤه ليغضب عليه المأمون ويموت بعد أيام في حبس الفضل .

الاضطرابات في بغداد:

اما عن بغداد فكان من الصعب عليها أن تعيش مطمئنة بدون خليفة والقيت تبعة عدم مجئ الخليفة الي العاصمة علي ابني سهل وانتهاز الجند تأخر أرزاقهم بعض الوقت، ظاروا ضد الحسن بن سهل وتمكنوا من طرده هو وعماله «ونادوا باسحق بن موسى الهادي نائباً للمأمون علي بغداد» وحاول الحسن ارضاءهم بالمال بعد أن استعمل معهم العنف، ولكن وصول خبر مقتل هرثمة [٢] وهروب بعض العلويين من سجن البصرة زاد من هياج الفتنة . وخرج

(١) اذ تقول الروايات التي ربما كانت متحيزة ضد العلويين او الانطس وشب علي امرأة جميلة لامتنتع لماخاف زوجها حتي حواري واخذها مدي وشب علي بن محمد بن جعفر غلام اسود وهو ابن القاضي لماخذه فنهراه انظروا ح ٥٥ ص ١٧٧-١٧٨ .

(٢) الحسن بن سهل كان يريد ان يوجهه بعد ذلك الي الشام والحجاز فرفض هرثمة وسار دون استئذانه . انظروا ابن الاثير ح ٥٥ ص ١٧٩ .

قاله الحسن بن سهل عن بغداد، وسار الحسن نفسه من المدائن الي واسط في اوائل سنة ٢٠١ هـ. ولكر الهاشميون واهل بغداد من الغاضبين علي الحسن بن سهل في مبايعة منصور بن الهمداني وعرضوا عليه الخلافة ولكنه كان مندما للامون قاضي. واخيرا رضي ان يضبط الامور باسم الامون اي ان يكون نائبا له ببغداد والعراق [كانوا يقولون لانرضي بالمجوسي ابن المجوسي].

المطلوعة في بغداد:

ازاء اضطراب بغداد هذا، وقيام الفتن بين الناس وانتشار السلب والنهب والفساد، من قطع الطريق الي الحد النساء او الصبيان علانية وقصور السلطات عن ضبط الامور، قامت حركة شعبية تهدف الي نشر الامن والطمأنينة وحسن المعاملة بين الناس، واتخذ القامون بهذه الحركة المبدأ الاسلامي الشهير: وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" شعارا لهم. معني ذلك ان الحركة كانت في اول امرها عبارة عن دعوة الي التقوي ولزوم اوامر الدين. هذه الدعوة ستعطي اعمال الجماعة عندما تضرب علي ايدي الفساد صفة شرعية، اذ ان هذا العمل من اختصاصات صاحب الامر الشرعي.

واول ما فكر في تنظيم هذه الحركة رجل اسمه خالد الدريوش، دعا هذا الرجل جيرانه واهل محله الي معاونته علي الامر

بالمعروف واللهي عن المنكر وفعلاً قاتل اللساق وتمكن من هزيمتهم . كل هذا في حدود الاعتراف بسلطان ولي الامر . وقام بعد ذلك رجل اخر اسمه سهل بن سلامة وعلق مصحفاً في عنقه ودعا الناس لمناصرته في دعوته، ولكن لما كان كثير من اصحاب هذين الداعين من عامة الناس وغوغلهم فان منصور بن المهدي الذي دخل بغداد قاومها وهزم اصحابها . وفي هذا الوقت كانت هناك مفاوضات بين الحسن بن سهل واهل بغداد من اجل تأمينهم علي أن يعطي لهم وللجند من الثوار الازداق، وفعلاً تم الاتفاق علي ذلك وعاد الحسن بن سهل الي بغداد « ١٣٨ شوال سنة ٢٠١ هـ » الا أن سهل ابن سلامة ظل علي ما كان عليه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

العهد للعلويين:

في غمرة الحوادث الدامية هذه وجد المأمون ان الفضل في ما وصلت اليه الدولة من حالة الاضطراب التي تكاد تؤدي بالاسرة العباسية، بل بالاسرة النبوية جميعاً، يعود الي مشكلة وراثة 'رش، التي لم يستطع اسلافه ايجاد حل مرض لها، وفكر هو في ايجاد حل لهذه المسألة . وربما كان المأمون خيالاً بعض الشيء . فيما فكر فيه، وربما كان فيسلوفا يريد أن يصل الي اصل الداء . فعلي حين غرة اعلن العلوي علي بن موسي الرضا ولياً للعهد بعده، وكان قد خلع اخاه المولود قبل ذلك سنة ١٩٨ هـ .

ويمكن النظر الي هذا الاجراء من وجهين:

١- علي أنه عمل سياسي صرف يرمي الي ارضاء العلويين واتباعهم ومن يعطفت عليهم في انحاء الدولة المختلفة، وهؤلاء كانوا عديدين في العراق والحجاز ارضاء مؤقتا، ورغم سياسة القمع التي كانت الاسرة العلوية هدفا لها لم تزل الاسرة تتمتع بنصيب كبير من التعظيم، كما أن العباسيين كانوا يخشون أن يجلبوا لانفسهم عن طريق الشدة القاسية كراهية الشعب التي كانت تحسب وشوما علي الامويين.

٢- علي أن المسألة أعمق من هذا، وأنها تتصل بشرعية ولي الامر وأحقية الفرع العلوي من اسرة النبي هو الآخر في الاشتراك في الحكم اشتراكا فعليا وهذه نظرة الفيلسوف الزاهد الذي يبحث عن الحقائق الصرفة دون اعتبارات اخري. ويمكن التفكير في أن المأمون كان متأثرا في ذلك براء وزيره الفضل بن سهل.

ويؤيد وجهة النظر الثانية هذه أن المأمون زوج العلوي ابنته أم حبيب وزوج ابن الرضا وهو محمد ابنة اخري وهي ام الفضل، وفي هذا معني تحقيق وحدة الفرعين العباسي والعلوي. ثم أنه غير اللون الاسود لون العباسيين للرايات والخلع، واحل محله اللون الاخضر شعار العلويين «معني ذلك حل المشكلة السلوية وقيام دولتهم المنتظرة» وربما ايدها أيضا تصرفات المأمون ازاء العلويين بعد وفاة الرضا.

نتائج بيعة الرضا:

ولكن هذا العمل السياسي الغريب يعكس ما كان يتوقع له في العراق، فبدلاً من أن يؤدي إلى الهدوء، أثار الغضب، إذ احتج جميع العباسيين علي اعتزال أوتنحي رئيسهم «قالوا لا تخرج الخلافة من ولد العباس». وفي بغداد رفضوا أداء البيعة للامير العلوي وفكروا في خلع المأمون نفسه «كان أشدهم فيه منصور وابراهيم أبناء المهدي» وفعلاً تنازعوا هذا الأمر أثناء خطبة الجمعة «٢٧ ذي الحجة». وتفرق الناس دون صلاة بعد أن نودي بعم المأمون. وهو المصغني الموسيقي الهاوي ابراهيم بن المهدي، خليفة ولقبوه «بالمبارك».

وتمكن ابراهيم من الاستيلاء علي الكوفة مركز العلويين إذ أن هؤلاء في جانبهم لم يرفضوا عن البيعة لعلي بن موسى ثلثاً بعد المأمون إلا أن تكون البيعة لرضا فقط. واستولي كذلك علي السواد جميعه، ثم أخذ قصر ابن هيبيرة بفضل اختلاف بعض القواد الحسن بن سهل «١٠ اربيع» وسير ابراهيم جنوده الي واسط حيث كان عسكر الحسن متحصنين ولكنهم انهزموا. وفي بغداد نفسها قبض ابراهيم علي سهل بن سلامة الذي كان يدعو علي رأس رجاله الي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «كان قائده عيسي بن محمد بن ابي خالد يسميهم القساق» فعاقبه وحبسه. وعندئذ عرف المأمون أن بغداد لا تستطيع ان تعيش بدون خليفة، كما رأي عدم جدوي ولاية

العلوي للعهد فقرر ان يعمل شخصيا . والظاهر ان وزيره امده بمعلومات خاطئة عن الموقف بالعراق وأن مهره المطالبي هو الذي اوضح له الامر «ابنا سهل اخفي عنه بيعة ابراهيم» .

وكان هناك خطر جديد يهدده في المشرق، فالحركات المذهبية التي بدأت بتعاليم ابي مسلم، والتي تابعه فيها المقنع عن تناسخ الارواح والحلول الالهية كانت قد انتشرت في اذربيجان بفضل من يسمي بابك الذي اكتسب كثير من الاتباع، والذي ربما بلغت قوته الي حد فصل الولايات الايرانية عن الغرب لو قدر لحركته ان تتسع الي أكثر من ذلك . فهم المأمون اذن خطورة الموقف وترك مرو وسار الي بغداد . ولحين حظه تمكن من الخروج من المازق الذي دبره هو نفسه . ففي الطريق تحدث مأسا شتهر بها التاريخ العباسي اذ يفتال الفضل بن سهل، ذو الرئاستين بسرخس- بتدبير من الخليفة علي ماتدل الطواهر . واتجه المأمون نحو طوس لزيارة قبر والده والتبرك بالصلاة عليه . وفي طوس مات مهره العلوي مصابا بسوء هضم كما يقال «أكل عنبه وكان يحب العنب»، ولكن من المحتمل انه مات مسموما «اين الاثير لايعتقد في ذلك»، ودفن الي جانب قبر هارون ولماكان العلويون سيعتبرونه شهيدا في القريب العاجل، بنيت حول قبره مدينة جديدة سميت المشهد الرضوي "او مشهد" التي محت نهائيا مدينة طوس القديمة، والتي تمثل الان اكبر عتبات الشيعة المقدمة الي جانب كربلاء .

ولما كان أخو الوزير وهو الحسن بن سهل بمنطقة واسط، وكان غريباً بالنسبة للعراقيين فإنه سيجن بعد قليل ، كما يقال وبسجن بهذه الحجة وبناء علي ذلك فإن أهل بغداد بدأوا يهجرون المطالب بالخلافة «ابراهيم بن المهدي» الذي اضطر الي الاختفاء، بعد أن تسلسل قواده الي قواد المأمون ونشل محاولاته للاحتفاظ بمركزه «في ١٦ ذي الحجة سنة ٢٠٣هـ» كما اختفي الفضل بن الربيع ايضاً ثم انه تحول الي قائد المأمون وسمحوا للمأمون بدخول بغداد .

عودة المأمون الي بغداد:

دخل المأمون بغداد في صفر سنة ٢٠٤ هـ / أغسطس ٨١٩ م وبصحبه طاهر بن الحسين الذي كان المأمون قد استدعاه من الرقة «للقدوم عليه بالنهر» وكان المأمون يتخذ لون العلويين الأخضر شعاراً له، ولكنه لن يلبث ان يغيره العباسيين الأسود . «حسب نصيحة طاهر الذي اصبح رئيس شرطة بغداد، وعامل خراج السواد» . عمل المأمون علي تهدئة العراقيين بان خفف الاعباء المالية عن أهل السواد بعض الشيء «وهي نفس السياسة المالية التي اتخذها عند ما اعتصم بخراسان أول أمره فقد امر بمقاسمة أهل السواد علي الخمسين وكانوا يقاسمون علي النصف» .

طاهر إلى خراسان:

وفي السنة التالية سنة ٢٠٥ هـ سار طاهر الي خراسان بأمر

الخليفة الذي ولاه علي المشرق من مدينة السلام الي اقصي عمل المشرق . اذ كانت الاحوال تنقلب بالاضطراب والفتنة هناك . وبعد قليل من الوقت اصبح السيد ائذي لا ينازع للولاية جميعا . وولاية طاهر لخراسان بفضل تدبيره هو نفسه ، وذلك ان صديقه احمد بن ابي خالد «الوزير» اثار شكوك المأمون حول مقدرة والي خراسان غسان بن عباد «ابن عم الحسن بن سهل منافس طاهر» ، فقال : "اخاف ان تخرج فيه خارقة من الترك فتهلكه" وربما كان احمد ابن ابي خالد مغرضا ، فعندما توجه الي خراسان في أيام طلحة بن طاهر ليقوم بأمره وهب له طلحة ٣ آلاف درهم وعروضا بالفي الف درهم وذهب لابراهيم بن العباس كاتب احمد ٥٠٠ الف درهم . وبعد مسير طاهر الي المشرق حل ابنه عبد الله بن طاهر الذي خلفه في قتال نصر بن شبيب بالركة محلة ببغداد كصاحب الشرطة كما ولاه المأمون من الرقة الي مصر وكذلك الجزيرة .

وبعد قليل سيشعر طاهر بقوته حتي انه في سنة ٢٠٧-٨١٢م سمح لنفسه باهمال ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة . ورغم أن هذا الاهمال او السكوت كان معناه العصيان المكشوف او اعلان الاستقلال عن الخلافة ومع ان الشكوك قالت عن طاهر الذي توفي عقب ذلك مباشرة أنه مات مسموما بتدبير من الخليفة ، الا أن المأمون عين ابن طلحة واليا لخراسان وسيظل احفاد

طاهر محتفظين بهذا المركز حوالي قرن - بينما شغل افراد الاسرة وظائف مهمة في الغرب منها شرطة بغداد . وهكذا فقدت الدولة حقيقة ولايتها الشرقية المتطرفة . كما سبق ان فقدت الولاية الغربية [ولاية الاغالبه] .

حلب والموصل

ورغم عودة المأمون الي بغداد فان الولايات المختلفة كانت قد تعودت علي الاضطراب، وسيودي عبد الله بن طاهر خدمات عظيمة للدولة فيما يختص بادارة الولايات الغربية . وفي منطقة حلب حيث كان نصر بن شيث وهو تابع الامين المخلص والمتعصب للعرب قد رفض طاعة المأمون وغلب علي الجهة، فان طاهر قام بمحاربته، ولكنه لم يستطع قهره الاسنة ٢٠٩ هـ ٨٢٥ وسيرباين شيث الي بغداد .

وانتهز أحد العباسيين من أتباع ابراهيم بن المهدي وهو المدعو "ابن عائشة" هذه الفرصة ودبر القيام بانقلاب في العاصمة، ولكن كشف أمره وكان جزاؤه القتل والصلب بعد الضرب والحبس «وهو أول عباسي صلب في الاسلام» وفي نفس هذه السنة «٥٣١ هـ» قبض علي ابراهيم بن المهدي نفسه «وكان متنقبا في زي امرأة» ولكنه تمكن من نيل صفع المأمون وعلوه .

أما عن منطقة الموصل فكانت مضطربة كالعهد بها . إذ قامت الحرب بين واليها السيد بن انس وبين علي بن صدقة المعروف بزريق^(١) والي ارمية واذريجان وانتهت بقتل ابن انس سنة ٢١١ هـ . وفي السنة التالية ارسل المأمون احد قواده «محمد بن حميد الطوسي» لحرب بابك وامره في نفس الوقت ان يصلح امر الموصل فتمكن من هزيمة زريق وأرسله للخليفة «وأصبح هو واليا للموصل» .

الحالة في مصر:

أما عن مصر فانها عرفت الاضطراب هي أيضا علي عهد المأمون، وكان علي عبد الله بن طاهر اقامة الأمن واتباب النظام بها . إذ ثار النزاع القديم بين عرب الجنوب وعرب الشمال بمناسبة النزاع بين الأخوين: فانهم القيسيون للأمين واخذ الكلبيون جانب المأمون . وتحققت وحدة الامبراطورية من جديد ولكن مصر ظلت مضطربة حتي اضطر المأمون نفسه الي القدوم اليها سنة ٢١٦ هـ . ففي سنة ٢١٠ هـ وبعد أن تخلص عبدالله بن طاهر من نصر بن شيث سار نحو مصر وكان قد تغلب عليها عبد الله بن سري . تمكن هذا الرجل من مقاومة القائد الذي ارسله عبدالله بن طاهر . ولكن عندما توجه ابن طاهر نحو العاصمة المصرية انهزم ابن سري ودخل المدينة واعتصم بها . ولكن ابن طاهر شدد عليه الحصار حتي استسلم وحمل الي بغداد . ولكن حدث في نفس الوقت ان غزا من

(١) زريق ازدي مثل ابن انس وهو موصل في الاصل، وكان قد تغلب علي المنطقة ما بين الموصل واذريجان .

الاندلسيين « ١١٥ الف رجل » الذين نفاهم الحكم صاحب الاندلس الاموي الاسكندرية واستولوا عليها وأثاروا الاضطراب من جديد . ولكن عبدالله تمكن بعد قليل من ارغامهم علي الانسحاب الي جزيرة كريت وتسيير دولاب الادارة من جديد « ههنا الحادث يدل علي مايشبه الوحدة الاسلامية في البحر المتوسط ايام الاضمحلال البيزنطي - سيطر الاندلسيون بكريت حتي يطردوهم البيزنطيون منها سنة ٩٦١م » .

وعاد عبد الله بن طاهر الي بغداد فاستقبله المأمون وأهل المدينة استقبال الفاتحين . وبعد موت اخيه طلحة سنة ٢١٣هـ تمكن من وضع يده علي ممتلكات الطاهريين الوراثة في خراسان « قيل انه ولي خراسان بعد ابيه ولكنه كان قد عهد بها الي اخيه طلحة » وقام ولي العهد ابو اسحق المعتصم بامره مصر ولكنه اظهر عدم كفاءة اذ وثبت العصبيات العربية من قيسية ويمنية بواليه وقتلوه « ربيع اول سنة ٢١٤هـ » فاضطر الي السير بنفسه وقاتل الثوار وقمعهم بالقوة . ولكن الاضطرابات عادت من جديد « واشترك القبط في الثورة » حتي اضطر المأمون نفسه الي المسير من دمشق الي مصر في اواخر سنة ٢١٦ هـ كما قدم القائد التركي الافشين اليها من برقة . واقام المأمون بمصر سنة ٢١٧هـ حتي هدأت الاحوال « اذ طفر الافشين بأهل الدراما وقتل عبدوس الفهري الذي كان قد وثب بعمال المعتصم » وقبل أن المأمون هو الذي امر بحفر التلعة التي في الهرم الاكبر .

وعن اليمن، فقد قامت بها ثورة علوية، فرغم المعاملة الخاصة التي حابي المأمون بها الطالبين، دعا عبدالرحمن بن احمد العلوي لنفسه بالخلافة هناك سنة ٢٠٧ هـ «لرضا من ال محمد» منتهزا تدمير اهل البلاد من العمال. ولكن ما أن وجه المأمون احد قواده «دينار بن عبد الله» الي هناك وخير الطالبين بين امان الخليفة والحرب حتي اعلن الثائر الطاعة فاقتيد الي المأمون.

وكان لهذه الثورة اثرها في نفس المأمون فامر بمنع الطالبين من الدخول عليه، كما منعهم من ارتداء لونهم الاخضر وامرهم بلبس السواد، وبدأ يكون حذرا بعض الشيء في معاملته لهم، حريضا علي تعقب ابناءهم. فهو عندما تصله شائعات انكرها عن ميل عبد الله بن طاهر الي العلويين لابتورع عن أن يدس عليه رجلا يتظاهر بالدعوة للعلويين حتي يتأكد من صحة رايه في ابن طاهر.

ولكن لم يكن هذا تغييرا جوهريا في سياسته ازانهم فهو دائم العطف عليهم والمحابة لهم يفعل ذلك طبعا لا تكلفا، كما تقول النصوص فهو في نفس السنة ٢١١ هـ ينادي بالخط من شأن معاوية - عدو علي اللدود - ويلعن من ذكره بخير أوفضله علي احد من اصحاب النبي. وفي السنة التالية ٢١٢ هـ يعلن تفضيل عن بن ابي طالب علي جميع الصحابة. وكما أنه قبل أن يموت في وصيته لاخته المعتمد علي احسان صحبة بني عمه اولاد امير المؤمنين علي

والتجاذز علي مسيلهم.

بداية بابك الخرمي:

هذه الاضطرابات التي حلت بمختلف الولايات لم يكن لها خطورة الحركة المذهبية الخطيرة التي ترأسها بابك باذريجان. هذه الحركة التي ظهرت سنة ١٩٢هـ في اواخر ايام الرشيد، بداها رجل يسمى جاويدان بن سهل وستظل تقوي وتشتد طيلة عهدي الامين والمامون حتي تصبح خطراً داهماً علي عهد المعتصم الذي سيتمكن بفضل قواد الترك من التغلب علي الثوار. ولاشك في ان الانقسام الذي اضعف الدولة أيام الامين والاضطرابات التي تلت موته كان من الاسباب التي مكنت الثوار من الاعتصام بجهتهم ومقاومة الحملات الضعيفة التي كانت توجهها لهم الحكومة المركزية والحقيقة أنه لو قدر للرشيد أن يعيش بعض الوقت لقضي علي الحركة في مهدها. اذ أنه في نفس السنة التي بدأت فيها الحركة «١٩٢هـ» وجه اليهم قائدا علي رأس ١٠ الاف رجل فنكل بهم. وكان الرشيد حازماً ازاء الثوار فامر بقتل اسراهم وبيع سباياهم وطلت الحركة ضعيفة حتي سنة ٢٠١هـ حين ظهر علي رأسها رجل صعب المراس هو بابك الخرمي الذي اظهر الي جانب كونه داعياً سياسياً ودينياً كفاءة عسكرية ممتازة فدوخ الجيوش تلو الجيوش.

ففي سنة ٢٠٤هـ كانت الحرب سجلاً بينه وبين قائد الخلافة

يحيى بن معاذ . وفي سنة ٢٠٦ هـ هزم عيسى بن محمد بن ابي خاك، وفي سنة ٢٠٩ هـ هولي، الهمون زريق وهو علي بن صدقة علي، ارمينية واذريجان وأمره بحرب بابك، ولكن هذا اكتفي بان اشار الاضطراب في الموصل والجزيرة كما رأينا وارسل الهمون قائدا اخر [هو محمد بن حميد] فتك بزريق وتوجه الي اذريجان لملاقاة بابك . وتوغل ابن حميد في البلاد الجبلية نحو معقل الثوار متخذا الحيلة في سلوك الدروب والمفاوز وحراستها، ولكن فاجأته قوات بابك في مضائق الجبال من كل وجه فانهزم الجيش وقتل ابن حميد وظل الثائر معتصما بجبال اذريجان حتي وفاة الهمون سنة ٢١٨ هـ .

الي جانب الثورة المذهبية المسلحة هذه، عرف مركز الدولة حركة دينية اشبه ما تكون بحركة الزنادقة علي عهد المهدي، وهي التي تسميها بمحنة خلق القرآن . اذ اهتم الهمون بالمسائل الدينية . وتدخل في الجدل بين المعتزلة واهل السنة . ومع ان العامة لم تهتم كثيرا بمسألة القضاء والقدر الا انها اهتمت اهتماما بالغا بمشكلة خلق القرآن، اذ اعتنق الهمون رأي المعتزلة في أن القرآن مخلوق وأظهر ذلك سنة ٢١٢ هـ وبدأ يجبر القضاة والفقهاء والائمة علي اعلان "خلق القرآن" واتخذ اجراءات شاذة ضد من لم يعتنق هذه الفكرة فترك الاستعانة به وربما ذهب الي ابعد من ذلك لعاقبه .

وكان الهدف من هذه الحركة مزدوجا كما هي العادة . فالخليفة
الي جانب اهتمامه بالحياة الروحية لشعبه ورغبته في شغل رعيته
بهذه المسألة واكتساب محبة الرعية ايضا، كان يعمل علي أن تكون
هذه المشكلة الدينية وسيلة لأن يتخلص «من أعدائه السياسيين ممن
لا يدينون بهذه الفكرة» وعرف المأمون كيف يربط بين الجهاد في
سبيل الله ضد بيزنطة وبين هذه الحركة الدينية . فهو يهتم بها
اهتماما جديا في اواخر ايامه اثناء وجوده سنة ٢١٨ هـ في
شغور الروم، تماما كما حدث ايام المهدي من اهتمامه بامر الزنادقة
اثناء توجهه لحرب الروم . فهو يكتب الي بغداد في امتحان
الفقهاء والقضاة وطلب انقلاد بعضهم اليه ليمتحنهم شخصا .

ومن المهم متابعة استجابات هؤلاء الاشخاص المهرة الذين
يبحثون عن أجوبة لاتجرح ضمائرهم ولا تضر بمبادئهم فعندما سئل
بشر بن الوليد عن رايه في القرآن قال: قد عرف مقالتي امير
المؤمنين غير مرة- فلما قيل له قد تجدد كتاب امير المؤمنين
قال: اقول القرآن كلام الله، وعندما رد عليه بأنه لم يسأل عن هذا
وانما المطلوب معرفة ما اذا كان القرآن مخلوقا قال: الله خلق كل
شيء "قبل له" فما القرآن شيء فقال "نعم" قبل له "فمخلوق شيء"
قال "ليس بخالق" .

ولما سئل احمد بن حنبل، ماتقوله في القرآن قال كلام الله
قيل له "مخلوق هو" كلام الله ما ازيد عليها، فامتحن .

وكتب اسحق بن ابراهيم ((المتحن - خليفة المأمون ببغداد)) مقالات القوم واحدا واحدا وارسلها الي المأمون فاجاب بان ذمهم . ولكنه كتب اليه ان يمتحن بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدي ((المدعي الخلافة ببغداد سابقا)) وامره ان يضرب عنقهما ان لم يجيبا، أما عن سواهما فيحملون الي معسكره موثقين بالحديد .
فعلا شد احمد بن حنبل في الحديد ومعد اخر ((محمد بن نوح)) ووجهها الي طرسوس في انتظار عودة المأمون من ارض بيزنطة الا ان خبر موت المأمون وصلهم وهم بالركة ، فعادوا الي بغداد .

الحرب مع الروم:

أما عن سياسة المأمون ازاء بيزنطة فرغم أنه لم يكن معتادا قيادة الحملات العسكرية شخصا الا انه اضطر في اخر ايامه الي القيام بالعمليات الحربية بنفسه ضد امبراطورية القسطنطينية . فبعد انقطاع الغارات الاسلامية بمناسبة الصراع بين الامين والمأمون ربما كانت مساعدة البيزنطيين لبابك الذي ظل دائما يرفع رأيه العصيان بالذربيجان والذي ازداد خطره اخيرا سببا في ان يقوم بغارة كبيرة علي آسيا الصغرى سنة ٢١٥ - ٨٣٠ م وخلال ٣ سنوات متتالية استمر الخليفة في الاشتراك في الصوائف .

ففي أول سنة ٢١٥ هـ توجه علي رأس حملة كبيرة الي

ثغور الروم واستصحب منه ابنه العباس، كما استدعي اخاه المعتصم من مصر، والتقي به هذا الاخير قرب الموصل، ومن الموصل اتجه الي منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم المصيصة وطرسوس. ومن طرسوس دخل الي الاراضي البيزنطية في جهادي الاول هذه الغارة عمت كثيرا من نواحي اسيا الصغرى. فالعباس دخل من جهة ملطية يخرب ويدمر وفتح المأمون حصن ماجدة بالامان ثم حصن قرة عنوة وهدمه. ووجه القائد التركي اشناس الي حصن سندس ووجه قائدين اخرين الي حصن سنان، فخضع قائد الحصنين لشروط المسلمين. وعندما حل الشتاء عاد المأمون الي الشام (دمشق).

ولما تحسنت الاحوال الجوية في السنة التالية ٢١٦ هـ رجع المأمون الي ارض الاعداء وكان الامبراطور قد قام باعمال انتقامية ضد طرسوس والمصيصة وتمكن المسلمون من الاستيلاء علي عدد كبير من الحصون (٣٠) حصنا افتتحها المعتصم لاسيما هرقله التي خرج اهلها عنها بعد ان اخذوا الامان وكذلك معلورة. واستمرت المأثرة ٤ اشهر (جهادي الاول - ١٤ شعبان) ثم عاد المأمون من جديد الي الشام.

وفي سنة ٢١٧ هـ حاصر الخليفة اكبر الحصون البيزنطية علي الحدود وهو حصن لؤلؤة طوال المأثرة تقريبا (١٠٠ يوم) ثم

رحل عنه تاركاً أحد قواد «عجيف» علي حصاره واضطر الباسليوس تيوفيل .

الي طلب السلام بعد سقوط الحصن ملحا «ارسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك» .

وفي سنة ٢١٨ هـ سيعود المأمون الي ارض شغور الروم ويوجه ابنه العباس الي طوانة ليحصنها بالحاميات ، وتم بناء الحصن فعلا وارسل الي البلدان في طلب المقاتلة للحصن واجري لهم العطاء السخي «الفارس ١٠٠ درهم والراجل ٤٠ درهما» ولو ان هذا لم يتم ففي هذه الاثناء عرض المأمون مرضه الذي مات فيه اذ فاجاته المنية قرب طرسوس حيث دفن .

الفصل الحادى عشر

التشريع

التشريع

تركنا التشريع في العصر الأموي، وأظهر مميزات انقسامه إلى قسمين: أهل الرأي، وأهل الحديث، وقد تجلي ذلك أكبر جلاء في آخر العهد الأموي، وأول العهد العباسي، وزاد الخلف بين الطائفتين، وتميزتا علي مرور الزمان، وأصبحت أعلام كل مدرسة من المدرستين جلية واضحة مغيرة لأعلام الأخرى في الشارة واللون وما إلى ذلك، ويجمل أعلام مدرسة الحديث الحجازيون، وخاصة الدينيين، وعلي رأسهم مالك بن أنس وتلاميذه، ويحمل أعلام مدرسة الرأي العراقيون وخاصة الكوفيين، وعلي رأسهم أبو حنيفة النعمان.

ولمخر العراقيون بأنه قد نزل بين أظهرهم أعلام من الصحابة، كعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وأبي موسى الأشعري وغيرهم. وقال الحجازيون أن من تفرق من الصحابة في الأمصار أقل عدداً ممن في الحجاز فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من حنين ترك بالمدينة نحو اثني عشر ألف صحابي، مات بها نحو عشرة آلاف، وتفرق في سائر الأقطار نحو ألفين.

وفي الواقع إذا حصرنا نظرنا في الحديث، وجدنا الأولوية للحجازيين، فأكثر الصحابة كانوا بالمدينة، وهم أعرف الناس بحديث رسول الله، وأخبر بقوله وعمله حتي من رحل منهم إلى العراق وسائر الأمصار فإنها كانوا غارية من الحجاز. وقد خلف هؤلاء - كعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود - الحديث في المدينة كما خلفوه في

العراق، ففضل الحجازيين في هذا لا ينكر، ولهذا اذا تجادل الحجازيون والعراقيين في هذا الباب كان الحجازيون أقوى وأقهر، بل عابوا علي العراقيين أنهم يتزايدون في الحديث الصحيح، ويكثرون من الحديث الموضوع. قال مالك: "اذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته"، وكان مالك يسمي الكوفة "دار الضرب" يعني أنها تصنع الأحاديث وتضعها، كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير، وقال ابن شهاب: "يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود في العراق ذراعاً".

وسبب ذلك أن حديث رسول الله بدأ وختم في الحجاز، والمعتصمين لرسول الله كثيرون، ومن العسير الكذب في حادثة شاهدها الكثير، أو في قول سمعه الجهم الغفير وليس الشأن كذلك في العراق، فبعده عن الحجاز يجعل اصطناع القول ممكناً. هذا إلي أن اغلظ المسلمين من الأمم المختلفة كانوا في العراق أكثر منهم في الحجاز وفيهم من لم يصل الايمان إلي أعماق نفسه فلا يتخرج من اختلاق حديث أو رواية خبر غير صحيح، مادام ذلك يعلي شأنه ويؤيد دعواه، وعامل آخر، وهو ظهور المذاهب المختلفة في العراق، من معتزلة ومرجلة وأصناف من المتكلمين، وليس يجاريهم في ذلك أهل الحجاز، لبساطة أهل في الحياة والعقيدة، وفي كل صنف من هؤلاء من رأي أن يؤيد حجة ورأيه بتأويل آيات القرآن واختلاق الحديث كما أسلفنا.

علي أن الحجازيين وان بزوا العراقيين في الحديث، فقد بزهم العراقيون في الرأي، وهو ما يسمي "القياس"، وكان ذلك طبيعياً أيضاً، لأن الأحداث تتبع في كثرتها وقلتها المدنية، فإذا كانت

معيشة قوم ساذجة بسيطة؛ كما هو الشأن في الحجاز كانت مسائلها الاقتصادية والجناية وأحوال الأسرة ساذجة بسيطة وأن تعقدت الحياة وعظمت المدينة كما هو الشأن في العراق؛ تعقدت الأحداث الاقتصادية والجناية والاجتماعية وتنوعت، وكل هذه الأحداث تحتاج إلى تشريع وأحاديث رسول الله [ص] التي كانت معروفة بالحجاز تكفي بنمها على وجه التقريب للالتاء بما يقع في الحجاز من أحداث، للشبه الكبير بين عهد مالك وعهد النبي [ص]، وليس كذلك الشأن في أحداث العراق، فهي كثيرة معقدة، متنوعة . بالعراق دجلة والفرات وما يتطلب ذلك من ري وخراج ليس مثلها في الحجاز، وفي العراق مال وفير يصب صبا، والمال يتبعه الترف والنعيم، واللهو والأجرام، وخلق مشاكل تحتاج إلى فتاوى ليس مثلها في الحجاز، وبالعراق اخلاط من فرس وبوم ونبط وغير ذلك لهم عادات اقتصادية واجتماعية وليس مثلها في الحجاز فلئن كفي الحديث في الحجاز وحاجتهم قليلة وحديثهم كثير، فليس في العراق وحاجتهم كثير وحديثهم قليل - لذلك اضطروا إلى أعمال الرأي فيما لم يرد فيه نص، والتوسع في النص بالوضع - ورأينا النزاع يشتد حول القياس وجوازه وعدم جوازه، وكانت معركة كبيرة نجمل أمرها فيما يلي:

لعب القياس دوراً كبيراً في العصر العباسي، وشغل حيزاً كبيراً من العلوم، فالقياس في أصول الفقه، وفي الفقه، وفي اللغة، وفي النحو، وفي المنطق، والذي يهمنا الآن منه في التشريع.

أصل القياس أن يعمل حكم في الشريعة لشيء فيُقاس عليه أمر آخر لاتحاد العلة فيهما، ولكنهم توسعوا في معناه أحياناً فأطلقوا على

النسب والبحث عن الدليل في حتم مسألة عرضت لم يرد فيها نص، وأحياناً يطلقونه علي الاجتهاد فيما لانس فيه. وبعبارة أخرى جعلوه مرادفاً للرأي، ويعنون بالرأي وبالقياس بهذا المعني أن النقيه من طول ممارسته للأحكام الشرعية تنطبع في نفسه وجهة الشريعة في النظر الي الأشياء، وتمرن ملكاته علي تعرف العلل والأسباب، فيستطيع اذا عرض عليه أمر لم يرد فيه نص أن يري فيه رأياً قانونياً متأثراً بجو الشريعة التي ينتمي اليها، وبأصولها وقواعدها التي انطبعت فيه من طول مزاولتها، ومن أجل ذلك ذموا الرأي الذي يصدر ممن ليس أهلاً للاجتهاد، والرأي الذي لاتسده أصول الدين، وهذا الرأي أو القياس كان مثاراً للنزاع بين العلماء منذ العصر الأموي كما أبنا ذلك في فجر الاسلام حتي بين اصحابهم فمنهم من كان يتشدد فلا يفتي الا بما ورد فيه نص من كتاب أو حديث كعبد الله بن عمر، ومنهم من كان يبدي الرأي فيما يعرض من الحوادث التي لم يرد فيها نص، كعمر وعبد الله ابن مسعود وغيرهما، وروي في ذلك الشيء الكثير. واستمر النزاع بين النزعتين يقوي ويشدد الي العصر العباسي، وأصبحت رئاسة أهل الرأي لفقهاء الكوفة، وأهل الحديث لأهل المدينة، وفي الواقع لم يخل امام من الأئمة - سواء كان من أهل الرأي أم الحديث - من القول بالرأي، وهو مضطر الي ذلك لأن التقدم في المدينة يخلق كل يوم حوادث جديدة تحتاج لفتوي الفقهاء، ولا يعد فقيهاً حتي يفتي فيها ولكن الفقهاء اختلفوا درجات متفاوتة في مقدار الأخذ بالرأي والاعتماد عليه، فمنهم من ضيق أمره، ومنهم من توسع، ومنهم من توسط كما سيأتي بيانه، وكان هذا من أهم الأصول التي خالفت بين الأئمة في التشريع.

وبينما نرى الخلاف بين الأئمة في الرأي في هذا النحو، نرى مسألة أخرى تثار، لها اتصال كبير علي ما يظهر لي بمسألة الرأي والقياس، هي "مسألة التحسين والتقيح العقلين"، وهي مسألة اثارها المعتزلة، ومدارها هو: هل في الأفعال صفات من حسن أو قبيح جعلت الشارع يأمر بها، أو ينهي عنها؟ فلو لا ما في الصدق من صفة لها أمر به، ولو لا ما في الكذب من صفة لها نهي عنه؟ أو أن الشارع يأمره بالصدق جعله حسناً، وينهيه عن الكذب جعله قبيحاً ولو شاء لعكس، هذه مسألة عاصرت القياس والرأي، وفي نظري أنهما مسألتان متساندتان، فمن كان يرى أن في الأفعال صفات من أجلها أمر بها الشارع أو نهي، قال: أن هذه الصفات يمكن ادراكها بالعقل، ولذلك يكون الرأي في امكانه كشف هذه الصفات وتعرفها واصدار حكم فيها، وذلك يجعل له حرية كبيرة في التشريع. ومن قال بعدم الصفات اللاتية، وأن أمر الشارع هو الذي يحسن ويقيح، كان من الطبيعي أن يقف في اجتهاده علي النص، وكل ما يستطيع في الاجتهاد أن يلحق الشبيه بشبيهه، وطبيعي أن يذهب الحنفية إلي الرأي الأول، وأن العقل يستطيع ادراك ما في الشيء من صفات حسن أو قبح، وأن الانسان لو لم تبلغه دعوة فلا عذر له في الجهل بخالقه لدلالة العقل عليه، وهو ملزم بفعل الحسنات وترك السيئات لأن العقل يرشد الي ذلك، وأصبحت هذه المسألة من مسائل أصول الفقه.

وأخذت المسألة دوراً كبيراً في الجدل بين أصحاب الرأيين فيقول - مثلاً أحد الفريقين، وهو المذكر للتحسين والتقيح العقلين: أنا نرى الشريعة قد فرقت بين المتماثلين وجمعت بين المختلفين، ولو كان الأمر بالعقل لجمع بين المتماثلين وفرق بين المختلفين، فالشارع أوجب

قضاء السرم علي الحائض دون الدالاء، من أن الصلاد أولي بالمتنظة.
عليها، وحرم النضر الي العجوز الشوهاء القبيحة المنظر إذا كانت
حرة، وجوزه الي الشابة البارعة الجمال اذا كانت أمة وأكتفي في
القتل بشاهدين دون الزنا، وحرم المطلقة ثلاثا علي الزوج المطلق ثم
أباحها له اذا تزوجت بغيره، وحالها في الموضعين واحدة، وأباح للرجل
أن يتزوج أربعاء، ولم يبح للمرأة الا رجلا واحدا، مع قوة الدواعي من
الجانبين وقطع يد السارق لكونها آلة المعصية، فأذهب العضو الذي
تعدي به علي الناس، ولم يقطع اللسان الذي يقذف به المحصنات، ولا
العضو الذي يزني به، وأوجب الزكاه في خمس من الابل، وأسقطها عن
عدة آلاف من الخيل الخ. الخ. فلو كان الأمر بالعقل لكان الحكم غير
هذا، فكيف نترك الحكم للرأي، وكيف نقول بالحسن والقبح العقليين؟

وقد رد عليهم الآخرون ردوداً طويلة مجملة ومفصلة، وأبدت فيها
آراء مختلفة في عصور مختلفة، ومن هؤلاء من توسط فجعل للعقل
سلطان ومقدرة علي المعرفة في غير العبادات، أما العبادات فما لا
دخل للعقل فيها.

علي كل حال لو رسمنا دوائر تمثل المذاهب في استعمال الرأي
لكان أصغرها دائرة الظاهرية، ثم الحنابلة ثم المالكية، ثم الشافعية،
ثم الحنفية وقد اتخذ بعض أنواع الرأي أسماء خاصة، كالأستحسان،
والمصالح المرسله. فالأستحسان قد عرفوه تعريفات مختلفة، أقربها إلي
قهم أن يكون في المسألة شبه بمسألة أخرى ورد فيها نص، وكان من
مقتضي ذلك أن يقيس الفقيه هذه المسألة علي المسألة التي ورد فيها
النص، ولكنه لا يفعل ذلك ويترك هذا القياس الي تقدير المسألة

بـقتضي العدالة، فهو يبحث عن العدالة المطلقة في المسألة ويصدر
مراعاتها حكمها، وهذا - كما تري - أوغل في باب الرأي. وقد قال
بالاستحسان الحنفية، وأنكره الشافعية، وروي عن الشافعي في ذمة أنه
قال قال "من أستحسن فقد شرع".

وقريب من هذا مايسمي "الاستصلاح" أو "المصالح المرسلة" وذلك
أن الشارع - كما قالوا - يدور في تشريعه علي حفظ أمور خمسة
وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل والمال ولو استقرينا أوامر
الشرع ونواهيهِ لوجدنا علته كذلك، فإذا عرضت مسألة من المسائل لم
يرد فيها نص فيما يترتب علي الأمر من المصالح والمضار، وقدردنا ذلك
كله، وأمدرنا حكمنا بحله أو حرمة. وقد مثلوا لذلك بكفار تترسوا
بجماعة من أسري المسلمين، فلو كلفنا عنهم لقاتلوا وغلبوا علي دار
السلام وقتلوا المسلمين، ولو رمينا الترس لقتلنا مسلماً معصوماً لم
يذنب ذنباً، فقالوا أن المصلحة تقتضي القتال ولو قتل الترس، لأن
مقصود الشرع تقليل القتل، أو منعه عند الامكان، وفي مقاتلته الكفار
تحقيق لهذا، لأنه اذا لم يفعل قتلوا المسلمين ثم قتلوا الأسري،
فالأسير مقتول علي كل حال، وأقرب الطرق الي تقليل الثتلي هو
مقاتلة الأعداء ولو تترسوا بالمسلمين، فتري من هذا أنهم يعنون
بالاستصلاح أو بالمصالح المرسلة وزن مايعرض من المسائل بميزان
المصلحة العامة، أو بأغراض الشارع العامة، أو بالقواعد الأساسية التي
جاءت من أجلها الشرائع، وهو ضرب من الرأي أو مراعاة العدالة يدعو
إلي نوع من الحرية في التشريع.

والآن نستعرض في ايجاز المسلك الذي سلكه أهل الحديث،
والمسلك الذي سلكه أهل الرأي.

توفي رسول الله [ص] وخلف كتاب الله، وأحاديث حدث بها،
وأفعالا فعلها، وقد شاهد ذلك كله أصحابه وسمعوا منه، ومن الصحابة
من سمع بعض قوله دون البعض، ومن رأي بعض أفعاله دون البعض،
ثم تفرقوا في الأمصار عند الفتح، فمنهم من نزل العراق، ومنهم من
نزل الشام، ومنهم من نزل مصر، وكان كل جمع من الصحابة ينزل
مصرًا يروي ماسمع وما رأي من رسول الله، ولم يكن ذلك كله مدونًا،
أنما كانوا يقولونه شفاهة، وقليل منهم من يكتب. وظهر بعد ذلك
مصدرًا آخر، وهو أن كبار الصحابة وعلماءهم كانت تعرض عليهم بعض
الأحداث ممن لم يعرفوا فيها نصًا من كتاب ولا حديث، فيجتهد برأيه
ويقول فيها قولًا، وكان هذا القول فيما بعد يعد مستندًا من
مستندات التشريع، لأنه صدر عن صحابي كبير، عاشر النبي زمانًا
طويلاً، وعرف مناحي الشريعة ومجراها وأحيانًا يتبين أن هذا الرأي قد
صدر فيه حكم النبي، ولكن هذا الصحابي لم يعمل كالذي روي أن عبد
الله بن مسعود سئل عن امرأة مات عنها زوجها، وكان لم يعين لها
مهرًا، فقال: لم أر رسول الله يقضي في ذلك، فألحوا عليه فاجتهد
رأيه وقضى بأن لها مهرًا كالذي يقرض لمثلها، لاوكس ولا شطط،
وعليها العدة ولها الميراث، فقام معقل بن يسار فشهد بأن رسول الله
قضى في مثل هذه المرأة بمثل هذا الرأي، ففرح ابن مسعود فرحة لم
يفرح مثلها بعد الإسلام. وأحيانًا يظهر حديث يخالف رأي الصحابي
فيعدل عنه، كالذي روي أن أبهريرة كان يرى أن من أصبح جنبًا فلا

صوم له، حتي أخبرته بعض نساء النبي بغير ذلك فعدل عن قوله.

علي كل حال زادت مراجع التشريع مرجعاً وهو فتاوي الصحابة، وليس ماخالفه الصحابة قاصراً علي ما ذكرت، بل هناك أمراً آخر وهو أن الحديث قد يكون قد ثبت عن الرسول، ولكن اختلفت أنظار الصحابة في توجيهه وتفسيره وتأويله، أو أن الحديث قد نسخ بحديث آخر بلغ بعضهم ولم يبلغ البعض، مثال الأول ماروي أن رسول الله أسرع في الطواف مرة، فذهب كثيراً إلي أن الرمل في الطواف سنة، وقال ابن عباس ليس بسنة، أنها فعله النبي لسبب عارض، وهو أنه قد بلغه قول المشركين حطمتهم حمي يثرب، فأراد أن يظهر لهم بالأسراع القوة والنشاط، وليس بسنة؟ ومثال الثاني أن النبي رخص في نكاح المتعة عام خبير وعام أوطاس، ثم نهى عنها، فاختلفت الصحابة في ذلك وفي نسخة، وقد يثبت الحديث أيضاً ولكن يختلفون في علته، كالذي روي أن رسول الله قام للجنازة، فاختلفوا في تعليل ذلك، فقال قوم: ذلك لتعظيم الملائكة تحف بالميت، أو لهول الموت، فيعم الوقوف للميت والكافر، وقال قوم: أنها كانت ليهودي، فكرة أن تعلو فوق رأسه، فالقيام يخص الكافر الخ.

فلما جاء عصر التابعين زادت المصادر مصدراً علي النحو الماضي، فكان من كبار التابعين من له فتاوي في حوادث لم تكن في عهد النبي ولا الصحابة وكان لكل كبير من كبارهم آراء في تفسير بعض الآيات القرآنية، وآراء في تأويل الحديث وآراء في فتاوي الصحابة، كما كان لهم آراء في تقدير الصحابة وتقويمهم من الناحية الفقهية، فمن التابعين من يفضل أقوال عبد الله بن مسعود علي غيره، ومنهم من

يفضل آراء علي وابن عباس، الي غير ذلك، ويغلب أن هذا الترجيح يرجع الي البلد الذي فيه الصحابي والتابعي وتابع التابعي، فهو يتتلمذ للصحابة الذين كانوا في بلده، ويأخذ بقولهم، يفضل روايتهم.

وجاء بعد التابعين طبقة أخرى تعمل عمل التابعين وهكذا، فعمر وعثمان وعبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس وزيد بن ثابت كانوا أئمة المدينة، وجاء بعدهم تلاميذهم، ومن أشهرهم سعيد بن المسيب، وسالم بن عبد الله بن عمر، ومن بعدهما الزهري، ويحيى بن سعيد، وربيعه الرأي ومن بعدهم مالك، لذلك كان مالك أعلم الناس بقضايا عمر وأقوال عبد الله بن عمر، وعائشة ومن ذكرنا، وكان عبد الله بن مسعود وعلي في الكوفة، ثم شريح والشعبي، ثم علقمة وإبراهيم النخعي، وتمت السلسلة الي ابي حنيفة. وتعصب كل قوم لسلسلتهم، فكان مالك ينهج منهج من ذكرنا من أعلم مدرسته، وأبو حنيفة كذلك، قال أبو حنيفة مرة لمناظره: " إبراهيم أفقه من سالم، ولولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفضل من بن عمر". وكما كان مالك أعلم الناس بأحاديث المدينة وقضايا علماء الصحابة المدنيين وتابعيهم وفتاويهم وآرائهم، وكان أبو حنيفة أعلم الناس بقضايا عبد الله ابن مسعود وعلي ابن أبي طالب، وغيرهما من صحابة العراق وفتاويهم، وآراء التابعين من الكوفيين. ولما جاء دور التدوين في العصر العباسي رأينا مالكا يجمع هذا الذي ذكرنا في كتابه الموطأ، والعلماء العراقيين يجمعون فتاوي أئمتهم ومشايخهم في الكتب.

ووجد كثير من علماء المدينة كسعيد بن المسيب والزهري يكرهون الرأي والقول به، ويهابون الفتيا ويعدونها محنة، وساعدتهم

علي تحقيق نزعتهم ما أشرنا اليه قبل من كثرة الحديث عندهم، وقلة الأحداث التي تعرض لهم. وحملتهم هذه النزعة ايضاً علي أن يرحلوا الي البلاد يجمعون الأحاديث التي لم يروها رجال المدينة، فمنهم من رحل الي العراق، ومنهم من رحل الي الشام ومصر، فإذا استقوتوا رجعوا الي الكتاب، فإن وجدوا فيه نصاً عملوا به، وإلا رجعوا إلي الحديث، فكذاك، وإن رأوا أحاديث مختلفة فاضلوا بينها بالراوي من حيث العلم والصدق، فإذا لم يجدوا حديثاً رجعوا الي أقوال الصحابة والتابعين فأخذوا بقولهم، فإن اختلف الصحابة والتابعون فاضلوا بين أقوالهم وخاصة أقوال أئمة بلادهم، فإن لم يكن شيء من ذلك رجعوا الي أصول الكتاب والسنة، فنظروا الي اشارتها ومقتضياتها لعلم يجدون مشبهاً لما عرض، أو يقع في أنفسهم حكمة للأمر أو النهي أو الحل والحرمة تنطبق علي هذه المسألة.

بجانب هؤلاء، كان قوم من أهل الرأي وخاصة في العراق، يتهيبون الحديث كما يتهيب الأولون الرأي، ويستعظمون "قال رسول" كما يستعظم الأولون "اجتهد رأيي" ولعل ذلك سببه أدراك مافي الأمر من صعوبة في اثبات نسبة الحديث الي رسول الله والاستيثاق من صحته. قال ابراهيم النخعي، وهو من علماء الكوفة أقول قال عبد الله [يعني بن مسعود] وقال علقمة أحب الينا من أجل ذلك قل الحديث عندهم، وكانوا أجراً علي الرأي، بل لم يقتصروا في الافتاء علي ما يقع من أحداث، وما أكثرها في العراق، بل تعدوا الي فرض القروض فلو قال رجل لأمراته أنت طالق نصف تطليقة أو ربع تطليقة فماذا يكون الحكم؟ ولو قال أنت طالق واحدة بعدها واحدة فماذا يكون الحكم؟ ونحو ذلك كان الأمر أصبح مرناً عقلياً كمسائل الحساب والجبر

والهندسة، ومرنوا علي ذلك مرناً عجيباً وخاصة أبا حنيفة كما سيأتي. فكان لهم قدرة فائقة علي قياس الأمر بأشباهه، واستخراج العلل والأسباب، ووجوه الفروق والموافقات، وقد اشتراكوا مع المدرسة الأولى في العمل بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، ولكنهم اختلفوا عنهم في أمور:

منها ذكرنا من قلة الحديث والمبالغة في اشتراط صحته، وعدم التحرج من الرأي كالذي أسلفنا، ومنها أن أهل العراق لهم مشايخهم ومحابتهم، ولأهل المدينة مشايخهم ومحابتهم، ومنها: أن أهل العراق فلسفوا الفقه بمسيرة المنطق، والتوسع في التعليل العقلي، والتوسع في الاستنباط، والدقة في استخراج وجوه الشبه ووجوه الفرق، وكان طريقتهم جمع ما روي عن جلة الصحابة والتابعين الذين نزلوا في العراق من الحديث والفتوي والاستنباط، ثم يحفظون ذلك فإذا عرضت لهم مسألة فإن ورد فيها شيء من الكتاب والسنة أفتوا به، وأن لم يكن فيها رأي من آراء مشيختهم نظروا فيه، وألا استنبطوا الحكم من علة لهذه الفتاوي أو إشارة أو إيماء، أو بحثوا عن حكم الحكم ثم عمموا الحكم في المسألة التي عرضت، أو ألوا علتين أو حكمتين، استنبطوا الحكم منهما، أو جدوا في طلب شبه لهذه الحادثة وقاسوها عليه، فإن لم يكن شيء من ذلك رجعوا إلي ما يكتسبه المجتهد من طول المزاولة وادمان النظر، مما يصح أن نسميه "الدوق القانوني" يري به وجه الحكم، وأي الأحكام أقرب إلي العدل، وأكثر تحقيقاً للمصلحة وقد سموا هذه الطرق في استخراج الأحكام "تخريجاً".

وقد كان في كل مدرسة غلاة متطرفون، كما كان فيها معتدلون،

فمن مدرسة الحديث من غالا فمنع القياس والقول بالرأي، وتصر نفسه علي الفتوي فيها ورد فيه نص من كتاب أو سنة، وهرب من المسائل التي بهم يجد فيها نصاً، ومنهم من اعتدل فأجاز العمل بالرأي في حدود معينة . ومن مدرسة الرأي من غالا حتي لم ير العمل بالحديث، لأن الأحاديث يعتورها الشك، فليس يسلم راو من غلط أو نسيان أو خطأ في حديثه، ومنهم من اعتدل فعلم به في حدود معينة، فإذا لم يستوف الشروط لجأ الي الرأي . وقد رأينا قبل أن ابن المقفع نقد حال المشرعين في زمانه، وقال أن منهم من زعم أنه التزم السنة، وقد غالا فيها سماه سنة ومنهم من غالا في استعمال الرأي حتي بلغ الاعتداد به أن يقول في الأمر الجسيم قولاً لا يوافقه عليه احد وتخلص من ذلك الي وجوب وضع قانون يضعه اولو الأمر يلزم به القضاة ويعمل به في الامصار .

ونحن اذا اردنا أن نسجل التغيرات التي طرأت علي التشريع في العهد العباسي استطعنا أن نسجل الطواهر الآتية :

١- أول ملاحظة أن الأمويين - اذا استثنيا عمر بن عبد العزيز - لم يكونوا يتصلون برجال التشريع ورجال الدين علي العموم اتصالاً وثيقاً، إلا في أحوال نادرة، كاتصال الزهري بهم، بل قصر الخلفاء انفسهم علي النواحي السياسية من قمع الثورات الداخلية والفتوحات الخارجية، وتنظيم شئون الدولة المالية وما إلي ذلك، وتركوا العلماء يدرسون ويفتون، وعينوا القضاء وتركوهم يقضون بمايرون، كان السياسة منفصلة عن الدين، وكان وظيفتهم سياسية بحتة، فلما ثارت الثورة علي الأمويين واستقر الأمر في يد

العباسيين، كان من أثرها صبغ الدولة صبغة دينية، ورأينا النزعة الدينية، عند الخلفاء العباسيين الأولين واضحة جلية، ورأينا اتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين أقوي وأبين، فأبو جعفر المنصور يقرب العلماء ويصلهم، والمهدي يشتد علي الزنادقة ويشي "أدارة" للبحث عنهم وتعذيبهم، والرشيد وأبو يوسف متالزمان، والعامون يصدر "مرسوماً" بخلق القرآن الكريم، ويقضي شطراً من خلافته في مناقشة العلماء في ذلك وتعذيب من أنكره، ويناقش في نكاح المتعة ويريد أن يصدر أمراً في شأنه، وهكذا مما لا نجد له مثيلاً في العهد الأموي. وعلي العنوم فقد أراد العباسيون ألا يكونوا سياسيين فحسب، بل سياسيين ودينيين معاً وكان من أثر ذلك أن جماعة من اعلام العلماء عذبهم العباسيين لأنهم أبوا أن يخضعوا لوجهة نظرهم، والخضوع لسلطانهم، كمالك وأبي حنيفة وسفيان الثوري، علي حين أنا نري الحسن البصري في العهد الأموي يجلس في المسجد الجامع ويتكلم في السياسة، ويستفتي في الخلفاء والأمراء فينقدهم في شدة، ثم لا يصيبه أذى. والذي يهمنا هنا هو الناحية التشريعية، فقد كان لاتجاه العباسيين هذا الاتجاه اثر بين في التشريع وهو صبغ أعمال الدولة كلها صبغة دينية. فنظام الري، ونظام الضرائب وحلر الترع وجباية الأموال، ونظام الدواوين، كلها مسائل دينية يؤلف فيها أبو يوسف القاضي كتابه الخراج، ويستفتي فيها الفقهاء، ويجتهدون فيها اجتهداً دينياً، وهكذا كل ما دق من الأمور وعظم، مرجعه فتوي المفتين وقضاء رجال الدين، وهذا من غير شك - يجعل مهمة الفقهاء واسعة النطاق.

٤- ويتصل بهذا الأمر ان الفقه في العصر العباسي تضخم ونما
 نموا كبيرا، وسبب هذا امور ، منها : ما أشرنا اليه قبل من عمل
 العباسيين في صيغ الأمور كلها صبغة دينية، ومنها أن طبيعة النظام
 الذي جري عليه الفقهاء تجعل المأثور يتزايد مع الزمن، فبعد أن كان
 في عهد الصحابة المأثور هو حديث رسول الله، أصبح في عهد
 التابعين المأثور أقوال الرسول وكبار الصحابة، وفي عهد تابعي
 التابعين المأثور هذا وقول التابعين وهكذا . فكلما جاء جيل ورث عن
 قبل آراء المجتهدين، وفتوي المفتين، وقضاء القضاة، وسبب ثالث
 وهو أن مدرسة الرأي لم تكتف بما يحدث من أحداث بل كأنها فرحت
 بما لديها من وسائل الاجتهاد وأدوات القياس، والقدرة علي "التخريج"
 لأبحاث اشارة المسائل الفرضية، وتبدي فيها رأيها، وتستعمل قياسها
 حتي فرضوا المستحيل والبعيد الوقوع، وأكثروا الفروض في أبواب
 الرقيق والطلاق والايمان والذر وكثرة لاحد لها، وبدأ بذلك
 العراقيون . ثم تبعهم فيما بعد الشافعية والمالكية ومن اسباب
 التضخم أن المملكة الاسلامية أصبحت في صدر الدولة العباسية بعيدة
 الأطراف، تضم بين جوانبها أمما مختلفة لكل أمة عادات اجتماعية،
 وعادات قانونية، وطرق في المعاملات، ولكل أمة دين له تقاليد، فلما
 دخلت هذه الامم في الاسلام واستقرت الأمور في العهد العباسي،
 وصبغت الأمور كلها صبغة دينية، وتفرق الأئمة في الامصار عرضت
 هذه العادات والتقاليد علي الأئمة، فعرضت أمور العراق علي ابي
 حنيفة وأمثاله، وفيها العادات الفارسية والعادات النبطية وغيرها،

وفيهما نظم القضاء الروماني، وما كان يجري في المعاملات وطريقة التقاضي، وعرضت أمور مصر علي الليث بن سعد والشافعي وأقرانهما، وفيها العادات المصرية والرومانية كذلك، ونحو هذا، فكان من عمل هؤلاء الأئمة "تسليم" هذه العوائد والتقاليد، أعني النظر إليها بالقواعد العامة للإسلام وأقرار بعضها وإنكار بعضها وتعديل بعضها، وهذا، وبلا شك باب واسع من الأبواب التي تضخم التشريع وتغذيها، وهذا أيضا قد جعل كل مصر يغذي التشريع غذاء خاصا، قد لا يكون في غيره. وقديما كانت مكة تغذي الفقهاء بهناسك الحج وبشؤون التجارة كما كانت المدينة تغذي الفقهاء أكثر من مكة في شئون الزراعة، وبأعمال رسول الله في المدينة. فلما فتحت الأمصار ظل الأمر علي هذا الحال، فدجلة والفرات ونظامهما قد غديا بأبواب يوسف في آرائه في كتاب العراج، ومعاملة العراقيين في المزارعة والمساقاة والاستصناع غدت لغة العراق، ونظام النيل وعوائد المصريين غدت الشافعي في مذهبه الجديد - كما سيأتي - وعلي الجملة فكانت هناك عوائد عربية في جزيرة العرب، وعوائد فارسية في العراق، وعوائد رومانية في الشام، وعوائد رومانية واغريقية ومصرية في مصر، كلها عرضت علي الأئمة و"سلمت".

فلما كثرت الرحلات بين العلماء - كما أشرنا قبل - وأصبح من واجبات طالب العلم الأولية أن يرحل إلي الأمصار المختلفة ويأخذ عن علمائها، زالت الحدود والفواصل التي تميز كل طائفة من المشرعين في مصر، فاستفاد العالم العراقي من الحجازي، والمصري منهما، وكل منهم نقصه، واستفاد فيما هو مقتصر فيه، والحاد فيما هو غني به.

وهكذا عملت الرحلات في تطعيم كل شجرة من أشجار العلم، كما عملت في تقريب الوانها وطعومها، ومن ذلك التشريع، فنري ربيعة الرأي المديني يرحل الي العراق ثم يعود إلي المدينة، ومحمد بن الحسن العراقي صاحب أبي حنيفة يرحل الي المدينة ويقرا موطأ مالك ويعود الي العراق، والشافعي يرحل الي المدينة والي العراق والي مصر وهكذا، ومن أجل هذا أصبحنا نري الفروق علي توالي الأزمان تقل بين مدرسة الحديث ومدرسة الرأي بما يأخذ الأولون من رأي الآخرين، وما يأخذ الآخرون من حديث الأولين وأصبحنا نري كتب المذاهب تتشابه، والفروض في كل المذاهب تكثر - وعلي الجملة يتأثر كل ما أمتاز به كل.

٣- من مميزات هذا العصر كذلك، كثرة اختلاف الفقهاء ونشاطهم في الجدل والمناظرة، فقد اختلفوا وتعددت أسباب اختلافهم، من ذلك اختلافهم في قوله تعالى: "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء"، هل القراء الطهر أو الحيض؟ فذهب الحجازيون من الفقهاء إلي أنه الطهر، وذهب العراقيون إلي أنه الحيض، وكان اختلاف الحجازيين والعراقيين تبعاً لاختلاف الصحابة في هذا أيضاً، فقد روي عن عمر وعثمان وعائشة وزيد بن ثابت أنهم قالوا الاقراء الأظهار، كما روي عن عبد الله بن مسعود أنها الحيض، وفي هذا ما يدل علي ما سبق من انحياز العراقيين لابن مسعود، والحجازيين إلي علماء الصحابة في المدينة، وقد يكون الاختلاف سببه تركيب الكلام وتأليف الجمل، وقد يكون سببه حمل الكلام علي الحقيقة أو المجاز، وقد يكون سببه ماورد من جملة آيات أو احاديث اذا ألف بعضها مع

بعض اختلافات المدارك فيما يستلج منها وما لا يستلج، وقد يكون سببه اختلاف الأحاديث الواردة في الموضوع، وإن كل مجتهد يدل إليه بعض دون بعض، أوضح عنده بعض دون بعض، كالإي روي عن عبد الوارث ابن سعيد أنه قال: "قدمت مكة فالتقيت بها أبا حنيفة، فقلت: ما تقول في رجل باع بيعاً . وشرط شرطاً؟ فقال البيع باطل والشرط باطل، فأتيت أبي ابن ليلى فسألته عن ذلك فقال: البيع جائز والشرط باطل، فأتيت ابن شبرمة فسألته عن ذلك فقال: البيع جائز والشرط جائز . فقلت في نفسي سبحان الله، ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون علي مسألة، فعدت إلي أبي حنيفة، فأخبرته بما قال أصحابه، فقال: ما أدري ما قال لك، حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع وشرط . فعدت إلي ابن أبي ليلى فأخبرته بما قال أصحابه، فقال: ما أدري ما قال لك، حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: أمرني رسول الله أن اشتري بربرة فأعتقها، فأشترط أهلها الولاء، لأنفسهم، فقال رسول الله، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، البيع جائز والشرط باطل قال فعدت إلي ابن شبرمة فأخبرته بما قال أصحابه، فقال: ما أدري ما قال لك، حدثني مسعر بن كدام عن محارب بن دثار عن جابر " قال: بعث النبي بغيراً وشرط لي حملاته إلي المدينة بالبيع جائز والشرط جائز ، وقد يكون سبب الخلاف ماورد في الحديث يصح عند قوم، ولا يصح عند آخرين . ويشترط قوم لصحة الحديث شروطاً كثيرة إن لم تتحقق فضل عليه القياس، ولا يشترط قوم هذه الشروط ويفضلون الحديث - ولو لم يستوفها - علي القياس، وقد يكون الخلاف سبب اختلاف مقدرة

الفتهاء علي القياس والاستنباط، أو اختلافهم في المقدرة اللغوية والعلم بأساليب العرب ودلالة الكلام، وقد يكون سببه الاختلاف في وجهات النظر، وتاثر كل أمام بما يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية والنخ.

علي كل حال كان الاختلاف بين الفتهاء كثيراً وقديماً، كان هذا الاختلاف بين الصحابة، فقد اختلف ابو بكر وعمر في قتلي مانعي الزكاة، واختلف عثمان وزيد بن ثابت وعلي في عبد تزوج حرة هل يعتبر حال الزوج فيكون اقصى طلاقها طلقتين، وبهذا قال الاولان، أو يعتبر حال الزوجة، فيكون اقصى طلاقها ثلاثاً، بذلك قال علي، وكاختلفهم في توريث الاخوة مع الجد، الي كثير من امثال ذلك وكانت كلما أتت طبقة زاد الخلاف لكثرة المسائل المعروضة ولكثرة المقتنين، وحتى اذا تبلورت مدرسة الحديث وتركزت في مالك واصحابه في الحجاز، وتبلورت مدرسة الرأي وتركزت في ابي حنيفة واصحابه في العراق، زاد الخلاف وكثر الجدل، واستمر النزاع، وكان اكبر الفضل في شدة المناظرة راجعاً الي مدرسة ابي حنيفة فان كثرة مسائلهم التي فرعوها، وعدم تخرجهم في ابداء الرأي فيما لم يصح فيه نص عندهم، جعل لفتهاء الحديث يردون عليهم في شدة بأنهم أهملوا الحديث الي الرأي فأخطأوا، كما أن استعمال العراقيين للقياس وهو ضرب من المنطق سمح للمنطق أن يتسرب للفتة، وجعل الجدل يتشكل بالشكل المنطقي، وفي هذا تكثير للجدل والمناظرة، وفي رأيي أن هذا الجدل هو الذي الجاكبار الائمة كالشافعي الي وضع اصول الفتة: فان

المناظرة كانت تدور حول الكلمات وتحديد معانيها، والجمل وتأليفها، وموقف السنة من الكتاب، والكتاب من السنة، وعمل الصحابة وهل هو حجة أولاً، والقياس ومدى استعماله ومتى يصح ومتى لا يصح، فجرد الشافعي وامثاله هذه المسائل التي يكثر فيها الخلاف، واجتهدوا ان يرجعوا المسائل الجزئية التي يتجادلون فيها الي اصول فكان من ذلك أصول الفقه.

علي كل حال كان الخلاف كثيراً، وكان أكثر مايكون في العصر العباسي حيث تركزت مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، فرأيانهم يتناظرون في المساجد وفي حلقات الدرس، وفي المنازل، وحين اجتماعهم للحج، ويرحلون فيتناظرون، ويلتقون اتفاقاً فيتجادلون، وملئت الكتب بهذه المناظرات والمجادلات. وللمثل لك بشئ منها، فقد رأى الفخر الزازي: "أن محمد بن الحسن [صاحب أبي حنيفة] قال للشافعي يوماً: بلغني أنك تخالفنا في مسائل الغصب، قال الشافعي: أصلحك الله، انما هو شئ أتكلم به في المناظرة، قال فناظرني . . . قال حمد: ماتقول في رجل غصب ساحة وبني عليها جداراً وأنفق عليها ألف دينار، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين علي أنها ملكه، فقال الشافعي: أقول لصاحب الساحة ترضي أن تأخذ قيمتها؟ فان رضي والا قلعت البناء ودفعت ساحته اليه، قال محمد ابن الحسن: فما تقول في رجل غصب لوحاً من خشب فأدخله في سفينة ووصلت السفينة الي لجة البحر، فأتي صاحب اللوح بشهدين عدلين، أكنت تنزع اللوح من السفينة؟ قال لا، قال، الله اكبر، تركت قولك، ثم قال: ماتقول في

رجل غصب خيطاً من ابريسم، فمزق بطنه، فخاط بذلك الا بريسم تلك الجراحة، فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين ان هذا الخيط مقصوب، اكدت تنزع الخيط من بطنه؟ قال لا، قال: الله اكبر، تركت قولك، وقال اصحابه أيضاً: تركت قولك. قال الشافعي فقلت: لاتعجلوا، أرايت لو كان اللوح لوح نفسه، ثم اراد ان ينزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها في لجة البحر، امباح له ذلك ام يحرم عليه؟ قال يحرم عليه، قلت أرايت لو كان الخيط خيط نفسه وأراد أن ينزعه من بطنه ويقتل نفسه، امباح له ذلك ام محرم؟ قال: بل محرم: قلت أرايت لو جاء مالك الساحة، واراد أن يهدم البناء، ايحرم عليه ذلك ام يباح؟ قال: بل يباح، قال الشافعي فكيف تقيس مباحاً علي محرم؟ فقال محمد: فكيف تصنع بصاحب السفينة؟ قلت أمره ان يسيرها إلي أقرب السواحل، ثم أقول له انزع اللوح وادفعه اليه، فقال محمد بن الحسن: قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا ضرر ولا ضرار في الاسلام" فقال الشافعي: من ضره؟ هو ضر نفسه، ثم قال الشافعي: ماتقول في رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج في غاية الرذالة، ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادة أشراف خطباء، فاتي صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذه الجارية التي هي أم هؤلاء الأولاد مملوكة لي، ماذا تعمل؟ قال محمد: أحكم بأن أولئك الأولاد ممالكك لذلك الرجل، قال الشافعي: أشدك الله أي هذين أعظم ضرراً: أن تطلع الساحة وتردها الي مالكها، أو تحكم برق هؤلاء الأولاد، فانقطع محمد بن الحسن. وأمثال هذه المناظرة كثيرة بين الحنفية والمالكية والشافعية وغيرهم.

هذه المناظرات - وان حكايها كل جماعة بها يتفق وعصبتته

المذهبية - وسعت دائرة الحركة الفقهية، وكونت آراء قانونية لها قيمتها، وحملت الكثير من الفقهاء علي ان يتسلحوا بأسلحة مناظريهم، فالقياسيون يتسلحون بالحديث، والمحدثون يتسلحون بالرأي، وقربت كثيراً من أوجه النظر المتباعدة، وربما كان أقرب مثال لذلك الشافعي ومحمد بن الحسن الحنفي، فكلاهما اطلع علي الناحيتين وتسلح بالسلحين.

ولم يقتصر الأمر علي المناظرة الشفوية، بل تعدى ذلك الي المناظرة بالمكاتبة، فنري الليث بن سعد يكتب من مصر الي مالك في المدينة يجادله في حجية اجماع المدينة، ويرد عليه مالك.

وقد أثرت هذه المناظرات أيضاً في الكتب المؤلفة في ذلك العصر ومابعده أثراً كبيراً، فلو قارنت بين كتاب الأم الشافعي، وكتاب النحو لسيبويه رأيت فرقاً كبيراً بين التأليفين فالأم يغلب عليه الحوار، قال كذا فقلت: أريت ان زعم كذا؟ فان قال قائل كذا رددت عليه بكذا، قال لي بعضهم كذا فقلت له، الي نحو ذلك مما يغلب عليه الجدل والمناظرة والحوار، وكثيراً مايعرض لآراء المخالفين ويذكر حجته ثم يفلدها بحججه، ويذكر فصلاً يعنونه " كتاب الرد علي محمد بن الحسن" وفصلاً يعنونه "كتاب اختلاف العراقيين" الخ. وهكذا الحنفية في التأليف، ولاتري هذا واضحاً جلياً في كتاب سيبويه، فهو أميل إلي تقرير القواعد وتفريعها والاستشهاد عليها. وسبب ذلك الثورة الكبيرة التي كانت في هذا العصر في الآراء الفقهية. والحرية التي أبداهها الحنفية في استعمال الرأي، وجدنا مناظريهم في إمامهم، ونحو

ذلك مما لا يقاس به الخالف النحوي والمناظرات النحوية، لأن الأمر فيه أغلب مايكون علي النقل والسمع واستخراج القاعدة العامة من الجزئيات.

٤- ومن مميزات العصر العباسي في التشريع "التدوين" فقد ظهرت حركة التدوين في هذا العصر في كل فروع العلم ومنها الفقه، نعم كان في العصر الأموي نواة التدوين، ولكنها نمت واتسعت في العصر العباسي، وكانت كل مدرسة تتبع منهاجها، فقد كان فقهاء المدينة يجمعون فتاوي عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس ومن جاء بعدهم من كبار التابعين في المدينة، وينظرون فيها ويستنبطون منها ويفرغون عليها، كما كان العراقيون يجمعون فتاوي عبد الله بن مسعود وقضايا علي وفتاواة، وقضايا شريح وغيره من قضايا الكوفة، ثم يستخرجون منها ويستنبطون، وقد بدأ الفقه في العصر الأموي الحديث، لأنه يعد مادة الفقه، وخاصة عند مدرسة الحديث، ثم بدأ يبوبون الحديث ابوابا حسب الفقه، فأحاديث الوضوء، ثم أحاديث الصلاة، ثم أحاديث الزكاة وهكذا. ثم بدأ يفرغون المسائل من الحديث، فيروي الذهبي أن عبد الله بن المبارك "دون العلم في الأبواب والفقه" ويقول في أبي ثور: "إنه صنف الكتب وفروع السنن" يريد أنه جمع الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد في باب واحد، وأوسع ماورد إلينا في هذا الباب كتاب الموطأ للإمام مالك، وقد خلا فيه خطوة جديدة في تقنين الحديث.

أبو حنيفة ومدرسته

أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت بن زوطي فارسي الأصل، وقد ولد جده زوطي بكابل، واختلف في ولاده أبيه فقيل بالأنبار، وقيل ينسا، وولد أبو حنيفة بالكوفة، وكان ثابت مملوكاً لرجل من ربيعة من بني تميم الله بن ثعلبة من فخذ يقال لهم بنو قفل، فكان أبو حنيفة مولى لبني تميم الله لذلك يقال أبو حنيفة التيمي - يعنون أنه تيمي بالولاء - وقد شعر بعض الحنفية بغضاظة هذا الولاء، فرووا أنه من أحرار فارس ولم يجر عليه رق قط، ومادروا أن أمراً العلم والدين ببعيد عن الاعتزاز بالنسب والمهرة والولاء وما إليه، وأن العلم لا يقوم أحد بقبيلته ولا ماله ولا وجاهة، إنما يقومه بقيمته الذاتية ومزايه العقلية، وقيل أبي حنيفة كان كثير من سادة الفقهاء من الموالى ابن عمر، وعطاء بن أبي رباح فقيه مكة، وطاوس بن كيسان فقيه اليمن، والحسن البصري وابن سيرين فقيهي العراق وغيرهم. كما أن العصبية المذهبية حملت بعض الاتباع لكل مذهب أن يضعوا الأخبار لأعلاء شأن أممهم، ومن هذا الباب مارووا من الأحاديث بتبشير النبي صلى الله عليه وسلم لكل امام، من مثل ماروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أهل العراق: "أن الله وضع خزائن علمه فيهم" ومثل: "يكون في امتي رجل يقال له النعمان بن ثابت، ويكنى بأبي حنيفة يحيي الله علي يديه

سنتي في الاسلام" الخ، حتي لقد زعموا أن أبا حنيفة بشرت به التوراه، وكذلك فعل بعض الشافعية في الشافعي، والمالكية في مالتي، وما كان اعتناهم عن ذلك. ومن أجل هذا صعب علي الباحث معرفة التاريخ الصحيح لكل امام، فقد كان كلما اتى جيل تزيد في فضائل امامة، كان الفضل لا يقوم إلا بالمبالغة فيه، ولذلك نرى أن ترجمة الأئمة كلما قاربت عصرهم كانت اقرب الي الصدق وأبعد عن الغلو.

أغلب المؤرخين علي أن أبا حنيفة ولد بالكوفة سنة ٦٠ هـ ومات ببغداد سنة ١٥٠ هـ ليكون قد عاش نحو سبعين سنة، منها ٥٢ سنة في العصر الأموي ونحو ١٨ في العصر العباسي، إذن فقد ولد في عهد عبد الملك بن مروان ولما مات عبد الملك كان أبو حنيفة في السادسة من عمره ونشأ في ولاية الحجاج علي العراق، فقد مات الحجاج وعمر أبي حنيفة خمسة عشر عاماً، فرأى قسوة الحجاج ومعاملته للثارين، وحروبه وسطوته وسلطانه في العراق، وكان شاباً أيام عمر بن عبد العزيز، سمع بعده وشاهد آثاره، ورأى تدهور الأمويين، وشاهد بدء الدعوة العباسية، وسائرهما حتي تمت للعباسيين، والعراق وما اليه كان مهلاً لهذه الدعوة، وكان مساهماً في حرب الأمويين. وشاهد الحجاج بن يزيد بن المهلب أميراً علي العراق يحكم الناس حكماً عريباً عصبياً، كما

شاهد اماره خالد بن عبيد الله القسري، ونصر بي سيار، وما كان فيهما من محن، ورأي انتقال الخلافة من الأمويين الي العباسيين علي يد قومة من الفرس ورأي خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب علي المنصور، وقالوا انه عطف علي محمد، وكان ميله معه، واخيرا رأي استقرار الأمر في يد العباسيين، وبناء المنصور لبغداد، وتحول أبهة الدنيا وحضارتها وجمالها اليها، ثم مات في خلافة المنصور، كل هذه الاحداث مرت علي أبي حنيفة وأعمل فيه فكره، وأثرت في نفسه آثارها المختلفة، وساهم في بعضها وكان خريجها والناشئ في احضانها، والمتكون من ذراتها، والناضح علي نيرانها.

نشأ ابو حنيفة في الكوفة، وكان في زمانه بعض الصحابة وكبار التابعين، ولم نعلم كثيراً عن نشأته الأولى وكيفيه تعلمه، وقد روي أنه في السادسة عشرة من عمره حج مع أبيه، وشهد عبد الله بن الحارث أحد الصحابة يحدث بما سمع عن رسول الله. وقد اجتمع عليه الناس في المسجد الحرام، فسمع ابو حنيفة منه حديثاً، كما روي أنه سمع انس بن مالك وأربعة غيرها من الصحابة، وبعض العلماء يشك في ذلك.

ثم رأيناه بعد نشأته الأولى في التعليم يجلس في حلقة

المتكلمين بمسجد الكوفة، وكانت لهم حلقة بل حلقات - بجانب حلقات الفقه وحلقات الشعر وحلقات النحو - يتكلمون فيها في القضاء والقدر، والكفر والإيمان، ويستعرضون أعمال الصحابة في الحروب وغيرها، الي غير ذلك من مسائل علم الكلام فلما بلغ في ذلك مبلغاً كبيراً تحول الي الفقه، وروي زفر بن الهذيل قال: "سمعت ابا حنيفة يقول: كنت أنظر في الكلام حتي بلغت فيه مبلغاً يشار الي فيه بالأصابع وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان، فجاءتني امرأة يوماً فقالت رجل له امرأة يريد أن يطلقها للسنة كم يطلقها؟ فأمرتها أن تسأل حماداً ثم ترجع لتخبرني . . فرجعت فأخبرتني، فقلت: لا حاجة لي في الكلام، وأخذت نعلي فجلست الي حماد .

ويروي عنه أنه قال: "كنت رجلاً أعطيت جدلاً في الكلام فمضي دهر فيه اتردد وبه اخاصم، وعنه أناضل، وكان أصحاب الخصومات والجدل أكثرها بالبصرة، فدخلت البصرة نيفاً وعشرين مرة، منها ما أقيم سنة وأقل وأكثر وكنت قد تنازعت طبقات الخوارج من الأباضية والصفوية وغيره . . وكنت أعد الكلام الفضل العلوم، ثم علمت انه لو كان فيه خير لتعاطاه السلف الصالح فهجر .

وعلم الكلام قد طعم بالفلسفة قبل أي علم آخر، وتأثر بها

كما تأثر بأراء الأديان الأخرى للاحتكاك بها في المناظرة والدعوة
إلى الدين - وقد أبنا ذلك قبل - فكان عمرو بن عبيد وواصل بن
عطاء وغيرهما في البصرة يدعون إلى الإسلام، ويردون طعن
الطاعين، ويبحثون في صفات الله، وفي العاصي الكافر أم مؤمن؟
الخ، ويطلعون على أقوال أهل الديانات ويفتدونها بمثل حججهم
الفلسفية، فالظاهر أن أبا حنيفة بدراسته لبرنامج الكلام، وبلوغه
فيه مبلغاً يشار إليه بالأصابع، أكسبه قوة في المناظرة، وقدرة في
المنطق، ومراناً على الأسلوب العقلي في التفكير غير أسلوب
المحدثين، فإن كان المحدثون يكتفون في الحديث ببحت الرواة،
فالمتكلمون يتجاوزون ذلك أيضاً إلى النقد الخارجي، وهو موازنة
الحديث لمبادئ الإسلام العامة وأصوله، ونحو ذلك كما رأيت. وقد
عرف عن المعتزلة رؤساء المتكلمين نقد بعض الصحابة في جراءة، لم
يقدم عليها غيرهم، ونقد بعض ما روي من الحديث في صراحة، ونجد
لذلك كله أثراً في أبي حنيفة كما سيأتي.

كذلك كان ابو حنيفة بجانب حياته العلمية يحترف التجارة،
فكان خزازا

هؤلاء أشهر رجال مدرسة العراق، وكان لكل منهم يد في
تلوينها وتشكيلها، فابن مسعود فقيه جليل يتأثر عمر بن الخطاب
في دقة نظره وحريته وعلي بن أبي طالب خلف مجموعة من القضايا
والفتاوي لأهل العراق حفظت عنه وعدت دستوراً وعلامة كان غير
تلاميذ ابن مسعود وحامل علمه وفقهه ومسروق خلف لأهل العراق
فتاوي كثيرة كان يستفتي فيها، وشريح مارس القضاء نحو ستين
عاماً في العصر الأموي، فلا بد من الحياة العملية، وقد دعم مذهب
الرأي بدعائم قوية - وكان له أكبر الأثر في تلوينه وتميزه،
والشعبي - علي العكس من ذلك - كان يغذي العراقيين بالحديث
والأثر فكانه هو وشريح تعاوناً علي تدعيم المذهب بعنصريه، كان
الشعبي ينتفض للفتوي وينتهي شأن صاحب الآثار، وكان النخعي
يتהלل لها وينبسط شأن صاحب الرأي، وكان ذلك علي خلاف حياتهما
العملية، فقد كان الشعبي طريفاً مبسطاً فكها، فإذا جاءت الفتوي
وانقبض، وكان النخعي منقبضاً جاداً، فإذا جاء الرأي انشرح ثم جاء
حماد بن أبي سليمان فجمع ذلك كله في صدره وأسلمه لأبي حنيفة
لصاغة مذهباً . ولعلك لاحظت معني كثرة النخعيين في هذه

المدرسة، فعلقمة نخعي والأسود نخعي، وإبراهيم نخعي، ثم مسروق بن الأجدع همداني، ثم عامر الشعبي نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان، والنخع وحمدان قبيلتان يمينتان، وشريح كندي، وكندة من اليمن، وحماد بن أبي سليمان الأشعري بالولاء، وأشعر قبيلة من اليمن ونحن نعلم أن معاذ بن جبل أرسله النبي صلى الله عليه وسلم قاضياً علي الجند باليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن، كان معاذ من أعلم الصحابة بالحلال والحرام وهو صاحب الحديث المشهور الذي هو دعامة أهل الرأي وهو أن رسول الله «ص» قال لمعاذ بن جبل حين وجهه إلى اليمن بم تقضي؟ قال: بما في كتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بما في سنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي. فلعل هؤلاء اليمينيين كانوا متأثرين بهبداً معاذ وتعاليمه وفقهه - وبالفعل نجد بعض اعلام هذه المدرسة كالأسود بن يزيد النخعي من تلاميذ معاذ بن جبل.

أخذ أبو حنيفة الفقه عن كثير: فسمع من عطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة، ونافع مولي ابن عمر، ولكن استأذه الذي أخذ عنه أكثر علمه حماد بن أبي سليمان الأشعري - وقد كان حماد واسع العلم فقيهاً، قال فيه النسائي أنه "ثقة مرجي" وكان غنياً سعيماً

كريمًا، مات سنة ١٢٠، كانت له حلقة كبيرة في مسجد الكوفة .
يجلس اليه فيها المتعلمون يعلمهم ويسألونه، ويأتي اليه اصحاب
الحاجات في المسائل التي تعرض لهم فيستفتونه وقد لزمه ابو
حنيفة نحو ثمانية عشر عاما لما رأي من علمه، فقد كان يقول
"حماد أعلم من رأيت" . جالسه اولا نحو عشر سنوات، ثم حدثته
نفسه أن يستقل ويكون لنفسه حلقة خاصة، ثم خجل من شيخه،
وأتيحت له فرصة ذهاب حماد الي البصرة فجلس مكانه يعلم ويفتي،
وعرضت عليه نحو ستين مسألة جديدة لم يسمع فيها رأي شيخه،
فلما عاد سأله فيها فأقره علي اربعين منها، وغالطه في عشرين فلزمه
حتي مات . واذ قد علمنا ان حماداً مات سنة ١٢٠ فيكون ابو
حنيفة قد لازمه الي أن بلغ سنه نحو الاربعين وقد كان يجادل
شيخه ويناقشه ويلازمه حتي روي عنه انه قال: "لزمتم حماداً لزوما
ما أعلم أحد لازم أحد مثل ما لزمته، كنت أكثر السؤال فربما تبرم
مني ويقول: يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي وضاقت صدري، وحتى
روي أنه قال له يوم: "الزفتني" - أي اخدت كل ما عندي، وهي
عبارة قيلت قبل من سعيد بن المسيب لقتاده . ولما مات حماد نظراً
اصحابه فيمن يجلس مجلسه، ويتراس حلقاته، فاغتاروا ابنه اسماعيل
بن حماد، ولكنه كان اميل الي الأدب من شعر ومعرفة بأيام العرب،
فتنحى عن الحلقة فترأسها موسى بن أبي كثير، ولم يكن بارعاً في

الفقه ولكنه لقي المشايخ والكبار وجالسهم ثم خرج حاجا فجلس مكانه ابوحنيفة وملا مكان حماد، واستمر في هذه الحلقة يعلم الناس ويفتي نحو ثلاثين سنة الي ان مات سنة ١٥٠ .

كل الاخبار تدل علي انه كان في سعة من العيش، ولعل ذلك كان من تجارته، فقد علمنا انه "كان بزازا" وله دكان في دار عمرو بن حريث، وكان طويلا تعلوه سمرة، لباسا، حسن الهيئة وكثير النطر، يعرف بريح الطيب اذا اقبل واذا خرج من منزله قيل ان تراه .

وقد روي انه اريد علي القضاء مرتين فامتنع، احدهما في العهد الاموي اراده ابن هبيرة . عامل مروان بن محمد آخر بني امية علي العراق - فابي فضربه بالسوط، وفي رواية انه اراده ليكون علي بيت المال فابي فضربه، والاخري في العهد العباسي، اشخصه ابو جعفر من الكوفة الي بغداد، ثم اراده علي القضاء فابي فحبسه فمات في الحبس . والروايات في هذه الحادثة مختلفة فبعضهم يرويها علي هذا الوجه، وآخرون يروون أن المنصور هدده بالضرب فقبل القضاء علي كره، ثم مات بعد ايام، وغيرهم يروي ان المنصور انها استقدمه من الكوفة لانه اتهم بالتشيع لابراهيم

العلوي، فعاش خمسة عشر يوماً ثم سمه فمات فالروايات مجمعة علي استدعاء المنصور له، ومجمعة علي انه مات بعد استدعائه بقليل، وانه مات في بغداد وقبره الي الآن في بغداد شاهد علي ذلك، ونحن نستبعد سم المنصور له، فقد كان للمنصور من القوة ما يخول له القتل علناً ان شاء، وقد سبق ان قتل ابا مسلم الخراساني، وهو ما هو في قوته وتعلق الجند به، كما قتل غير ابي مسلم من ذوي الوجاهة والعزة، ونرجح الرواية الاولى من ارادته علي القضاء وامنتاعه وسجنه وتعذيبه، ويظهر ان هذا التعذيب والسجن ليس عقوبة علي ابيه القضاء، لأن امام المنصور كثيراً من العلماء يرغبون في هذا المنصب وقد اراد الليث بن سعد علي القضاء فأبي فتركه من غير ان يعذبه كما مر، ولكنه استدل من اباء ابي حنيفة علي صحة ما اتهم به من التشيع وعدم رضاه عن دولتهم. وقد روي عن ابي حنيفة اشياء من ذلك فقد روي زفر بن الهذيل ان ابا حنيفة كان يجهر بالكلام «يعني ضد المنصور» ايام ابراهيم «يعني اخا النفس الزكية» وكان قد خرج علي المنصور [جهاراً شديداً، فقلت له: والله ما انت بمنته حتي توضع الحبال في اعناقنا. كما روي ان المنصور كتب كتابين فلامش وابي حنيفة علي لسان ابراهيم بن عبد الله ابي حسن، وبعث بهما مع من يثق به، فقرأ الكتاب الاعمش واطعمه الشاه،

وأما أبو حنيفة فقبل الكتاب وأجاب عنه فلم يري في نفس أبي جعفر منه شئ حتي فعل به ما فعل .

فأغالب أن أبا حنيفة كان أميل - في الفتنة التي قامت بين العلويين والعباسيين - إلي محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه إبراهيم . وكان يروي أن محمداً أحق بالخلافة، وكان ناقماً علي العباسيين سطوتهم وشدتهم وكثيراً من العلماء في هذا العصر كانوا علي هذا الرأي، كان امتحان العباسيين لهم ولميولهم مظهر عرض الوظائف عليهم، والاستدلال بابائهم أو قبولهم علي ميولهم، كما لا ننكر أنه كانت هناك نزعة عند بعض العلماء تري أن في تولي الوظائف السلطانية تعريض الدين للخطر، حتي أن كثيراً من المحدثين لا يروون حديث من تقرب إلي السلطان، وأن كثيراً عابوا أبا يوسف من أجل توليه القضاء، والحكايات من هذا القبيل كثيرة، قال محمد بن جرير الطبري "أنه قد تحامى حديث أبي يوسف قوم من أهل الحديث، من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والأحكام، مع محبة السلطان وتقلده القضاء." .

ولعل السببين معاً كانا هما الباعثين لأبي حنيفة علي امتناعه عن تولي القضاء في العهد الأموي، ويرى الدولة قاسية شديدة

مضطربة وقومه الفرس يخرجون عليها ويبيثون الدعوي ضدها، وفي الدولة العباسية ظلم وعسف واغتصاب الخلافة من العلويين، هذا الي مافي القضاء من تعرض لغضب السلطان ان ارضي الله، وغضب الله ان ارضي السلطان، وفي بعض الروايات انه قال للمنصور: "لوهددتني ان تعرفني في الفرات أو أن الي الحكم لاخترت ان اغرق فلك حاشية يحتاجون الي من يكرمهم لك فلا املح لذلك".

وقد روي بعضهم أن ابا حنيفة تولى للمنصور عد اللبن في بناء بغداد ويقول الخطيب ان العامة هي التي تدعي ذلك.

منحاه في الاجتهاد - مسلك ابي حنيفة في القرآن الكريم
مسلك كل الائمة ان اختلفوا في شئ فيه فاختلف في فهم مدلوله واشارته وطرق الاستنباط منه اما في الحديث فكان له مسلك خاص، وهو التشدد في قبول الحديث والتحري عنه وعن رجاله وحتى يصح وكان لا يقبل الخبر عن رسول الله ﷺ الا اذا رواه جماعة عن جماعة، او كما يعبرون هم اذا كان خبر عامة عن عامة، او كان خبراً اتفق فقهاء الامصار علي العمل به، او روي واحد من الصحابة الحديث عن رسول الله في جمع منهم، فلم يخلفه احد، لان هذا يدل علي اقرارهم له ولو كانوا يخافونه لردوا عليه، فكان هذا

بمثابة الحديث . يرويه جماعة ، قال ابو يوسف فعليك من الحديث بها تعرف العامة ، واياك والشاذ منه ، فانه حدثنا ابن ابي كريمة عن ابي جعفر أن رسول الله دعا اليهود فحدثوه حتي كذبوا علي عيسي ، فصعد النبي «ص» المنبر فخطب الناس فقال : أن الحديث سيفشو علي فما اتاكم علي وافق القرآن فهو مني ، وما اتاكم علي يخالف القرآن فليس مني " وكان عمر فيما بلغنا لايقبل الحديث عن رسول الله «ص» الا يشاهدين وكان علي بن ابي طالب لايقبل الحديث عن رسول الله ، والرواية تزداد كثرة ويخرج منها مالا يعرف ولا يعرفه اهل الفقه ، ولا يوافق الكتاب والسنة ، فاياك وشاذ الحديث ، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث وما يعرفه الفقهاء ، فقس الاشياء علي ذلك ، فما خالف القرآن فليس عن رسول الله «ص» وان جاءت به الرواية . . فاجعل القرآن والسنة المعروفة لك اماماً وقائداً ، واتبع ذلك وقس عليه ما يرد عليك مما لم يوضع لك في القرآن والسنة .

فأبو يوسف رسم في هذا القول الخطة التي كان يسير عليها هو وشيخه ابو حنيفة نحو الحديث ، وخلاصتها تضييق دائرة مايعمل به من الحديث والاقتصار منه علي المعروف المشهور الذي عرفه عامة الفقهاء ، وعدم الأخذ بالاحاديث التي لم تستوف هذه

الشروط، وروي عن يحيى بن نصر أنه قال: "سمعت أبا حنيفة يقول: عندي صناديق من الحديث ما أخرجت منها إلا اليسير الذي ينتفع به".

وروي عن أبي يوسف أنه قال: "كان أبو حنيفة لا يري أن يروي من الحديث إلا ما حفظه عن الذي سمعه منه" وقال: «ردي» علي كل رجل يحدث عن النبي «ص» خلاف القرآن ليس رداً علي النبي «ص» ولا تكديباً له ولكنه رداً علي من يحدث عنه الباطل والتهمة دخلت عليه ليس علي نبي الله، وكل شيء تكلم به النبي «ص» فعلي الرأس والعين قد آمنا به، وشهدنا أنه كما قال، ونشهد أيضاً أنه لم يأمر بشيء يخالف أمر الله، ولم يبتدع، ولم يتقول غير ما قال الله، ولا كان من المتكلمين. وعلي الجملة فقد كان يشدد في الأخذ بالحديث وهذا - من غير شك - يضطره إلي التوسع في القياس والاستحسان فيما لم يكن فيه اثر كتاب والا اثر صحيح، فليس فيه أمام المجتهد إلا القياس والاستحسان.

كذلك كان من مبدئه اعمال عقله فيما اذا روي في المسألة قولان او أكثر للمحابة فيختار منها أعدلها أو أقربها إلي الأصول العامة، وعدم الاعتداد بأقوال التابعين إلا ان يوافق اجتهاده، فقد

روي عنه أنه قال "أني أخذ بكتاب الله إذا وجدته فما لم أجده
أخذت بسنة رسول الله «ص» والآثار الصحاح عنه التي فشت في
أيدي الثقات فإذا لم أجده في كتاب الله ولا سنة رسول الله «ص»
أخذت بقول أصحابه من شئت وادع قول من شئت، ثم لا أخرج من
قولهم إلي قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلي إبراهيم والشعبي
والحسن وابن سيرين وسعيد ابن المسيب، فلي أن اجتهد كما
اجتهدوا " وهذا المنهج يسلم إلي عدم التزام العمل المأثور عن
التابعين، ثم يسلم بعد إلي القياس والاستحسان.

فهنا التشدد في قبول الحديث، وهذه الحرية في وزن أقوال
الصحابة والتابعين مضافا إليهما ما ذكرنا قبل من أسباب جعلت
القياس أساساً كبيراً من أسس التشريع في فقه أبي حنيفة.

وفي الواقع كان أبو حنيفة قياساً، سلك في القياس مسلكاً
فاق فيه كل من سبقه واعانته علي ذلك ملكاته الخلقية فكان دقيق
النظر، سريع الخاطر في ادراك ما بين الأشياء من فروقات وموافقات،
قوي الحجة كان - كما قالوا لو أراد أن يقيم الحجة علي أن هذه
السارية ذهب لفعل - وزاده ظهوراً في ذلك أنه لم يكن يتخرج من
الفتيات تخرج أهل الحديث، فليس يهمه أوقع الأمر أم لم يقع،

وكان حقيقياً أم فرضياً، بل يقول كما قال لقتاده: "أن العلماء يستعدون للبلاء ويتحرزون منه قبل نزوله". وذكر عنده مرة قول من قال: لا ادري نصف العلم، قال ابو حنيفة: فليقل "لا ادري" مرتين ليستكمل العلم. ولذلك كان كثيراً ما سئل وكثيراً ما اجاب، حتي روي أنه قال ستين الف مسألة، وقال بعضهم ثلاثة وثمانين الفا، وثمانية وثلاثين الفا في العبادات، وخمسة واربعين الفا في المعاملات، ومهما كان العدد مبالغاً فيه فانه يدلنا علي كثرة مسائل وما اجاب وما فرغ وما علم، وهذا لايتأتى مع الصحة والضبط ودقة النظر الا من عقل قانوني كبير من، حتي كأن اصول الفقه الاربعة هي قواعد الحساب الاربع، تعرض فيها المسائل فيطبّقها علي هذه القواعد، ويحلها في سهولة في مقتضاها، ثم هو يجادل ويعارض فيما يفتي فيقيم الحجج القوية علي مارأي وما افتي، وقد حكى عنه من هذا الشئ الكثير في كتب المناقب ان بولخ في بعضه فالاصل صحيح وقد نازله فقهاء عصره ونازلهم فانتصف منهم في الاغلب ونسوق لك امثلة قليلة مما روي سئل عن رجلين اشتركا في ثلاثة دراهم دفع احدهم درهمين والاخر واحداً واغتلطت الدراهم ثم ضاع درهمان من الثلاثة، فقال ابو حنيفة: الدرهم الباقي بينهما اثلاثا ثلث لذي الدرهم، والثلثان لذي الدرهمين، وسئل فيها ابن شبرمة. فقال: أن الدرهم الباقي بينهما نصفاً، لكل نصف حجة ابن شبرمة

ان درهما من الدرهمين الضالعين هو من مال دافع الدرهمين بيلين،
والدرهم الثاني من الدرهمين الضالعين مشكوك فيه فيكون منهما،
فيكون الدرهم الثاني مناصفة، وحجة- ابي حنيفة ان الدراهم الثلاث
لها خلطت اصبحت كل درهم مشتركاً لصاحب الدرهم ثلثه ولصاحب
الدرهمين ثلثاه، فاي درهم ذهب فهذا حكمه والدرهم الباقي هذا
حكمه ايضا ثلثه لدي الدرهم او ثلثها لدي الدرهمين وفي هذا
مثل من أمثلة الرأي الذي كان يستعمل وسل ماقولك: في الشرب
في قدح او كأس في بعض جوانبهما قضة؟ فقال: لأبأس به، فقل
له اليس قد ورد النهي عن الشرب في اثناء اللضة والذهب؟ فقال
ابو حنيفة: ما تقول في رجل مر علي نهر، وقد اصابه عطش،
وليس معه اثناء فاعترف الماء من النهر لشربه يكفه وفي اصبغه
خاتم؟ فقال مناظره: لأبأس بذلك، قال ابو حنيفة فهذا كذلك.

وجاءه جماعة من اهل المدينة ليناطره في القراءة خلف الامام
«وابو حنيفة يقول بعدم القراءة» فقال لهم لايمكنني مناظرة الجميع
فولوا الكلام اعلمكم فاشاروا الي واحد، فقال: هذا اعلمكم؟
والمناظرة معه كالمناظرة معكم؟ قالوا: نعم، قال: والحجة عليه
كالحجة عليكم؟ قالوا: نعم، قال: ان ناظرته لزمتمكم الحجة لانكم
اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم، وكنا نحن اخترنا الامام فقراءته
قراءتنا.

ومثل هذا مئات من المسائل استعمل فيها الرأي أو القياس أو الاستحسان ذكرت في كتب الفقه وكتب المناقب، يطول بنا القول لو كثرت منها، حتي ذكروا انه كان مولعاً بالقياس ايضاً في حياته العادية ، فقد روى انه أمر حجامه أن يلقط الشعر الأبيض من رأسه أو لحيته، قال: أن لقطتها كثرت، قال اذن القط السود حتي تنكثر وتنادروا عليه في استعمال القياس بانه كان في مبدأ امره يشتغل بالنحو، ويريد ان يجري القياس فيه، فجمع كلباً علي كلوب قياس علي قلب وقلوب.

وروي الجاحظ عن حماد بن سلمة قال: كان رجل في الجاهلية معه محجن يتناول به متاع الحاج سرقة، فاذا قيل له سرقت، قال لم أسرق إنما سرق محجني، فقال حماد: لو كان هذا اليوم حياً لكان من أصحاب ابي حنيفة .

وعلي الجملة فقد مهر في القياس، ومطبعه تطبيقاً واسعاً اثر في الفقه اثر كبيراً من كثرة الفروع وتحديد وجود المشابهات وتسلح المجتهد سلاحاً قوياً في الافتاء . وقد لاندرك كبير فرق

فيما لدينا من كتب الفقه في المذاهب المختلفة، كمذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة، ومن أجل هذا قال بعض المستشرقين أن الفرق بين المذاهب قليلة، ولكن في رأيي أن هذه القلة إنما كانت في كتب تلاميذ الأئمة، لأن تلميذ أبي حنيفة أخذوا ما احتاجوا إليه من الحديث، وتلميذ مالك توسعوا في اقتباس ما هم في حاجة إليه من القياس فتقاربت المذاهب، أما في عصر أبي حنيفة ومالك أنفسهما فالفرق كان كبيراً.

كذلك عرف أبو حنيفة بالمهارة في فقه الحديث، اعتمد أنه كان يسمع الحديث ويصح عنده، فيستطيع أن يفرع منه الفروع، ويستخرج منه الأحكام الفقهية في مهارة. سأل الأعمش [وهو من كبار المحدثين] عن مسائل فالتأه، فقال له الأعمش بكنا، فقال الأعمش، معشر القضاء انتم الأطباء ونحن الصيادلة.

ومن أجل هذا فرقوا بين المحدث والفقهاء فقد يكون الرجل محدثاً لافقيها وقد يكون قليل الحديث وهو فقيه.

ومن الأمور الظاهرة في فقه أبي حنيفة الحيل الشرعية وقد أصبحت فيما بعد باباً واسعاً من أبواب الفقه في مذهب أبي حنيفة

وغيره من المذاهب وان كانت في مذهب الحنفية اظهر واكثر فيهما الكتب الخاصة، حتي لقد وضعت فيها بعد حيل للهروب من كل التزام فحيل لاسقاط الشفعة وحيل لتخصيص بعض الورقة بالوصية، وحيل في اسقاط حد للسرقة وهكذا وقد خصص ابن القيم، جزءاً كبيراً من كتابه اعلام الموقعين في الكلام في الحيل وفي قيمتها والتشجيع علي من توسع فيها وقد قال ان تجوز الحيل يضر بالشرائع لان الشارع يسد الطريق الي المفسد بكل ممكن، والمحتال يفتح الطريق اليها بحيلة وقال: ان المتأخرين احدثوا حيلاً لم يصح القول بها عن أحد الائمة ونسبوها الي الائمة وهم مخطئون في نسبتها اليهم. ومن عرف سيرة الشافعي وفضله ومكانه من الاسلام، علم انه لم يكن معروفاً بفعل الحيلة ولا بالدلالة عليها، ولا كان يشير علي مسلم بها، واكثر الحيل التي ذكرها المتأخرون المنتسبون الي مذهبه من تصرفاتهم تلقتها عن المشرقيين وادخلوها في مذهبه" وقد اطلال في اقسام الحيل وما يجوز منها وما لايجوز، فما كان من الحيل لاخذ اموال الناس وظلمهم في نفوسهم وسفك دمائهم، وابطال حقوقهم وافساد ذات بينهم، فهي محرمة . . ولايختلف المسلمون ان تعلم هذه الحيل حرام والافتاء بها حرام، والشهادة علي مضمونها حرام، والحكم بها مع العلم بحالها حرام وهناك حيل للتوصل الي الحق او لدفع الظلم بطريق مباحة

وهذا جائز الي اخر ما قال . وقد ضرب امثلة كثيرة لذلك .

وقد رويت عن أبي هريرة مسائل في هذا الباب، أكثرها من باب الايمان والطلاق، منها ما يظهر أن سكان العراق تفننوا في الايمان والطلاق تفننا عذيباً، وكانوا يستفتون الائمة في هذه الايمان العجيبة التي يوقعونها فيحلف «الاعمش» بطلاق امرأته أن أخبرته بفناء الدقيق أو كتبت به، أو أرسلته، أو ذكرت لأحد ليذكره له، أو أومات في ذلك، فتسأل امرأته أبا حنيفة فيحتال لمخرج لهذا، فيقول لها: إذا انتهى الدقيق فشدي جراب الدقيق علي أزاره أو ثوبه وهو نائم، فإذا أصبح أو قام من الليل علم غلاء الجراب وفناء الدقيق . ويحلف آخر ليقرين امرأته نهارة في رمضان، فيفتيه أبو حنيفة أن يسأل بها فيقربها نهارة في رمضان، ويحلف رجل وقد رأى امرأته علي السلم فيقول: انت طالق ثلاثاً أن معدت وطالق ثلاثاً أن نزلت، فيفتيه أبو حنيفة أن تقف المرأة علي السلم ولا تصعد ولا تنزل، ويحتال جماعة يحملون السلم بالمرأة فيضعونها علي الأرض . ويسأله رجل فيقول: لي ولد وليس لي غيره فإن زوجته طلق، وإن سريته اعتق وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟ فقال له أبو حنيفة: اشتر الجارية - التي يرضاها هو - لنفسك، ثم زوجها منه فإن طلق رجعت مملوكتك

اليه وان اعتق عتق مالايملك، الي امثال أخرى ذلك من مجموع هذا ان الحيل التي افتي بها ابو حنيفة ليست من نوع التحايل علي ابطال الحق أو أكل الاموال بالباطل ونحو ذلك، انها هو استخراج فتحي للخروج من مأزق، مع عدم التعدي علي أحد في ماله ونفسه.

ويظهر ان هذا الباب استغل بعد من ناحيتين:

١- فبعد ان وقعت حوادث قليلة من هذا القبيل توسع فيها من طريق الفرض وسبح الخيال يستخرج فروضاً عديدة، خصوصاً في الايمان والطلاق ولم تحدث ولن تحدث، ولكن الخيال يتوهمها، والفقيه الفرضي يتمرن علي حلها.

الأمر الثاني ما اشار اليه ابن القيم من أن المتأخرين ارتكبوا علي هذه المسائل القليلة والواردة عن الأئمة . وتوسعوا فيها حتي جعلوها في كل باب من أبواب الفقه، ولم يقفوا عند الحدود التي وقف فيها الأئمة، بل جعلوا منها ما يحتال به علي اضاءة الحقوق وافساد الالتزامات.

مما لاشك فيه أن ابا حنيفة خرج علي الناس بملذهب جديد، فيه

حرية للعقل بكثرة استعمال الرأي والقياس، وبما استتبع ذلك من كثرة الفروع ورجوعها الي اصول، وبمقدرة فائقة في الاستنباط، وبشجاعة في مواجهة المسائل في الحدود التي ذكرناها، وبتقريب الفقه الي الالذهان، وحتى قال الجاحظ: وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، يجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لا يعد فقيهاً ويجعل قاضياً، فما هو مقدار سنة أو سنتين، حتي تمر ببابة فتظن انه من بعض العمال وبالحري لا يمر عليه من الايام الا اليسير حتي يصير حاكماً علي مصر من الأمصار او بلد من البلدان".

وطبيعي ان تحدث هذه المبادئ ثورة فكرية عنيفة، وتنقسم الناس الي قسمين: مؤيد لها وناصر، وهاج لها وقادح، وكذلك كان. فقد وقف العراق في امر ابي حنيفة معسكرين يتنازعان، ووقف المؤيدين لمذهب ابي حنيفة من العراقيين امام المدنيين كذلك يتنازعون ويترامون بالاقوال، هؤلاء، ينصرون أبا حنيفة وينبئون فضله ومزاياه، ووجوه تفضيل مذهبه علي غيره، وهؤلاء، يضعون من شأنه ويروون انه خطر علي الدين، وان طريقته تخالف طريقة المتقدمين وخلف لنا كل معسكر تراثاً من آرائه واقواله، وقد عقد الخطيب البغدادي فصلاً طويلاً نقل فيه اكثر ما قاله الفريقان، وكذلك -

فعل ابن عبد البر في كتابه الانتقاء .

وكان اكثر الذين عادوا من اصحاب الحديث، وطبيعي أن يكون ذلك لأن منهجه غير منهجهم، فهم يرون الحديث ويكتفون في تصحيحه بان الراوي غير مجرح، وهو يتشدد في روايته علي النحو الذي ذكرناه، فاذا رد أشارا ولم يعمل بها هاجوا عليه وقدحوا فيه، كذلك عاداه الفقهاء، من مدرسة الحديث لأنه كان يستعمل القياس مع وجود الحديث في نظرهم، مع أن الحديث لم يصح عنده فتركه الي القياس، فاذا رد الحديث ونطق بما يفيد أنه لم يثبت عنده شذعوا عليه بأن أكذب الحديث: فقد سأله رجل عن شيء، فأجاب فيه، فقال له الرجل: أنه يروي فيه عن النبي علي الله عليه وسلم وكنا فقال أبو حنيفة: دعنا من هذا، وحدثه ابو اسحاق القزاري حديثاً، فقال ابو حنيفة: هذا حديث خرافة، وحدثه احدهم حديث: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا "فقال ابو حنيفة: أرايت ان كان في سفينة؟ أرايت ان كانا في سجن؟ أرايت ان كان في سفر؟ .

وروي له ان يهوديا وضع راس جارية بين حجرين، فوضع النبي «رأسه بين حجرين، فقال ابوحنيفة: هذا هليان - روى هذا وأمثاله الظاهر منها ان ابا حنيفة كان ينكر هذه الاحاديث لأنها لم

تصح عنده، فتشنع المحدثون عليه، وقالوا: أنه ينكر قول الرسول
ويقدم عليه رأيه. ويقولون مارأينا أجرا علي الله من ابي حنيفة،
كان يضرب الأمثال لحديث رسول الله واحصوا عليه أنه افتي بنحو
مائتي مسألة فخالف فيها الحديث، قال رسول الله "للفرس سهمان
والرجل سهم" فقال ابو حنيفة: أنا لا اجعل سهم بهيمة اكثر من
سهم المؤمن. وقال صلي الله عليه وسلم: "البيعان بالخيار ما لم
يتفرقا" قال ابو حنيفة: اذا وجب البيع فلا خيار. وكان النبي
«ص» يقرع بين نسائه اذا اراد أن يخرج في سفر، فقال ابو حنيفة
القرعة قمار. الخ وواضح في هذا كله ان الشروط الدقيقة التي
اشتراطها في الأخذ بالحديث خالفت بين انظاره وأنظارهم، وجعلت
الحديث يصح عندهم ولايصح عنده فاذا استعمل القياس لأن الحديث
لم يصح عنده اتهموه بأنه يقدم رأيه علي الحديث وقالوا: أنه
استقبل الآثار واستعبرها برأيه، والي كثير من امثال هذا التشنيع
وما من احد من الائمة الا كان له مثل هذا الموقف حين لايصح
عنده حديث صح عند غيره فلا يأخذ به، وان كان ابو حنيفة في
ذلك أكثر، للأسباب التي ابناها.

نقم عليه المحدثون والفقهاء المحدثون كثرة استعماله للرأي
والقياس وشنعوا عليه بان ذلك من قبيل اتباع الهوى. ولفرق كبير

بين اتباع الهوى واستعمال الراي بعد بذل الجهد . فاتباع الهوى دليل الي الراي لتحصيل مصلحة خاصة من مال أو جاه . اما الراي بمعنى بذل الجهد ثم الوصول بعد ذلك الي مايعتقده من الحق فليس من الهوى في شيء . وقدروي عن كثير من هؤلاء اقوال في تجريح ابي حنيفة، كمالك بن انس والأوزاعي وسفيان الثوري ومن الغريبان ينقل الينا عن بعضهم كسفيان الثوري وسفيان بن عيينه وعبد الله بن المبارك اقوال متناقضة بعضها في مدحه والاعتراف بفقته وفضله، وبعضها في نقده من هذه النواحي ايضا . فاما ان يكون لهم راي يه قد عدلوا عنه الي غيره، واما ان يكون الاقوال في احدي الناحيتين موضوعة مختلفة، والوقوف علي اصحابها عسير . ويقول ابن عبد البر: ان ممن جرح ابا حنيفة ابا عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري وعده في الضعفاء والمتروكين . ولم يرو عنه ولا حديث واحد في صحيح البخاري ومسلم، ولكن روي له النسائي والترمذي، كما تعصب له آخرون من العلماء مثل شعبة بن الحجاج وابن جريح ويحيى بن معين وغيرهم .

كذلك نقده بعضهم في مسألة الحيل التي الممنا بها قبل، وعقد لالك البخاري باباً في كتابه الجامع الصحيح وعناه بقوله: "وقال بعض الناس ان احكام الله شرعت لجلب ماصالح الينا او دفع

مضار، ومن امحل المحال ان يشرع من الحيل مايسلما شيئا اوجبه او يحل شيئا حرمه الخ" . وقد رأيت ان ابا حنيفة نفسه لم يتوسع في الحيل توسع من بعده، ولم يستجز الا ضروريا محدودة منها ونقدوه كذلك لقوله بالارجاء وسد عرض لذلك بعد .

نري من كل هذا كيف كان أبو حنيفة وفقهه مبعثا لحركة فكرية عنيفة اقامها حوله رجال الحديث حينا، واقامها من ليسوا علي مذهبه في منهج التشريع واقامها اعداء له وخصوم، كابن ابي ليلى، وكان قاضي الكوفيين الأمويين والعباسيين وكان معاصرا لأبي حنيفة وكان ابو حنيفة يفتي أحيانا بغير رأيه ويجهله في بعض قضاياهم ويبين خطأه، فاستعدي عليه الولاة . وغير ما قيل في هذا الباب ما قاله ابن عبد البر: "ان كثيراً من أهل الحديث استجازوا الطعن علي ابي حنيفة لرده كثيراً من اخبار الاحاد العدول، لانه كان يذهب في ذلك الي عرضها علي ما اجتمع عليه من الاحاديث ومعاني القرآن، فما شد عن ذلك رد وسماه شاذاً، وكان مع ذلك ايضا بقول: الطاعات من الصلاة وغيرها لاتسمي ايمانا داي لان الايمان اعتقاد بالقلب» وكل من قال من أهل السنة الايمان قول وعمل ينكرون قوله، ويبذعونه بذلك وكان مع ذلك محسودا اللهم وفطنته" . وتدخل الشعراء في النزاع، روي ابن قتيبة عن شفيق

البلخي انه اطري ابا حنيفة بمرور فقال له علي بن اسحاق لا تطره
بمرور فانهم لا يهتمون ذلك فقال شقيق: قدمه مسطور الشاعر
فقال:

انا ما لناس يوما قايسونا بأبد من الفتيا طريفه
اتيناهم بمقياس طيع تلاء من طراز ابي حنيفة
اذا سمع الفقيه بها دعاها واثبتها بحر في طيفة

فقال له قد أجابه بعض اصحابنا

انا نو الرأي خاتم في قياس وجاء ببدعة هنة شريفة
اتيناهم بقول الله فيهم وأثار مبرزة شريفة
فكم من فرج محطن عفيف احل حرامه بأبي حنيفة

وفضل شاعر أهل الكوفة ^١ إلى أهل المدينة في الفقه فقال:

وليس يعرف هذا الدين تعلمه إلا حنيفة كوفية السور
لاتسألن مدينا فتعرجه إلا عن اليم والمثناة والزيـر

فاجابه رجل من أهل المدينة:

لقد عجبت لعلو ساقه قدر وكل امرا انا ماحم مقبور
قال المدينة ارض لا يكون بها إلا الغناء والا اليم والزيـر
لقد كذبت لعمر الله ان بها قبر الرسول وخير الناس مقبور

ومهما قيل فان هذه الحركة القوية وهذا النزاع الشديد بين اصحاب
الرأي والحديث، رقىا الفقه في هذا العصر رقىاً عظيماً وفتقا
الاذهان واستخرجوا منها احكاما ونظريات هي خير نتاج العصور
الاسلامية .

لم يصل اليها اي كتاب في الفقه لأبي حنيفة، ويظهر انه لم
يؤلف في ذلك وكل ما رواه ابن النديم عن كتبه هي كتاب الفقه
الأكبر، رسالته إلى البستي، وكتاب العالم والمتعلم وكتاب الرد

علي القدرية ، فيظهر انه لم يدون في الفقه ولكن تلاميذه كانوا يحفظون اقواله ويكتبونها عنه، فنقلوا اليها اقواله في كل باب من ابواب الفقه .

أما كتابه في الفقه الأكبر الذي ذكره ابن السديم فمختلفون فيه، ذلك أنه وصل اليها كتاب صغير في العقائد اسمه الفقه الأكبر في ورقات، روي بروايات مختلفة، وطبع في الهند مع شروحه، وبعض هذه الروايات غير صحيح، لأنه يحتج علي الأشعرية ولهم، والأشعري كان بعد أبي حنيفة بنحو قرنين، وبعضهم يروي ان الفقه الأكبر ليس ما بين أيدينا، وإنما هو كتاب في الفقه كبير حوي نحو ستين ألف مسألة . والأرجح عندي انه لم يدون في الفقه . لأن حركة التدوين في العصر العباسي أدركته وهو متقدم في السن، وان الفقه الأكبر كان في العتيدة، ولا يعد هذا تدويناً لأنه رسالة كالرسائل التي يرسلها العلماء بعضهم الي بعض، ولأن الفقه الأكبر الذي كان بين أيدينا أساسه صحيح النسبة لأبي حنيفة وان زيد عليه بعد، كما سنبحث ذلك عند الكلام في العقائد ومنها الأرجاء ان شاء الله .

اتي بعد أبي حنيفة تلاميذه فجدوا في المحافظة علي مذهبه

بتدوينهم ولاستدلال له، وترتيب مسائله وتوسيعها، كما ايتح لبعضهم فرصة رئاسة القضاء فتقوي مذهبه وبثه وايدوه، وكان من أشهر هؤلاء التلاميذ ابو يوسف ومحمد وزفر، ويطول بنا القول لو استقصينا اخبارهم وآراهم فنكتفي في ذلك بلمحة يسيرة

ابو يوسف - عربي الاصل، جده سعد بن حبة أحد الصحابة من الانصار واخذ الفقه فيمن اخذ علي ابي حنيفة وكان من اقرب تلاميذه اليه، ولد سنة ١١٣ وتولي سنة ١٨٢. ونشأ فقيراً وكان ابو حنيفة يمهده بالمال ثم تولى القضاء لثلاثة من الخلفاء. المهدي ثم الهادي، ثم هارون الرشيد، وكان في ايام الرشيد قاضي القضاة. وكان عند الرشيد حظياً وكان موقفه هذا دقيقاً محرجاً، فحول الخلفاء الا ذلك قادة ورؤساء يحتاجون الي مداراة وهم الذين قال فيهم ابو حنيفة للمنصور: "فلك حاشية يحتاجون الي من يكرمهم لك" فبقاء ابي يوسف في هذا المنصب هذا العهد الطويل يدل علي لباقة ومرونة فالتقين خصوصاً اذا اراد ان يجمع بين الدين والمنصب والجاه. ولعل مايمثل ابا يوسف خير تمثيل لقوله: "رؤوس النعم ثلاثة: أولهما نعمة الاسلام التي لا تتم النعمة الا بها، ونعمة العافية التي لاتطيب الحياة الا بها، ونعمة الغني التي يتم العيش بها". فقد اراد ان يجمع بين الاسلام والعافية والغني،

وما ادق ذلك واشده، لذلك نراه في خطبه كتاب الخراج يقف موقفاً من أحسن المواقف واشرقها، يعطى الخليفة هارون الرشيد في قوة وحزم وبجانب ذلك تروي عنه الاخبار الكثيرة في ابتداع الحيل للخروج من المأزق يقع فيها العللاء والقواد ان بولغ في بعضها الاساس صحيح، والجمع بين ذلك كله لا يستطيع الا امثال ابي يوسف ان استطاعوا .

أفاد ابو يوسف لله ابي حنيفة من وجوده:

١- انه تولى القضاء عهداً طويلاً، وفي هذا فائدة لله كبيرة، ففي القضاء امتحان للنظريات العلمية ومهر لها في بوتقة العلم، ومواجهة لمشاكل عملية لا يدركها من اقتصر على النظر، وملائمة الصواب في طرق المرافعات ممن له البينة، ومن عليه اليمين ونحو ذلك، لا يفكر فيها كثيراً من يستفتي او يؤلف الكتب. فلها كان ابو يوسف منظماً لمذهب ابو حنيفة ومغنياً له بالطرق العلمية، ومن أجل هذا قال الحنفية: انه يعمل بقول ابي يوسف في باب القضاء، اصف الي هذا ان ابا يوسف في مثل مركزه يستطيع ان يعرف من شئون الدولة ومناحيها في التفكير والعمل، وما يعرض لها من مشاكل وكيف تحل ما لا يعرفه غيره، وكل هذا

يكسبه نظراً جديداً ورأياً في مسائل لا يراها من يقيس أو يستحسن
بين جدران اربعة أو في حلقة المسجد.

٢- تولي قضاء بغداد وكان من يتولاه يكون قاضي القضاة،
فله نوع اشراف علي سائر القضاة وفي هذا تمكين لمذهب ابي
حنيفة ونشر له ولمبادئه.

٣- كان ابو يوسف اوسع اتصالاً بالمحدثين، أكثر رواية
للحديث عنهم، قال ابن جرير الطبري: "كان ابو يوسف يعقوب بن
ابراهيم القاضي فقيهاً عالماً حافظاً، ذكر انه كان يعرف يحفظ
الحديث، وانه كان يحضر المحدث فيحفظ خمسين أو ستين حديثاً،
ثم يقوم ويملئها علي الناس، وكان كثير الحديث، وكان قد جالس
محمد بن عبد الرحمن بن ابي ليل، ثم جالس ابا حنيفة، وكان
الغالب عليه مذهب ابي حنيفة، وكان ربما خالفه احياناً في المسألة
بعد المسألة". وقد رحل الي المدينة ولقي مالكا وناظره واحد
علمه وجع عن بعض آرائه الي قول مالك واقوال الحجازيين، ومع
هذا فقد رضي عنه بعض المحدثين كابن معين وابن حنبل، ولم
يرضي عنه كثرة فلم يروعه شيئاً واحداً من اصحاب كتب الحديث
الستة، قال ابن عبد البر: "كان ابن معين يثني عليه ويوثقه، أما

سائر اهل الحديث فهم أعداء لأبي حنيفة واصحابه . علي كل حال
يسهل اتصاله بالمحدثين سبيل تقوية مذهب أبي حنيفة بالحديث
ايضا وتطعيم المذهب ببعض آراء الحجازيين وبمخالفة أبي حنيفة
الي ماصح عنده من حديث احيانا .

٤- بما الف في الفقه، فقد روي ابن النديم انه الف كتاب
الصلاه كتاب الزكاة - كتاب الصيام - كتاب الفرائض - كتاب
البيوع - كتاب الحدود - كتاب الوكالة - كتاب الوصايا - كتاب
الصيد واللباح - كتاب الغصب والاستبراء - كتاب اختلاف
الامصار - كتاب الرد علي مالك بن أنس - كتاب رسالة في الخراج
الي الرشيد - كتاب الجوامع، الله ليحيي بن خالد «البرمكي»
يحتوي علي اربعين كتاباً، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ
به ، امال املاها، رواها بشر بن الوليد القاضي، يحتوي علي ستة
وثلاثين كتاباً مما رعه ابو يوسف .

والذي بقي لنا من ذلك كله كتاب الخراج، واقول نقلها عنه
الفقهاء من بعده وابواب نقلها عنه الشافعي في الأم .

كتاب الخراج - اسمه الخراج ولكنه يبحث في الواقع في اهم

ابواب مالية الدولة ويقول في اوله "أن أمير المؤمنين 'يد، الله تعالى سألتني ان اضع كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج العشور والصدقات والجوالي . وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به" . ويعني بالخراج ضريبة الأرض، فقد تركت الأرض المفتوحة علي ملك اصحابها، وفرض عليهم دفع ضريبة هي الخراج ويعني بالعشور ما يحصل من الاراضي التي أسلم أهلها كأرض المدينة واليمن ويعني بالصدقات الزكاة المفروضة علي المسلمين في مالهم، والجوالي الجزية علي رؤوس اليميين وامثالهم، لذلك هو يتعرض لضرائب الأرض وضرائب الرؤوس، ويفطره ذلك الي البحث في الاراضي الاسلامية ايها فتح عنوة وايها فتح صلحاً، ويتوسع في هذا الباب في قسمة الغنائم التي يحزها جيش المسلمين، وفي الأرض الموات، وفيما يخرج من البحر، وفي شئون الري ومايعرض له وفي معاملته اهل اللمة من حيث الضرائب، وبناء الكنائس والبيع والملبان . الخ .

ونجد في كتاب الخراج مصداق كل ماذكرناه عن ابي يوسف، هو يتعرض لامور من أهم شئون الدولة المالية، لايسطيع الالمام بها والوقوف علي دقائقها يبيع الغز ويجلس في السوق، ويسمونه النعمان بن ثابت الغزاز، قال الاعمش وقد سئل عن مسألة : "انما

يحسن الجواب في هذا ومثله اللعيان بن ثابت الخزاز، أراه يورك له في علمه، وقد اكسبه هذا أيضا فائدة كبرى إذ جعله يتصل بالحياة المالية العملية، فتعرف حقيقة مايجري في الأسواق ومعاملات الناس في البيع والشراء، والنقود والصرف والسلم والدين وما الي ذلك فإذا تكلم عن علم وخبرة ونظر وممارسة ومران.

الا من كان في مثل منصبه واتصاله بالخلفاء ومهام الدولة وهو واسع الاطلاع في الحديث، كثير الاخذ في الشيوخ في مختلف الامصار ومختلف الاتجاهات فهو يروي عن «بعض اشياخنا الكوفيين» و «عن بعض اشياخنا من أهل المدينة» وعن ابي حنيفة وعن مالك بن أنس، وعن الليث بن سعد، وعن عشرات غيرهم، وهو واسع الاطلاع علي اقوال الصحابة واعمالهم، ويتجلي في كتاب الخراج وقوله الدقيق علي تصرفات عمر بن الخطاب لأنه كان العمدة في هذا الباب إذ ان عمر راجع هذه المشاكل المالية عند فتحه لبلاد الفرس والروم، وسنن لمن بعده ما يحتلونه وقد ورد اسمه في كتاب الخراج نحو ١٢٣ مرة.

ويظهر في الكتاب اثر النقل والعقل معاً فهو كثير النقل عن النبي «ص» والصحابة والتابعين وغيرهم، وهو مع هذا يخالف عمر

بن الخطاب فيما قدر علي الاراضي ويرد علي اعتراض علي ذلك فيقول "لم لم ترد الناس الي ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضعه علي ارضهم وتخلهم وشجرهم، وقد كانوا بذلك راضين، وله احتملين، قال ابو يوسف: أن عمر رأي الارض في ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها، ولم يقل حين وضع عليها ماوضع من الخراج ان هذا الخراج لازم لاهل الخراج، وحتم عليهم ولايجوز لي ولعن بعدي من الخلفاء ان ينقص منه ولايزيد فيه، بل كان فيما قال لحليفه وعثمان حين اتياه بخبر ماكان استعمالهما عليه من ارض العراق: "لعلكما حملتما الارض مالا تطبيق دليل علي انها لو اخبراه انها لا تطبيق ذلك الذي حملته من اهلها لنقص مما كان جعله عليهم من الخراج فلما رأينا ماكان جعله «عمر» علي ارضهم من الخراج يصعب عليهم، ورأينا اخذهم بذلك داعياً الي جلائهم عن ارضهم وتركهم لها، لم نحملهم ما يطيقون ولم نأخذهم من الخراج الا بما تحتمله ارضهم".

ونراه يفاضل بين الاحاديث ويختار اشهرها واعمها، فيقول: "وابتعدنا الاحاديث التي جاءت عن رسول الله «ص» في مساقاة خبير لانها اوثق عندنا واكثره واعم ما جاء في خلافتها". يخالف ابا حنيفة في بعض اقواله، ويرجع الي الاثر فيقول: "وسالت يا أمير

المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر . . . وقد كان ابو حنيفة وابن ابي ليل رحمهما الله يقولان : ليس في شيء من ذلك شيء لانه بمنزلة السمك، واما أنا فاني أرى في ذلك الخمس، وأربعة أخماسه لمن أخرجه لأقد روينا فيه حديثاً عن عمر رضي الله عنه، ووافقه عليه عبد الله بن عباس فاتبعنا الأثر ولم نر خلافه".
الخ. .

محمد بن الحسن الشيباني - قال بعضهم ان أصلة من قرية في ضاحية دمشق تسمى "حمرستا" وقال بعضهم ان أصلة من الجزيرة "شمال العراق" وان أباه كان في جند الشام، وانفقوا علي انه من الموالي ونسبته الي شبيان بلولاء وأبوه ولد بواسط ونشأ بالكوفة ولد سنة ١٣٢ واخذ العلم عن ابي حنيفة ولكن الظاهر انه لم يصاحبه طويلاً فقد مات ابو حنيفة وعمر محمد نحو ثمان عشر سنة وتعلم ايضاً لابي يوسف، ورحل الي المدينة، وسمع من مالك وسمع من الاوزاعي وغيرهما، فهو كأبي يوسف تفقه بفقه اهل الرأي في الكوفة، وبفقه اهل الحديث في المدينة وغيرها، وقد جمع في دراسته ايضاً - كأبي يوسف - بين دراسة ادبية من نحو ولغة وشعر ودراسة دينية من قرآن وحديث وفقه. وقد أقام بالمدينة ثلاث سنين وبعض سنة يأخذ من مالك وشيوخ المدينة،

ومن اجل هذا كان جيد اللغة، واسع الاطلاع في نواحي التشريع المختلفة، ويظهر انه نشأ في سعة من العيش لا كأبي يوسف، فقد روي انه اتفق علي تعلمه النحو والشعر والحديث والفقه ثلاثين الف درهم، وكما روي أنه اعان الشافعي بماله وقد كان جميل المنظر حسن الملبس، فصيح القول جيد الفقه، قال فيه الشافعي "كان محمد بن الحسن يملأ العين والقلب". وقد ولي القضاء، ولاء قضاء الرقة، ورويت عنه اخبار تدل علي أنه لم يكن يداري ويحامل كما كان ابو يوسف روي الخطيب البغدادي ان الرشيد اقبل يوماً، فقام الناس كلهم الا محمد بن الحسن فانه لم يقيم، فخرج الاذن ونادي محمد بن الحسن، فجزع اصحابه له فلما خرج سئل عما كان قال: سألتني مالك لم تقم مع الناس؟ قلت كرهت ان اخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها، أنك اهلتي للعلم، فكرهت ان اخرج الي طبقة الخدمة الخ كما روي الرشيد سأله في أمان واعطاه لاحد الطالبين، واراد الرشيد ان يتحلل منه فقال محمد: هذا امان صحيح ودمه حرام، وقد تقدم الخبر بذلك وقد عزله الرشيد عن قضاء الرقة ثم استدعاه وقد مات محمد مع الرشيد في خروجه الي الري سنة ١٨٩ وقد كانت بيته وبين شيخه ابي يوسف وحشة استمرت بينهما الي الوفاة ولعل السبب اختلاف النزعتين.

وقد افاد محمد فقه ابي حنيفة من ناحيتين: ناحية اشترك فيها مع ابي يوسف من سماع المحدثين وسماع فقه المدينة وتطعيم فقه ابي حنيفة بذلك وناحية أخرى هامة جداً وهي تفريغ المسائل من الأصول وقد عرف محمد بذلك وبمهارته في الحساب بما تحتاج اليه المواريث ونحوها، ثم تدوين الفقه في كتب كثيرة وهي عماد من أتى بعد في فقه ابي حنيفة، فمن أشهر كتبه الكتب الستة: المبسوط والزيادات، والجامع الصغير، والسير الصغير، والجامع الكبير، والسير الكبير ويسمى الحنفية هذه الكتب كتب طاهر الرواية لأنها رويت عن محمد برواية الثقات وقد جمع الحاكم الشهيد هذه الكتب الستة في كتاب سماه الكافي، وشرحه جماعة منهم السرخسي في كتابه المشهور «المبسوط» وقد وصل إلينا وطبع في ثلاثين مجلداً، كما وصل إلينا كتاب الجامع الصغير لمحمد، يذكر في صدر كل باب "تمحمد عن يعقوب (أبي يوسف) عن ابي حنيفة" علي الجملة فقد كان محمد حلقة اتصال بين فقهاء الحديث وفقهاء الرأي، كما كان حلقة اتصال بين مذهب ابي حنيفة والشافعي، وكما كان له اكبر الفضل في تدوين مذهب ابي حنيفة وحفظه في الكتب، واغراف الناس منه بعد، وتأثر المؤلفين به ويكتبه.

زفر - وأما زفر العربي من تعميم كان من أشهر أصحاب أبي حنيفة وكان أمهرهم في القياس وأكثرهم لمسلكه التزاما في الرأي، كان أبوه هذيل واليا علي البصرة، وكانت أمه أمه فارسية، فورث وجهة من وجهة أمه ولسانه من أبيه وكان قوي الحجة مقدما عند أصحاب أبي حنيفة قياساً، ولد سنة ١١٠ توفي ١٥٨.

ويعجبني في المقارنة بين الثلاثة ما روي عن المزني صاحب الشافعي انه جاءه رجل فسأل عن اهل العراق، قال: ماتقول في أبي حنيفة؟ قال: سيدهم قال: "أبي يوسف؟ قال: ابتعهم للحديث، قال: فمحمد بن الحسن؟ قال أكثرهم طريفاً قال: فزفر؟ قال: احدهم قياساً.

وعلي الجملة فقد انتشر لغة أبي حنيفة في العراق، وكان طبيعياً ان يسود في العراق، فقيه نشأ ومذهب البلد أدري بما يعرض من المسائل واقدر علي حلها، وهو باعتماده علي الرأي والقياس - حيث لاصر يصح - أكثر اسعالا للفتوي فيما يجد من أحداث تتطلب سرعة في البت، ثم قدر لأبي يوسف ان يكون في منصب رئيس يستطيع ان يقدم فيه هلا الله بسلطاته، كما حظي بمحمد يدونه ويسجله، ويذكر ابن الدليم انه رزق كذلك بمحمد بن

شجاع الثلجي المتوفي سنة ٢٥٦ - وكان معتزليا ففتق فقه ابي حنيفة واحتج له وأظهر علله وفواه بالحديث وحلاه في المصور .
كما يصح ان نستنتج ان فقه ابي حنيفة تغير بعض الشيء علي يد ابي يوسف ومحمد والثلجي واضرابهم عما كان عليه في زمن ابي حنيفة نفسه، فرجعوا عي آراء له إلى الحديث الذي صح عندهم وضيّقوا حدود الرأي والقياس عما كانت عليه زمن الامام، باتصالهم بأهل الحديث وفقهاء الحديث، وبالجملة الشديدة التي شنع بها هؤلاء علي اهل العراق، وتلاقت هذه النزعة بنزعة اخري تشبهها، وهي نزعة بعض فقهاء الحديث الي الاستفادة من اصحاب الرأي، وتجلت هذه النزعة في الشافعي كما سيأتي - وبذلك قلت مسالة الخلاف التي كان يراها الرأي بين ابي حنيفة ومالك .

ب - مالك ومدرسته

هو مالك بن أنس الأصبحي المدني، والأصبحي نسبة إلى ذي أصبح نسب عربي صحيح، وبذلك قال الواقدي، ولكن محمد بن إسحاق خالفه في ذلك، وزعم أن مالكا وجده وأعمامه موالى لبني تميم بن مرة، وهذا هو السبب في تكليب مالك لمحمد بن إسحاق والطنن عليه. ولد سنة ٩٣ أو ٩٧. وتوفي سنة ١٧٩، وعاش حياته بالمدينة، ولم أعرف أنه رحل عنها إلا إلى مكة حاجا.

وقد تزيد بعضهم في أخباره، كما فعل الحنفية وغيرهم، فزعموا أن أمه حملت به ثلاث سنين «ولا أدري قيمة هذا في فضل الرجل»، ورووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يخرج الناس من المشرق والمغرب فلا يجدون عالما أعلم من أهل المدينة" الخ.

ولسنا نعرف كثيرا عن نشاطه الأولي، ودراسته العلمية في صباه، وقد ذكروا أنه أخذ عن نافع ابن نعيم، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة أشهرهم ابن شهاب الزهري، ونافع مولى ابن عمر، فابن شهاب الزهري أحد الفقهاء والمحدثين وكان من أعلم الناس في زمانه بالسنة، وقد روي عنه مالك في الموطأ [في بعض

نسخ الموطأ] مائة واثنين وثلاثين حديثاً، ونافع مولي عبد الله بن عمر أصله من الديلم، أصابه عبد الله بن عمر في غزوة غزاها فأسلم وأخذ عن ابن عمر حديثه، وكان من أشهر علماء المدينة، وقد روي عنه مالك في الموطأ ثمانين حديثاً كما أخذ عن هشام بن عروة بن الزبير، وقد روي عنه في الموطأ ستة وخمسين حديثاً، وهكذا لقي شيوخاً كثيرين وخاصة شيوخ المدينة، وأخذ عنهم.

ومن أشهر ما حدث له محنته أيام المنصور حين خرج محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم علي المنصور، وقد رويت في هذه الحادثة روايتان: أحدهما أن مالكا كان يفتي الناس بأنه لا يقع طلاق المكره، ويحدث الناس بحديث "ليس علي مستكره طلاق" ولم تكن هذه الفتوى تعجب العباسيين، لأن هذا يستتبع أن من بايع العباسيين مكرهاً فله أن يتحلل من بيعته، وله أن يبايع محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة، فرووا أن المنصور نهى مالكا عن التحديث بهذا الحديث، ثم دس إليه من يسأله، فحدث به علي رؤوس الناس فضربه بالسياط، والرواية الأخرى أن مالكا لما علا شأنه بالمدينة سعي حساده، ألي والي المدينة جعفر بن سليمان، وقالوا أنه لا يري إيمان بيعتكم هذه بشئ، وهو بحديث ثابت بن الأحنف في طلاق المكره أنه لا يجوز، فغضب جعفر ثم جرد ومد

فضربه بالسياط، ومدت يده حتي انخلعت كتفه، قالوا: فما زال مالك بعد هذا الضرب في رفعه من الناس وعلوا من امره حتي كانما كانت تلك السياط حليا حلي بها.

كما روي عنه أنه سئل عن البغاه «يعني العصاة الخارجيين علي الخلقاء» أيجوز قتالهم؟ فقال: ان خرجوا علي مثل عمر بن عبد العزيز، فليل، فان لم يكن مثله؟ فقال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما، فكانت هذه الكلمة من أسباب محنته.

علي كل حال تتفق الروايتان في ضربه، وفي اصل السبب، وتختلف في التفاصيل. وقد روينا قبل عن أبي حنيفة مثل هذا الموقف، وزيد عليه طلبه القضاء وإبلاؤه فلعل رأي أبي حنيفة ومالك كان متفقاً، وسياسة المنصور في الحالتين واحدة.

تركزت مدرسة المدينة في مالك كما تركزت مدرسة الكوفة في أبي حنيفة، فان أردنا تصوير مدرسة المدينة كما فعلنا بمدرسة الكوفة فليكن هكذا:

على ابن أبي طالب (في الكوفة)

عبد الله بن مسعود (في الكوفة)

الاسود بن يزييد النخعي
(مات سنة ٩٥)

مسروق بن الاعدع الهمداني
(مات سنة ٦٣)

علقمة بن قيس النخعي
(مات سنة ٦٣)

(مات سنة ٧٨)

عامر بن شراجيل الشعبي

ابراهيم النخعي

(مات سنة ١٠٤)

(مات سنة ٩٥)

مات سنة ١٢٠

حماد بن أبي سليمان

مات سنة ١٥٠

ابو حنيفة

زفسر

محمد بن الحسن

ابو يوسف

واكثر رجال هذه المدرسة عرفوا بالحديث والفقہ فيه فبعد
عصر الصحابة كان رأس المدرسة من التابعين سعيد بن المسيب،
وقد كان يعد وارث عمر في علمه في المدينة، وتصدر سعيد بن
المسيب، وقد كان يعد وارث عمر في علمه في المدينة، وتصدر
سعيد للفتوي، وكان لايهابها، فآثر عنه كثير من الفتاوي والآراء،
وكان يقول "ماقضي رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان
ولا علي قضاء الا وقد علمته". وجاء في الطبقة التي بعد،
الزهري ونافع فكانا أعلم اهل المدينة حديثاً وفقهاً. كل هؤلاء
كانوا يحفظون الحديث عن رسول الله، وطبيعي أن تكون المدينة
أغني من أي عصر آخر في ههنا، فالنبي كان فيها أكثر ايام
التشريع، كما كان بها من الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان،
وكانت حاضرة الخلافة في ايامهم، ومنها تصدر الآراء في المسائل
الدينية والسياسية، كما كان المدنيون أقدر علي مشاهدة التشريع
العملي، فهم أعرف بما كان النبي يفعل في وضوئه وصلاته وزكاته،
وما كان يفعله كبار الصحابة فكما كان كل جيل من العلماء يتلقي
الاحاديث المروية عن قبله كذلك كان يتلقي الاعمال وهيئاتها من
الجيل الذي قبله، فكان طبيعياً أن تكون المدينة مقر مدرسة
الحديث ولكن الذي قد يلفت النظر أن يكون بين كبار رجال المدينة
ربيعه الرأي، وهو كما يدل عليه اسمه من اهل الرأي، ومن شيوخ
مالك، وقد روي عنه في الموطأ اثني عشر حديثاً وهو فارسي

الأصل، وقد روي عنه انه جادل سعيد بن المسيب في دية الأصابع، وسعيد يتمسك بالسنة، وربيعه يعترض بالرأي، فقال له سعيد: أعراقي أنت؟ قال: لا بل عالم متثبت او جاهل متعلم، قال سعيد: هي السنة، وقد روي في ترجمته انه كان في العراق أيام السفاح وأنه قربه واستعمله، فهل أخذ الرأي عن العراقيين أيام كان بينهم؟ ظن بعضهم ذلك، ولكن يظهر أنه غير صحيح، فقد رأينا هذه النزعة عنده قبل أن يكون في العراق، لأنه بهذه النزعة جادل سعيد بن المسيب المتوفي سنة ٩٣ قبل ولاية السفاح بزمان طويل، ولأنه قد روي الرواه ان ربيعه كان يكره العراق وأهله، واستعفى ابا العباس من أجل ذلك وعاد الي المدينة، فقليل له كيف رأيت العراق وأهلها؟: "رأيت قوماً حلالاً حرامهم، وحراماً حلالهم، وتركنا بها أكثر من أربعين ألفاً يكيدون هنا الدين" فالظاهر ان نزعة الرأي عنده وليدة المدينة نفسها، فالصحابة الذين كانوا بالمدينة منهم من كان يعمل العقل حيث لاقى كما تقدم في سيره عمر بن الخطاب، ومنهم من لا يميل الي ذلك كابنه عبد الله بن عمر، ولا شك ان النزعتين يقيتا، وتأثر بهذه، قوم، وهذه آخرون، ولكن كان لون الحديث ابيض وواضح، وكان وجود ربيعه الرأي بينهم علماً علي اللون الآخر، وسنري اثر ذلك حتي في فقه مالك.

وكان طبيعياً كذلك ان تكون المسائل التي تعرض لفقهاء المدينة أقل عدداً لتخرج المدنيين من الفتوى اذا قيسوا بالعراقيين، ولأن المشاكل القانونية والمسائل الفقهية تدور مع المدينة، ولأن المدينة كانت أقرب الي بساطة العيش وأبعد عن تعقيدات الحضارة، وكان مآثر عندهم من حديث كثير كافياً في أغلب الاحيان كل مايعرض من اشكال.

منحي مالك في الاجتهاد - كان مالك لايشترط في الحديث ما اشترطه ابو حنيفة من الشهرة وغيرها، بل يعمل بخبر الواحد اذا صح أو حسن، وهذا المبدأ يجعل الأحاديث التي يتبني عليها مذهبه أكثر عدداً، فلا يتطلب في الحديث شهرة، وانما يتطلب صحة السند ونحوها، ولا يفهم من هذا تساهله في قبول الحديث من غير تحر أو تدقيق، بل هو شديد التحري ولكن لايشترط شهرة الحديث وعمومه، روي عنه أنه قال: "لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين، واشار الي مسجد رسول الله ﷺ فما أخذت عنهم شيئاً، وان أحدهم لو اتهم علي بيت مال لكان أميناً، الا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن" وكان يقول: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم، لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الي بدعته، ولا من كذاب يكذب في

أحاديث الناس وان كان لا يهتم علي حديث رسول الله «ص» ولا من شيخ له فضل وملاح وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث .

وقد جمع الموطأ وظل سعين يحرره، ويحذف منه الحديث الذي يتبين له عدم صحته، ولكن مع هذا كله كانت دائرة الصحة عنده اوسع من دائره ابي حنيفة .

ومسألة أخرى هي عنده أساس للتشريع، وهي عمل أهل المدينة . كان مالك يدل بعمل أهل المدينة، ويرى أنهم أدري بالسنة وبالناسخ والمنسوخ ويقول في كتابه لليث بن سعد: " ان الناس تبع لأهل المدينة اذا اتفقوا علي عمل مسألة واتفق مع العمل علمالها فهذا العمل حجة يقدم علي القياس، بل ويقدم علي الحديث الصحيح، أما اذا لمي كن عملا اجماعياً، بل عمله أكثرهم، فهذا العمل ايضاً حجة يقدم علي خبر الواحد لان العمل بمنزلة الراوية، فعمل الأكثر بمنزلة رواية الأكثر، فالذا جاء خبر واحد يخالفهم كان الراجع أنه منسوخ، علي أن ينبغي التفرقة بين اجماعهم علي العمل النقلي والاجتهادي فالنقلي كنقلهم تعيين محل منبر النبي «ص» وقبره ومحل وقوفه للصلاة، وكتعيينهم مقدار المد والصاع والأوقية في عهد رسول الله «ص»، ونقلهم كيفية الأذان

والاقامة هل كانت مثني أو فرادي، والاجتهادي كأجتهاد المدنيين في بطلان خيار المجلس ونحوه، فالأول لأغلاف في حجته عند مفسري مذهب مالك، والثاني مختلف فيه عندهم، وهذه التفرقة معقولة، فالأعمال التي يجمع عليها أهل المدينة كتحديد المكاييل والموازين، وأشكال الأعمال التي عملها الرسول [ص] الأرجح فيها أن الجيل التالي من سكان المدينة نقلها عن الجيل الأول كما هي فإن ضاقت دائرة الحديث واتسعت دائرة الرأي عند الأولين كان الأمر علي العكس عند الآخرين، أما عدد الدوائر نفسها فتكاد تكون واحدة.

أكبر آثار مالك التي نقلت إلينا "الموطأ" و"المدونة"

الموطأ - فأما الموطأ فكتاب الله مالك، فيه مظهر للحديث ومظهر للفقه، فمظهر الحديث أن أغلب ما فيه حديث عن رسول الله [ص] أو الصحابة أو التابعين، أخذ هذه الأحاديث عن رجال عديدين بلغوا نحو خمسة وتسعين رجلاً، كلهم مدنيون إلا ستة: اثنان بصريان ومكي واحد، وخرساني وجزري وشامي. والأحاديث التي يرويها عن

هؤلاء الستة قليلة جداً، فمنهم من يروي له الحديث ومنهم من يروي له الحديثين، وقد لقيهم مالك أما في المدينة أو في مكة . أما من عدا هؤلاء الستة فمديون يروي عنهم مالك، بعضهم يروي له كثيراً كابن شهاب الزهري، ونافع، ويحيى بن سعيد، وبعضهم يروي له الحديث الواحد أو الاثنين أو الثلاثة، وحتى الصحابة التي يروي لهم أكثرهم ممن أقام بالمدينة طويلاً - حتى روي أن الرشيد قال لمالك لم لم تر في كتابك ذكراً لعلي وابن عباس، فقال: لم يكونا ببليدي، ولم ألق رجالهما وهذا الخبر مشكوك فيه، ولكن مما لا شك فيه أن روايته عنهما في الموطأ مسندة وبعضها مرسل، ومتصلة ومنقطعة، وبعضها مما يسمى بالذات، وهو مايقول فيها مالك بلغني أو نحوه من غير أن يعين من روي عنه فيقول: بلغني عن سعيد بن يسار عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله غصوما إذا قرب العهد كما رجحوا عند الخلاف أعمال المكيين في مناسك الحج لأنهم بها أدري، أما المسائل الاجتهادية فالأمر فيها سواء بين مجتهدي الصحابة والتابعين من المدنيين والكوفيين والشاميين والمصريين . وقد نقل مالك أجماع أهل المدينة في موطئه علي بن زيد وأربعين مسألة، وقد خالف مالكا في حجه عمل أهل المدينة الليث بن سعد في رسالته الي مالك والشافعي في الأم وناقشاه مناقشة قيمة ممتعة .

ومن مسلك مالك في التشريع، العمل بقول الصحابي أن مع نسبته إليه وكان من اعلام الصحابة - كالخلفاء الراشدين، ومعاذ بن جبل، وابن عمر وكان لم يرد في المسألة عينها حديث عن النبي صحيح. وقد رد عليه في ذلك بأن الصحابة ليسوا محل العصمة، ويجوز عليهم الغلط، وبأن قول الصحابة لو كان حجة لزم التناقض، لأن كثيراً ماصح في المسألة الواحدة آراء مختلفة للصحابة وقد رأينا قبل مسلك أبي حنيفة في أقوال الصحابة الخ.

ومن هنا نرى أن هذين الأصلين، اعني عمل أهل المدينة وقول الصحابي قد غزيا فقه مالك بأثار كثيرة كان من شأنها تضيق دائرة الرأي، ومع هذا فلم ينكر مالك الرأي بتاتا، فمن أصول مذهبه القول بالمصالح المرسلة او الاستصلاح، وقد تقدم الكلام فيه، ومن هذا القبيل ماقاله من الضرب عند التهمة للاعتراف بالسرقه، ورويت عنه اقوال دليلها الاستحسان، كتضمنين الصانع وثبوت الشفعة في بيع الثمار فمن هذا نرى ان مسالك الائمة من اصحاب الرأي واصحاب الحديث تكاد تكون واحدة في العدد، ولكن الاختلاف انما هو سعة الدوائر وضيقتها صلي الله عليه وسلم قال . الخ .

أو يقول عن الله. عندي عن عمر بن شعيب الخ. وقد جمع .
مالك احاديث كثيرة، ثم كان يختار منها عليهما السنين، فقد روا
ان مالكا "جمع في الموطأ اربعة الاف حديث أو اكثر، ومات وهي
الف ونيف يخلصها عاما عاما بقدر مايري انه اصلح للمسلمين وأمثل
في الدين" . وقد رواوا أنه شغل به نحو اربعين عاماً وأما ناحية
الله فيه فإنه رتبته ترتيب الله، فكتاب الطهارة، ثم كتاب الصلاة
ثم كتاب الزكاة، ثم الميام وهكذا، وفي كل كتاب من هذه فصول،
كل فصل يجمع المسائل المتشابهة كصلاة الجماعة، ومائة المسائل
الخ. .

وأيضاً يزيد علي الحديث أحياناً استنتاجه الفقه من .
وطريقته في التأليف أن يذكر الأحاديث المتعلقة بالموضوع
الواحد، وقد يعتب الحديث بتفسير كلمة لغوية فيه، وأحياناً يعقبه
بأنه سئل في كذا فاجاب بكذا استناداً الي آية أو حديث أو قياس،
سئل مالك عن الحائض تطهر فلا تجد ماء هل تتيمم؟ قال: نعم،
لتتيمم فإن مثلها الجنب اذا لم يجد ماء تيمم" . وأحياناً يعقبه
بتفريع مسائل وذكر حكمها، كأن يقول بعد أحاديث السرقة " .
وليس علي الاجير ولاعلي الرجل يكونان مع القوم [السارقين] قطع .
لأن حالهما ليست بحال السارق، وإنما حالهما حال الخائن، وليس علي

الغائن قطع "والامر عندنا في السارق يوجد في البيت قد جمع
المتاع ولم يخرج به انه ليس عليه قطع وانما مثل ذلك كمثل رجل
وضع بين يديه خمرأ ليشربها فلم يفعل فليس عليه حد" . الخ
واحيانا لا يبدأ بالحديث، بل يذكر المسألة ويذكر حكمها ودليله
علي هذا الحكم، واحيانا يذكر في المسألة حكم علماء المدينة،
فيقول "الامر الذي لا اختلاف فيه عندنا كلها" ، الخ، الخ .

فهو لهذا كله كتاب حديث وفقه معاً . وقد روي الموطأ روايات
مختلفة تختلف في ترتيب الأبواب، وتختلف في عدد الأحاديث
حتى عدها بعضهم عشرين نسخة وبعضهم ثلاثين، واختلافها
رواياتها عن مالك، وسبب الاختلاف علي ما يظهر - ان مالكا لم
ينته من نسخة يؤلفها ويوقف عندها، بل قد كان دائم التغيير فيها
لما رويها قبل من أنه كان دائم المراجعة للأحاديث وحذف ما لم
تثبت صحته، منها، فالذين سمعوا الموطأ سمعوه من مالك في
أزمان مختلفة فكان من ذلك الاختلاف في النسخ . وقد بقي من هذه
النسخ بين أيدينا رواية يحيى بن يحيى الليثي، وهي التي شرحها
الزرقاني، ورواية محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة،
ولها أشياء كثيرة ليست في رواية يحيى، وهو يمزج ما روي عن
مالك بأرائه، فكثيراً ما يقول: "قال محمد" .

وقد روي أن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سعدة الماجشون سبق مالكا فعمل كتابا ذكر فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة، [ويعني آراءهم وفقههم] عمل ذلك من غير حديث، وراه مالك فقال: "ما أحسن ما عمل، ولو كنت أنا الذي عملت ابتدأت بالآثار، ثم سددت ذلك بالكلام". ويظهر أنه أنقل فكرته بعد خالف الموطأ علي هذا المذهب رسمه: بدء بالحديث غالبا، ثم تثنيه بعمل أهل المدينة أو تفريع الفروع واستنتاج حكمها.

وعلي كل حال فكتاب الموطأ يعد من أوائل الكتب التي ألفت في الحديث والفقه وقد نشره الآخذون عن مالك في الأندلس، فمحمد بن الحسن في العراق ويحيى بن يحيى الليثي في الأندلس، وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم وأشهب في مصر، وأسد بن الفرات في القيروان. الخ وكان له أثر كبير في الحركة العلمية الدينية علي اختلاف العصور.

المدونة - أما المدونة فهي مجموعة رسائل تبلغ نحو ستة وثلاثين ألف مسألة، جمعها أسد بن الفرات النيسابوري الأصل التونسي الدار، وكان تلميذا لمالك سمع منه الموطأ ثم رحل الي

العراق، وفعل في العراق كما فعل محمد بن الحسن في المدينة
كلاهما مزج الفقهين، وقهق بين المدرستين، فقد لقي أسد بن
الفرات صاحب أبي حنيفة أبا يوسف ومحمدا، وسمع منهما الفروع
علي الطريقة العراقية، ثم ذهب إلى مصر ولقي أصحاب مالك بها،
ولاسيما ابن القاسم، وعرض عليهم هذه الفروع ونحوها، وسمع منهم
حكمها علي مذهب مالك، أما حسب ما سمعوا من مالك، وأما اجتهاد
علي أصوله ومنحاه، وجمع أسد بن الفران ذلك كله في كتاب سمي
المدونة، ثم رحل بها أسد إلى القيروان فأخذها عنه سحنون الفقيه
المغربي، وعاد بها إلى مصر سنة ١٨٨ فعرضها علي ابن القاسم
وأصلح فيها مسائل، وكانت لها جمعها أسد بن الفران غير مرتبة
ولا مبوبة فرتبها سحنون وبوبها، واحتج لبعض مسائلها بالآثار،
وعاد بها القيروان وانتشرت منها إلى الأندلس، وكان لها الفضل في
نشر مذهب مالك في قطري المغرب والأندلس.

فالمدونة كما ترى متأثرة بالعراقيين في تفريغ المسائل
وتوليدها، وبالحجازيين في تطبيق مذهب مالك عليها، ومن هذا ترى
كيف كان الزمن والرجال والرحلات تعمل علي استفادة كل مذهب بما
للآخر، فالمدونة ليست إذن من تأليف مالك، وإنما هي جمع لفتاوي
مالك في مسائل، واجتهاد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه في وضع

احكام لمسائل علي قواعد ومبادئه.

وقد كان لمالك اصحاب اكثر عظمائهم مصريون كعبد الله بن وهب وابن القاسم وأشهب وعبد الله بن عبد الحكم، ومن عظمائهم اندلسي كبير، وهو يحيى بن يحيى الليثي.

فالأربعة الأولون كانوا عماد المدرسة الدينية في مصر لعهدهم، وكانوا مع أخذهم عن مالك يجتهدون ويخالفون أحياناً، كما خالف أبو يوسف ومحمد أبا حنيفة، وكما خالف المزني والبطي الشافعي. وأما يحيى بن يحيى الليثي فأصله من قبيلة بريرة يقال لها مصودة، ونسب إلى بني ليث بالولاء، رحل إلى المدينة وسمع من مالك، ورحل إلى مكة وسمع بمصر من الليث بن سعد وابن القاسم، ورجع إلى الأندلس بعد ماكمل علمه، فكان عالم الأندلس وعظيمها ووجيهها، وإليه الفضل في نشر مذهب مالك في الأندلس، فقد كان - كما قال ابن حزم - : "مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاء، فكان لايلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره". ولايشير إلا بأصحابه ومن كان علي مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا علي مايرجون بلوغ أغراضهم به، علي ان يحيى ابن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك

زائدا في جلالتة عندهم، وداعيا الي قبول رأيه لديهم"، وهو صاحب الفتوي المشهورة لأمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم، فقد وقع علي جارية له في رمضان، فأفتي ان يكفر بصوم شهرين متتابعين. وسئل لم لم تفتة بمذهب مالك، فعنده أنه مخير بين عتق رقبة وأطعام ستين مسكينا وصوم شهرين؟ فقال: لو فتحنا له هذا الباب لسهل عليه هذا العمل، ويعتق فيه رقبة، ولكن حملته علي اصعب الأمور الثلاثة يعود - وتعد روايته للموطأ أصح رواية، وهي التي بين أيدينا وقد خالف مالكا في مسائل ذهب فيها الي مذهب الليث بن سعد، فلم ير القضاء بالشاهد مع اليمين كما رأي مالك، وقال لابد من شاهدين رجلين أو رجل وأمرأتين أتباعا لليث، وكان يري جواز كراء الأرض بجزء مما يخرج منها كما يري الليث".

وعلي الجملة فان كانت مدرسة ابي حنيفة قد وسعت الفقه بكثرة الفروع، وبما يستلزمه ذلك من رأي وقياس واستحسان، ومواجهة المشاكل المعقدة التي قدمتها لها المدينة الضخمة، والتي قدمتها لها بقايا الأمم الممددة في العراق من آشوريين وكلدانيين

وفرس وغيرهم، فان مدرسة مالك قد اثرت في الفقه بما نقلت من
أحاديث كانت وافرة فيها بحكم قيام الرسالة فيها . وكثرة الصحابة
بها . وبما قدمت من أشكال وأوضاع تناولها سكان المدينة جيلا عن
جيل، وأهل المدينة في ذلك أوثق، فقد شهد الاولون منهم النبي
يتوضأ علي نحو خاص ويصلي علي نحو خاص، وعرفوا مقدار
المكايل والموازين التي كانت تستعمل لعهد . فنقلوا ذلك كله الي
من بعدهم من طريق الأخبار احيانا، ومن طريق التورث أحيانا
أخري، وتسلسل ذلك الي مالك ومدرسته، ثم كان من أصحاب
المذهبين من ينتفع بهزايا كل، فيرحل محمد بن الحسن الحنفي الي
المدينة يمكث فيها ثلاث سنين ويروي الموطأ، ويعود الي العراق
مزودا بالاثار، ويذهب اسد بن الفرات ويمكث في العراق طويلا،
ويعود الي مصر والقيروان مزودا بكثرة الفروع، وبذلك وأمثاله
تأثرت المدرستان، وتقارب المذهبان .

ج - الشافعي ومدرسته

الشافعي هو محمد بن ادريس، قرشي من جهة الأب، يلتقي مع النبي «ص» في عبد مناف، وقد روي الجرجاني «وهو من الحنفية» عن أصحاب مالك أن شافعاً جد الشافعي والذي ينسب إليه لم يكن قرشي الأصل، وإنما كان مولي لآبي لهب وعلي ذلك يكون الشافعي مولي، ولكن قوله هذا لم يقره عليه علماء الأنساب، والظاهر أنه حملة علي ذلك العصبية المذهبية فالصحيح أنه قرشي، والراجح أن أمه ازدية، والأزد من اليمن، وكان أبوه خرج في حاجة إلى الشام فولدت له الشافعي بغزة أو عسقلان سنة ١٥٠ ، ثم مات أبوه فحملته أمه إلى مكة وهو ابن لسنتين، وقد نشأ فقيراً كما حدث هو عن نفسه . وروي عنه أنه قال كنت يتيماً في حجر أمي ولم يكن لها مال، وكان المعلم يرضي من أمي أن أخلفه إذا أم، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة، وكانت دارنا في شعب الخيف، فكنت أكتب في العظم فإذا كثر طرحته في جرة عظيمة "وفي رواية" لم يكن لي مال فكنت أطلب العلم في الحدائق، فأذهب إلى الديوان فاستوهب منهم الظهور فأكتب فيها .

قال " وخرجت من مكة فلزمت هذيلًا بالبادية اتعلم كلامها
واخذ اللغة وكانت الفصح العرب " وقد افادته الإقامة في البادية
مع قرشيته معرفة واسعة باللغة والشعر، واعانته علي تفهم معاني
القرآن والسنة، فنراه يستشهد علي أن السعي معناه العمل في قوله
تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾
بقول زهير: سعي بعدهم قوم - لكي يدركوهم - فلم يفعلوا ولم
يليموا ولم يألوا وبأن السر معناه الجماع في قوله: " ولكن لاتواعد
هؤمهم سرا " بآيات لأمرى القيس وجريز الخ. كما أفادته قوة
التعبير وعربية رصينة في الأسلوب وذوقا دقيقا، حتي لقد قرأ
عليه رجل فالحن، فقال له الشافعي : " افرستني " وقد روي ان
الاصمعي اخذ عنه شعر الهذليين وشعر الشنقريين ثم اتجه الي
الحديث والفقه، فأخذ في مكة عن سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد
الزنجي، وحفظ الموطأ ثم رحل الي مالك في المدينة وسمع منه
الموطأ، وأخذ عنه فقه، ولأزمه الي ان مات مالك سنة ١٧٩ ثم
وخرج الي اليمن، وقد كر في رحلته اليها اسباب كثيرة أقر بها
أن والي اليمن جاء مكة فكلمه بعض القرشيين أن يأخذ الشافعي
ويولية بعض الأعمال، ففعل وولاه بعض الأعمال، ثم اتهم بالتشيع
وامتحن، والروايات كذلك مختلفة: هل اتهم هذه التهمة وهو
باليمن أو بعد أن عاد الي الحجاز فان ابن عبد البر يروي انه اتهم

بالتشيع والميل الي مبايعة علوي وهو بالحجاز وابن حجر يروي روايات مختلفة كلها متفقة علي أنه اتهم بذلك وهو في اليمن، والكل متفقون علي النتيجة وهي انه حمل في هذه التهمة الي هارون الرشيد، فنفي الشافعي التهمة وعفا عنه الرشيد وكان ذلك نحو سنة ١٨٤، وسن الشافعي نحو اربع وثلاثين سنة ثم قدم بغداد سنة ١٩٥ واقام بها سنتين ثم رجع الي مكة ثم قدم بغداد سنة ١٩٨ فأقام فيها اشهرًا، ثم خرج منها الي مصر سنة ١٩٩ وظل بها الي أن مات سنة ٢٠٤ وفي اثناء اقامته بالعراق اتصل بمحمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة وأخذ عنه فقه العراقيين، وقال ابن حجر: "انتهت رئاسة الفقه بالمدينة الي مالك بن انس حل اليه «الشافعي» ولأزمه وأخذ عنه، وانتهت رئاسة الفقه بالعراق الي ابي حنيفة فأخذ «الشافعي» عن صاحبه محمد بن الحسن جملا ليس فيها شيء الا وقد سمعه عليه فاجتمع له علم اهل الرأي وعلم اهل الحديث فتصرف في ذلك حتي اصل الأصول، وقعد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف واشتهر امره وعلا ذكره وارتفع قدره حتي صار منه ما صار".

وقد خلف لنا الشافعي في كتاب الام وصيته التي أوصي بها قبل ان يموت فتاريخها صفر سنة ٢٠٣ يقول فيها: "هنا كتاب

كتبه محمد بن ادريس ابن العباسي الشافعي في حجة منه وجواز من أمره، ان الله رزق ابا الحسن [ابن الشافعي] مالا فاخذ منه بن ادريس من مال ابنه أربعمائة دينار جيادا صحاحا مثاقيل وضمنها. محمد بن ادريس لابنه " وفي هذه الوصية تصدق علي ابنه بثلاثة أعبد كان يملكها الشافعي وصيف اشقر خصي يقال له صالح ، ووصيف نوبي خباز يقال له بلال وعبد فراني، وتصدق عليه بأمة شقراء كانت له - وفي هذه الوصية ايضا تصدق بحلية وقد عددها في الوصية - وتصدق بمنزلين له في مكة وقفهما علي ابنه، ثم من بعده لأولاد ابنه الذكور والإناث الخ.

وله وصية أخرى في شعبان من هذه السنة، أوصي فيها بماله وقسمه أسهما وبين مايفعل بعبده وجواريه، ومايعطون من ماله، ومايعطي للفقراء آل شافع.

وهذه الوصايا تدل عل ان حالته المالية في مصر كانت لا بأس بهاوان لم تبلغ درجة الغني.

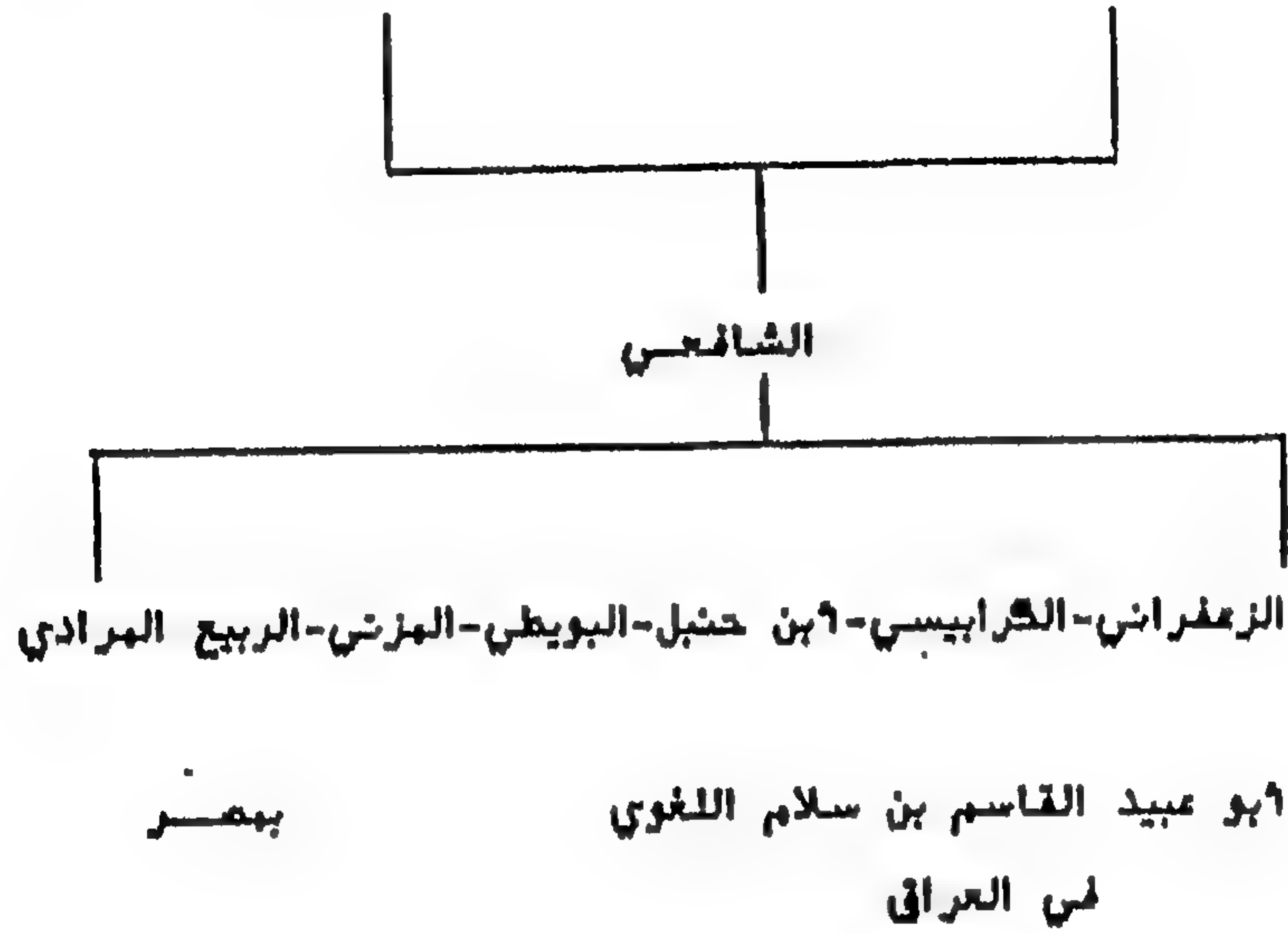
وأما صفاته العقلية واللسانية فيكاد المؤرخون يجمعون علي عذوبة منطقته وحسن بيانه وذكائه وقدرته الفائقة علي الجدل وقوته

في التفكير ومهارته في الاستنباط.

اذن ثقافته ثقافة في اللغة والأدب واسعة، وثقافة في الحديث وحل في طلبه الي بلاد كثيرة، وثقافة في الفقه علي نمط مدرسة الحجاز وثقافة في الرأي علي نمط مدرسة العراق، وثقافة اجتماعية في مشاهدته لحياة البدو في البادية والحضارة الاولى في الحجاز واليمن، والحضارة المعقدة المركبة في العراق ومصر وحياة الفقراء من البدو والزهاد من المحدثين، ومن أخذوا بحظهم من الدنيا كمحمد بن الحسن الشيباني في العراق، وابن عبد الحكم في مصر، ورؤية لأنماط من الحياة الاجتماعية والاقتصادية مختلفة، تتطلب أنواعاً من التشريع مختلفة فالمصريون يتعاملون أنواعاً من المعاملات لايتعاملها اهل العراق والمصريون والعراقيون يشتركون احيانا فيما لايشترك معهم فيه الحجازيون ونظام الري لليل في مصر غير نظام دجلة والفرات في العراق، وذلك سيتتبع اختلافاً في العراج وما اليه كلاهما يختلف في ذلك عن بلاد لاتعرف أنهارا كالحجاز، كل هذا وأمثاله كان له اثر كبير في تكوين المذهب الشافعي، فان نحن أردنا ان نخطط رسماً بيانياً لمدرسته كما فعلنا من قبل كان هذا يسيراً سهلاً.

مدرسة مالك «السابقة» مدرسة أبي حنيفة «السابقة»

مدرسة مالك (السابقة) مدرسة أبي حنيفة (السابقة)



وكان الشافعي في أول أمره يعد تلميذا لمالك، ومتبعاً لمذهبه
وتعاليمه واحد رجال مدرسته، وما زال كذلك إلى سنة ١٩٥ حيث
قدم بغداد قدمته الثانية فهناك بلغ مبلغ مؤسس مذهب يدعو إليه
والظاهر أن أقوى ما أثر فيه اتصاله في قدمته الأولى بأصحاب أبي
حنيفة واستفادته من كتب محمد وعلمه بطريقة أهل العراق فقد

رأي من غير شك ان طريقتهم لا يحسن اخذا كلها، ولا تركها كلها فعندهم القياس وهو منهج صحيح، لكنه في نظره ليس علي اطلاقه بل لابد أن يتأخر عن الأحاديث الصحيحة، حتي ما كان منها غير آحاد، وعندهم طريقة التفرع وتوليد المسائل الكثيرة من أصولها وهي طريقة جيدة وعندهم الجدل والاستدلال بالعدالة والمصلحة، والحاق الشبيه بالشبيه وما بين الأشياء من فروق وموافقات والمناظرة في ذلك وتأليف الحجج وقد رأي ذلك حسنا، ورأي نفسه في استعداد جيد للدخول في هذا الباب والتفوق فيه، فاقتبس من ذلك أحسنه، واطافه الي ثروته العجازية من اللغة والأدب أولا، والحديث واجماع اهل المدينة وطريقة العجائزين في الاستنباط ثانيا.

هاتان الناحيتان قد استفاد منهما الشافعي، والك بينهما بشخصيته فاخرج مذهبها جيدا دعا اليه في العراق سنة ١٩٥ وتبعه عليه بعض اصحابه البغداديين مثل ابي علي الحسين بن علي الكرايسي. وكان من مشاهير علماء العراق وله مصنفات كثيرة مات سنة ٢٥٦ ومثل ابي ثور الكلبي وقد صحب الشافعي في بغداد وأخذ عنه، والك في مسائل الاختلاف بين مالك والشافعي، وكان أميل الي الشافعي في كتبه، وكأي علي الزعفراني كان يقرأ كتب

الشافعي التي ألفها قبل قدومه مصر- ولكن يظهر ان الشافعي لم يجد لمذهبه في العراق نجاحاً كبيراً لمزاحمة الحنفية له ولما له من جاه وسلطان وقوة، فتحول الي مصر، قال الزعفراني: لما أراد الشافعي الخروج الي مصر أنشد لنفسه:

أخير أرى نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها أرض المهامة والقفر
فو الله ما أرى الفوز والغني أساق إليها أم أساق إلى قبري

قال الزعفراني: فو الله لقد سبق اليهما جميعا وسأل الشافعي الربيع عن اهل مصر قبل ان يرحل اليهم فقال له الربيع: هم فرقتان: فرقة مالت الي قول مالك وناضلت عنه وفرقة مالت الي قول ابي حنيفة وناضلت عنه، فقال الشافعي ارجو أن أقدم مصر ان شاء الله فاتيهم بشئ اشغلهم به عن القولين جميعاً فقال الربيع: نفعل ذلك والله حين دخل مصر وقد اقام بمصر نحو أربع سنوات أملي فيها كثيراً من كتبه.

منحاه في الاجتهاد - لعل خيراً ما يلخص مسلكه مذكره هو
اذ قال: "الأصل قرآن وسنة فان لم يكن فقياس عليهما، واذا
اتصل الحديث عن رسول الله «ص» وصح الأسناد منه فهو سنة،

والاجماع اكبر من الخبر المفرد والحديث علي ظاهرة، واذا احتمل معاني فما أشبه منهما ظاهرة اولها به واذا تكافأت الاحاديث فاصحها اسنادا اولها وليس المنقطع بشئ ماعدا منقطع ابن المسيب ولا يقاس اصل علي اصل ولا يقال للأصل لم وكيف وانما يقال للفرع لم فاذا صح قياسه علي الأصل وقامت به الحجة .

أظهر مزايا الشافعي انه علي اثر مارأي من صور مختلفة للتشريع، وتباين بين نمط الحجازيين والعراقيين، وماكان له من جدل ومناظرات بين هؤلاء وهؤلاء، عمد الي ان يحدد موقفه تحديدا دقيقا امام هؤلاء وهؤلاء، رأي موقف الحجازيين ازاء الحديث غير موقف العراقيين، فسأل نفسه، وماموقفه؟ ورأي موقف الحجازيين ازاء القياس والاستحسان غير موقف العراقيين، فاراد ان يتعرف موقفه من ذلك، ورأي مثل هذا في اجماع اهل المدينة واجماع العلماء عامة فحاول ان يضيبط ذلك كل هذا نقله من الفروع الي الأصول، وهذه من غير شك خطوة جديدة في التفكير فاذا فرغ من وضع خطة في اصل هاجم مخالفها ولافرق عنده بين ان يكون مخالفه حجازيا أو عراقيا . ولافرق بين ان يكون استاذة الذي أخذ عنه العلم، أو انسانا لايعرفه .

ولنسق لذلك بعض الأمثلة، فقد فكر في الحديث وراي نفسه
امام جماعة ينكرون الأخذ بالحديث بتاتا وجماعة يميلون به بشروط
طويلة وجماعة يعملون به في سهوله فوضع لهم خطة خلاصتها: انه
اذا حدث ثقة عن ثقة عن رسول الله ولم يكن هناك حديث يخالفه
عمل به فاذا كانت هناك احاديث مختلفة نظروا هل فيها ناسخ
ومنسوخ كان يتأخر احدها في الزمن، ويثبت بدليل ان الحديث
الاخير نسخ ما قبله فيعمل بالناسخ، فان لم يكن ناسخ ولا منسوخ نظر
في اوثق الروايات وامعنها في الصحة فعمل بها فان تكافأت
عرضها علي اصول القرآن والسنة الثابتة وعمل بها كان من الحديث
اقرب الي ذلك، واذا ثبت الحديث عن رسول الله لا يترك هذا
الحديث لاي قياس ولا لاي اي ولا لاي اثر يروي عن صحابي كالنا
من كان وتابعي كالنا من كان.

فلما وصل الي هذا الامل استعرض موقف الحجازيين والعراقيين
لراي في كليهما مخالفة له فهاجمها . هاجم مالكا وانتقده لانه ترك
احيانا حديثاً صحيحاً لقول واحد من الصحابة او التابعين او لراي
نفسه . وكان اشد نقد موجه له لمالك انه ترك قول ابن العباس في
مسألة الي قول عكرمة مع ان مالكا يسن القول في عكرمة ولايري
لاحد ان يقبل حديثه . قال الشافعي: "والعجب ان يقول في عكرمة

مايقول ثم يحتاج الي شئ من علمه يوافق قوله فيسميه مرة ويسكت عنه أخرى.

وهاجم بهذا المبدأ ايضا العراقيين، لانهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً، ويقدمون القياس علي خبر الأحاد وان صح سنده، وأنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنها غير مشهورة، وعملهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث بدعوي أنها مشهورة، ومن أمثلة ذلك ايضا انه وقف في القياس موقفاً وسيطاً لم يتشدد فيه تشدد مالك ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة فهو يقول: "ان جهة العلم الكتاب والسنة والاجماع والآثار، ثم القياس عليها . . ولا يقيس الا من جمع الآلة التي له القياس بها- وهي العلم بأحكام كتاب الله عز وجل فرضه وأديه وناسخه ومنسوخه وعامة وخاصة . . ولا يجوز لأحد أن يقيس حتي يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف واجماع الناس واختلافهم، ولسان العرب، ولا يكون له ان يقيس حتي يكون صحيح العقل، وحتى يفرق بين المشتبه ولا يعجل بالقول به دون التثبت ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه، لأنه قد ينتبه بالاستماع بترك الغفلة، ويزداد به تثبتاً فيما اعتقد من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والانصاف من نفسه حتي يعرف من أين قال مايقول وترك مايترك".

وهو علي هذا الاساس قد أنكر الاستحسان وهاجم القائلين به
ويظهر من مجموع قوله انه يعني بالاستحسان مجرد الرأي من غير
أن يكون مستنداً الي أصل شرعي، وشبه المستحسن في اثناء كلامه
بالتاجر يقدر للشئ ثمناً من غير ان يدخل السوق ويعرف أسعار
اليوم. فتقديره لا يبني علي اساس كذلك الفقيه يستحسن من غير أن
يرجع في استحسانه الي اصول الشريعة ولذلك هاجم مالكا في قوله
بالمصالح المرسلة، وهاجم الحنفية في قولهم بالاستحسان.

وهكذا سار الشافعي علي هذا المنوال، حدد موقفه بقواعد،
وهو عمل فيما نعلم لم يسبق اليه، وقد كان لرحلته الي المدينة
ومكة واليمن والعراق مرارا ومصر أثر في ثروته اتساع ثروته في
الحديث، فلم يقتصر علي الحديث الشائع في الحجاز كما فعل مالك،
بل ضم اليه كثيرا من الحديث الشائع في هذه البلدان الأخرى، وهذه
الرحلات كذلك جعلته لا يتعصب لأهل المدينة، ولا يعترف بالحجة
التي جعلها مالك أصلاً من اصول مذهبه، وهي اجماع أهل المدينة
علي حين انه نفسه يروي أحاديث ضد الاجماع، فيقول مالك: "ان
الناس أجمعوا علي أن لا سجدة في سورة الحج إلا مرة واحدة، مع
انه يروي عن عمر وأبن عمر انها سجدا في سورة الحج مرتين

الخ.

ولم يسلم الشافعي من تهجم بعض العلماء عليه في حديثه كابن معين فقد أكثر فيه القول وقال فيه ابن عبد الحكم: انه كان يروي عن الكنايين والبدعيين فروي عن ابراهيم بن يحيى مع انه كان قديرا، وروي عن اسماعيل بن عليه مع انه طعن فيه، وقالوا: ان البخاري ومسلما لم يرويا عنه شيئا في صحيحهما، ولولا انه كان ضعيفا في الرواية لرويا عنه، وان مذهبه ان المراسيل ليست بحجة وقد ملا كتبه من قوله اخبرنا الثقة، أخبرني من لا اتهمه الخ. وقد دافع أصحاب الشافعي عن هذه الأقوال دفاعا شديدا، ومع هذا كله فقد كان الشافعي اقرب الي المحدثين وهم اليه اميل. ولئن فاقه بعضهم في معرفة الحديث وأسانيده ورجاله فقد فاقهم بفقته في الحديث حتي روي عنه انه قال لأحمد بن حنبل: انتم أعلم بالأخبار الصحاح منها، فاذا كان خبر صحيح فأعلمني حتي أذهب اليه. كان المحدثون أميل الي الشافعي لانه توسع في استعمال الحديث والاستدلال به أكثر مما فعل مالك وأبو حنيفة وحد من الرأي والقياس وضيق سلطتها ولذلك كان من أنصاره أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وغيرهما من كبار المحدثين، كما انه كان اقرب الي نفوس الحنفية من المحدثين وفقهاءهم، لانه لم ينكر القياس

جملة بل قال به وتعد القواعد حتي لقد عدل بعض فقهاء العراق عن مذهب ابي حنيفة الي مذهبه، ولعل هذا الموقف - وهو تقريبه وجه النظر بين المدرستين: مدرسة الحجاز ومدرسة العراق، وانتخابه مارأي الحق في كليتهما هو اوضح ظاهرة في مدرسة الشافعي:

قال الرازي: "ان الناس قبل الشافعي كانوا فريقين: أصحاب الحديث وأصحاب الرأي، اما أصحاب الحديث فكانوا عاجزين عن المناظرة والمجادلة، عاجزين عن تزيف طريق أصحاب الرأي، فما كان يحصل بسببهم قوة في الدين ونصرة في الكتاب والسنة، واما أصحاب الرأي فكان سعيهم وجهدهم مصروفين الي تقرير ما استنبطوه برأيهم ورتبوه بفكرهم... [فجاء الشافعي] وكان عارفا بالنصوص من القرآن والاحبار، وكان عارفا بأصول الفقه وشرايط الاستدلال... وكان قويا في المناظرة والجدل... فرجع عن قول أصحاب الرأي اكثر انصارهم واتباعهم."

اثار الشافعي - من أهم ماوصل الينا من عمل الشافعي رسالته في اصول الفقه، رواها عنه تلميذه المصري الربيع بن سليمان المرادي، وقد تكلم فيها فيما يحتاج اليه المجتهد وازاء القرآن من

العام والخاص، والناسخ والمنسوخ وتكلم في موقف المجتهد، وناسخه ومنسوخه، وما كان فيه من اختلاف وما يقبل منه وذي قبل، ثم تكلم في الاجماع. وان "من قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم" ثم تكلم في اثبات القياس والاجتهاد، وحيث يجب القياس وحيث لا يجب، ومن له أن يقيس، ومن ليس له ونقد الاستحسان ورد علي القائلين به، وهو بهذا اول من وضع خطة في البحث في اصول الفقه جري عليه كل من اتى بعده من علماء المذاهب الاخرى، قال الرازي "واعلم ان نسبة الشافعي الي علم الاصول كنسبة ارسططاليس الي علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد الي علم العروض وذلك لان الناس كانوا قبل ارسططاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة لكن [ما] كان عندهم قانون مخلص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين، فلأجرم كانت كلياتهم مشوشة ومضطربة فان مجرد الطبع اذا لم يستعن بالقانون الكلي قلما الفح، فلما رأي ارسططاليس ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج علم المنطق، وضع للخلق بسببه قانونا كلياً يرجع اليه في معرفة ترتيب الحدود والبراهين، وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون اشعاراً، وكان اعتمادهم علي مجرد الطبع فاستخرج الخليل علم العروض فكان ذلك قانوناً كلياً في معرفة مصالح الشعر ومفاسده

وكذلك هاهنا - الناس كانوا قبل الامام الشافعي يتكلمون في مسائل اصول الفقه ويستدلون ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع اليه في معرفة دلائل الشريعة ووضع للخلق قانونا كليا يرجع اليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت ان نسبة الشافعي الي علم الشرع كنسبة ارسططاليس الي علم العقل . . واعلم ان الشافعي صنف كتاب الرسالة ببغداد، ولما رجع الي مصر اعاد تصنيف كتاب الرسالة وفي كل واحد منهما علم الكثير، والناس وان اطنبوا ذلك في علم اصول الفقه الا ان كلهم عيال الشافعي فيه، لانه هو الذي فتح هذا الباب، والسبق لمن سبق -

نعم دوي ابن النديم ان محمد بن الحسن الف كتابا في اصول الفقه ولكن لم يصل الينا هذا الكتاب حتي نستطيع ان نقلن بينه وبين رسالة الشافعي ونعلم ماذا استفاد الشافعي من اصول محمد وماذا اخترع من نفسه، وقد كان هناك طريقتان امام مخترع اصول الفقه: الاول ان يضع القواعد التي تعين المجتهد علي استنباط الأحكام من مصادر التريخ، وهي الكتاب والسنة والاجماع والقياس والثاني استخراج القواعد العامة للقيه لكل باب من أبواب الفقه ومناقشتها وتطبيق الفروع عليها، فيستنتج - مثلا - قواعد البيع العامة او قواعد الايجار ويحددها ويبين مسلك التطبيق عليها،

وكلا الطريقين يصح ان يسمى أصول الفقه، وقد سلك الثاني الفرنج علي النحو الذي تراه في اصول الشرائع لبنتام ومن حدا حدوه، وقد اختار الشافعي الطريق الأول، وأهمه ذلك ماكان من الجدل القوي بين المحدثين والفقهاء من جانب، وفقهاء العراق وفقهاء الحجاز من جانب آخر. فاضطره هذا الخلاف ان يضع القواعد التي رأي انها تحسمه، اصف الي ذلك ان الطريق الثاني اكثر مايدوم في التشريع الوضعي الذي يعتمد علي النظريات العقلية الطليقة وتعديلها وفق مايجد من نظريات فلسفية وارااء مدنية. علي ان هذا الضرب قد اتجه الي بعض المسلمين بعد كما تري في الاستباه والنظائر لابن نجيم وان لم يسر طويلا.

وليس تعرفه لاصول الفقه متمصرا علي رسالته في الاصول، بل تعرض له ايضا في مواقع كثيرة من كتاب الام، فتعرض - مثلا - لمناقشة الفرقة التي تنكر العمل بالاحاديث بتاتا، وكتب فصلا في ابطال الاستحسان فيظهر ان كثيرا من المسائل الفرعية كانت تعرض له فتثير في ذهنه اصولا متفرقة يفكر فيها ويطيل التفكير، ثم يضع لها القواعد، ثم جرد هذه القواعد واكملها ورتبها واخرجها في كتابه الرسائل وله الفضل خاصة في تنظيم الاجماع والعمل به ومايصلح منه ومالايصلح، وتنظيم القياس الذي

جري عليه الحنفية، ووضع قواعد له وتقسيمه اقساماً وتوضيح علله
وبيان مايجوز منه وما لايجوز.

وقد خطا بكتابه خطوات في الفقه من حيث وضع القواعد
للمجتهد والزامه الاخذ بها أو بظواهرها، وحتى لاياتي اجتهاده
منتاقصاً، يوماً يستدل بالعام ويوما يقول ان دلالة طنية، ويوما
يستدل بالخاص ويوما يحتمل انه خصوصية الخ ولا يخفى ما يترتب علي
وضع هذه المبادئ من انتظام سير الفقه وتوحيد مجاريه وعدم
الاضطراب في التفريع.

الأم - وهو أكبر أثر للشافعي بين ايدينا وقد ثار الخلاف
حديثاً في مصر هل الام كتاب الله الشافعي أو الله البويطي؟
وأظن انه لوحدد موضع النزاع في دقة لكان الأمر سهلاً حلاً، فليس
يستطيع احد أن يقول ان ما بين دفتي الكتاب الذي بين ايدينا هو
من تأليف الشافعي، وانه عكف علي كتابه وتأليفه في هذا الوضع
النهائي: وأهم دليل علي ذلك ان مطلع كثير من الفصول العبارة
الآتية " اخبرنا الربيع قال قال الشافعي " وهي عبارة لايمكن ان
يكتبها الشافعي وهو يؤلف الكتاب، وفي ثنايا الكتاب نجد اخباراً
يعدول الشافعي عن هذا الرأي كان يجئ في سير الكلام: قال الربيع

قد رجع الشافعي عن خيار الرؤية وقال لا يجوز خيار الرؤية "ومحال ان تصدر من الشافعي هذه العبارة وأمثالها، كما لا يستطيع احد ان يذكر ان في الأم مذهب الشافعي بقوله وعبارته فالظاهر انها أملاها الشافعي في حلقة كتبها عنه تلاميذه وادخلوا عليها تعليقات من عندهم واختلفت روايتهم بعض الاختلاف، والذي بين أيدينا منها رواية الربيع المرادي عن الشافعي.

علي كل حال بين أيدينا مجموعة في سبعة اجزاء أغلبها من كلام الشافعي رواها عنه تلميذه وأدخل فيها بعض تعليقات ألفها وبينها حتي لا تلتبس بكلام الشافعي ومجموع ذلك هو الذي اطلق عليه "كتاب الأم" وقد بوب علي أبواب الفقه كما فعل مالك في الموطأ، ولكن فيه فصول في أصول الفقه اشرنا الي ذلك من قبل.

وقد امليت هذه الأبواب في مصر، والعلماء يقسمون فقه الشافعي الي مذهبين: قديم وجديد. فاما القديم فهو ما كتبه وقال به في العراق، واما الجديد فهو كتبه وقال به في مصر، وذلك انه لما جاء مصر عدل عن بعض أقوال له كان قالها من قبل وسببه انه خالط علماء مصر وسمع ماصح عندهم من حديث وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه اراءه وفقهاء، وراي بعض حالات اجتماعية

تخالف تلك التي رآها في الحجاز والعراق، فغير ذلك من لغة الشافعي في بعض اقواله، واطلق عليه المذهب الجديد.

وفي "الأم" مصداق لجميع ما ذكرنا عن الشافعي، فهو فيه فصيح العبارة قوي الأداء، تشوب عبارته بلاغة الابدية وفصاحتها، وقوة القرشية وايجازها أخذ عليه بعض المتعقبين له اشياء عدوها غلطا كقوله: ماء عذب وماء مالح بدل ملح، وقوله: الطهور هو المطهر، ومع ان الطهور هو الطاهر علي سبيل المبالغة، وقوله: وليست الاذن من الوجه فيعسلن بدلا فيغسلن، الي امثال ذلك، وهي في الحقيقة ليست اخطاء بل اجازها اللغويون والنحويون وعلي كل حال فليس يستطيع ان ينكر أحد مافي عبارة الشافعي من دقة وقوة وبلاغه.

وفي الكتاب تظهر قوة الشافعي في الجدل، فاسلوب الكتابة كله تقريبا اسلوب جدلي، حتي للفتراض مجادلا يجادله فيرد عليه. ثم يعترض فيجب فان قال قائل كنا رددنا عليه بكنا " قال المتبايعان بالخير مالم يتفرقا في الكلام قلت : فالذي ذهبت اليه محال، ولايجوز في اللسان. قال وما حالته وكيف يحتمله اللسان؟ قلت الخ " وهكذا يسير في كثير من المواضع علي هذا العوار

السقراطي مما كان متأثرا فيه بنمط العراقيين وحججهم واكثارهم من "أرايت ثم هو في الكتاب محدث يكثر من الاستدلالات بالحديث، وهو قياس كثير من استعمالات القياس. فيقول: "وبهذا نأخذ هو قول الأكثر من أهل الحجاز والأكثر من أهل الآثار بالبلدان "ويقول " وقتلنا في الكلب ما أمر به رسول الله [ص] وكان الخنزير ان لم يكن في شر من حالة لم يكن في خير منها فقلنا به قياسا عليه " الي كثير من أمثال ذلك.

ثم هو متأثر بالمصرية احيانا فاذا أراد أن يمثل بصيغة لوقفية مثل لذلك بوقف بيت في السطاط من مصر ويتكلم في الطين الذي يعرف بالطين الارمني والطين الذي يقال له طين البحيرة وهما مما يدخلان في الادوية ويقارن بين الطين الارمني وطين راء في الحجاز ويتكلم في القراطيس [وهي مصرية] ويبين متى يجوز ان تسلف ومتى لايجوز ويتكلم في شهادة الشعراء في مصر الي امثال ذلك.

وعلي الجملة فالكتاب ثروة كبيرة من حيث دلالة علي مناحي الشافعي في الاجتهاد، وعلي فقهه وعلي ما كان من اثر مصر في القول، بالملذهب الجديد الخ.

وكان للشافعي اصحاب اخذوا عنه وتعلموا له، وحفظوا مذهبه ونشروه بعضهم في العراق وبعضهم في مصر، ومن اشهرهم في مصر البويطي والمزني والربيع المرادي فالبويطي هو يوسف بن يحيى، والبويطي نسبة الي بويط قرية من قري صعيد مصر، وكان اكبر اصحاب الشافعي واعلمهم وقد خلف الشافعي في رئاسة حلقاته، وكان في حياته يفتي علي مذهبه، وتعلم له كثيرون نشروا مذهب الشافعي، والف كتابه المختصر اختصر فيه كلام الشافعي. قال ابن عبد البر: " وكان ابن ابي الليث الحنفي قاضي مصر يحسده ويعاديه فأخرجه في وقت المحنة في القرآن فيمن اخرج من اهل مصر الي بغداد، ولم يخرج من اصحاب الشافعي غيره، وحمل الي بغداد وحبس فلم يجب الي مادعي اليه في القرآن، وقال هو كلام الله غير مخلوق، وحبس ومات في السجن يوم الجمعة قبل الصلاة سنة ٢٣١ هـ.

واما المزني فهو اسماعيل بن يحيى، كان اقدر اصحاب الشافعي علي المناظرة والجدل والغوص علي المعاني الدقيقة، وقد كان يخالف

الشافعي في بعض اقواله فيقول بعد أن يحكي كلام الشافعي في مسألة: "ليس هذا عندي بشئ" ويظهر أنه امتحن في مسألة خلق القرآن فقال كلاماً نجاهه من الاضطهاد لشع عليه اعداؤه من المصريين حتى قل الناس في حلقته، ثم مازال في نفوسهم منه وعظمت حلقته حتى اخلت أكثر الجامع، وهو أكثر من دون فقه الشافعي والف فيه الكتب الكثيرة، منها المختصر المطبوع علي هامش الام وانتشرت كتبه ومختصراته في الاقطار فخدمت مذهب الشافعي ومات سنة ٢٦٤هـ .

واما الربيع المرادي مولي قبيلة مراد، فكان مؤذناً بمسجد عمرو بالفسطاط وربما كان ابناً لتلميذ الشافعي فهما، وقيل كانت فيه سلامة صدر وغفلة ولكنه ثقة صادق فيما يرويه، وعني لو تعارضت روايته مع رواية المزني، فامحاب الشافعي يقدمون روايته . وقد حمل عن الشافعي الكثير من علمه، والنسخة المطبوعة من الام وروايته، مات سنة ٢٧٠هـ .

وعلي الجملة فقد كان البويطي الفقه والمزني الفصح وامهر واذكي والمرادي أتوي، ولكل فضل.

وما يلاحظ ان اصحاب الشافعي لم يكونوا يخالفونه كثيراً، ولما كان اصحاب ابي حنيفة يخالفونه. فالمسائل التي خالفت فيها اصحاب الشافعي امامهم تكاد تكون معدومة وكثير منها تخريج علي اصول، وهذا بخلاف اصحاب ابي حنيفة فقد خالفه ابو يوسف ومحمد وزفر، في الاصول والفروع. وهذا يرجع - فيما أرى - الي سببين : الأول ان مذهب ابي حنيفة لم يقيده ابو حنيفة، وانما قيده ورتبه اصحابه، وله العذر في ذلك فقد ازهر ابو حنيفة قبيل عصر التدوين، وكان السابق والمبكر في صبغ الفقه صبغته الجديدة، وترك لتلاميذه تدوينه، وهذا يجعل اصحابه في حل من المخالفة عند مقارنة المسائل بعضها ببعض، وتطبيقها علي الاصول والسبب الثاني ان مذهب ابي حنيفة - كما علمنا - أميل الي الرأي من مذهب الشافعي، والرأي يمنح اصحابه حرية لاتكون لاصحاب الحديث ومن نحا منحاهم ومن قرب منهم.

ويطول بنا القول علي هذا النمط في ترجمة اصحاب المذاهب الثلاثة عشر الذين عددناهم قبل، ويحتاج ذلك الي كتاب مستقل، فكتلي بهؤلاء الذين ذكرنا اذ كانوا يمثلون المناحي المختلفة في التشريع، ولكن لا بأس من ان نلم المأ خفيفا ببعض من كان لهم

اثر كبير او لون في مختلف في اللغة فمنهم

أحمد بن حنبل - وهو أحمد بن محمد بن حنبل، عربي الأصل من شيبان وأصله من مرو، ولد ونشأ ببغدا سنة ١٦٤ ورحل الي الكوفة والبصرة ومكة والمدينة والشام واليمن والجزيرة في جمع الحديث وقد صحب الشافعي وأخذ عنه، والشافعية يعدونه شافعيًا، ولكنه في الواقع يستقل عنه. وقد امتحن في مسألة خلق القرآن فحُضِرَ وحبس، وظل علي قوله بأن القرآن غير مخلوق ومبر علي ماله من اذي، فكان ذلك مآزاد رلعه في نظر الناس، وكان ضربه وحبسه سنة ٢٢٠ في خلافة الواثق فلما جاء المتوكل أفرج عنه ولما ألغي القول بخلق القرآن كما سيحى الكلام في هذه المسألة بمصيلا ان شاء الله، وتوفي ببغداد سنة ٢٤١هـ .

والخلايف في عدة من كبار المحدثين، ولكن الخلاف في عدة من الفقهاء فابن جرير الطبري لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء، وكان يقول انها هو رجل حديث لأرجل فقه، وثار عليه الحنابلة من اجل ذلك، ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه المعارف بين الفقهاء، وذكره المقدسي في المحدثين لا في الفقهاء واقتصر ابن عبد البر في كتابه الانتقاء علي الائمة الثلاثة، ابي حنيفة ومالك

والشافعي وخالفهم في ذلك غيرهم وخاصة المتأخرين.

والواقع ان فقهه اكثر ما يبنى علي الحديث، فاذا وجد حديثا صحيحا لم يلتفت الي غيره، واذا وجد فتوي من الصحابة عمل بها، واذا وجد فتاوي لهم تغير اقر بها الي الكتاب والسنة، واحيانا يختلف الصحابة في المسألة علي قولين فيروي علي ابن حنبل في المسألة روايتان، واذا وجد حديثا مرسلا او ضعيفا رجحه علي القياس ولا يستعمل القياس الا عند الضرورة التصوي، ويكره الفتوي في مسألة ليس فيها اثر ولم يضع ابن حنبل كتابا في الفقه علي نمط خاص به وكل ما روي له في الفقه مسائل سئل عنها فاجبت فيها، وانما رتب المذهب وبوبه ودونه واتبعه.

فان نحن نظرنا من ناحية النظريات القانونية ونظمها ورقيا وجدنا ابن حنبل اكبر اثرا في الحديث منه في الفقه.

وممن له لون خاص في التشريع داود بن علي الاصبهاني، المعروف بناود الظاهري، ولد بالكوفة نحو سنة ٢٠٠، ونشأ ببغداد وتوفي بها سنة ٢٧٠ درس مذهب الشافعي وتعصب له والف في مناقبه، ثم استقل مذهب يعرف بمذهب الظاهرية باتباعه

كثير من الناس خصوصاً في فارس والاندلس.

وموقفه في الفقه موقف النقيض من الحنفية، ينكر القياس، ويرى ان في القرآن والحديث، وعموماتها ما يكفي لبيان الأحكام، فهو يتمسك بظاهر الكتاب والسنة، ومن هنا اشتق اسم الظاهرية، ويرى ان القول بالقياس تشريع عقلي والدين الهي، ولو كان الدين بالعقل لجرت احكام علي خلاف ماأتي به الكتاب والسنة، فوجب ان نتقيد بهما بل بظاهرها ولانبيع القياس الا اذا ورد نص بتحريم او بتحليل وبين في علمه، فحينئذ يجوز لنا ان نشرك في الحكم الاشياء التي لم ينص عليها ولكن لم تتحد في العلة، اما اذا لم ينص علي العلة فليس المجتهد ان يقول بها من عنده ثم يقيس عليها، قاله تعالى يقول: " وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الي الله " ولم يقل الي الرأي والقياس. وقد هاجم القياسيين وبين ما الجاهم اليه القياس من خطأ في الاحكام، واداه هذا المنحني الي مخالفة المذاهب الاخرى في كثير من المسائل.

وعلي الجملة فقد كان مجال التشريع عندهم اضيق من غيرهم، لان اكبر منحي للاجتهد هو القياس وقد انكروه

كذلك مما لايسعنا اغفاله ما للشيعه والخوارج من فقه وسنتكلم
في فقههما عند الكلام في عقائدهما ان شاء الله.

وبعد، فنستطيع بعد هذا الاستعراض للتشريع ومناحيه المختلفه
ان نسجل النتائج الآتية :

١- كان هذا العصر الذي نؤرخه اكثر عصور الاسلام نشاطا في
التشريع واكثر عدداً من الفقهاء المجتهدين، كل ماكان فيه من وثام
وغصام سبب مهر المسائل الفقهية، والجد في تحريرها وتصفيتها،
وكان العلماء احرارا في مناحيهم ونزعاتهم واجتهادهم، لايتدخل
سلطة فيما بينهم من خصام ونزاع، ولاتحجر علي حريتهم في
الاجتهاد والتفكير ماداموا بعيدين عن مسائل الخلافة وما اليها،
لهم ان يجتهدوا في غيرها ماشاءوا، ولهم ان يستنتجوا الاحكام من
الكتاب والسنة أو القياس ماشاءوا لايتعرض لمن وسع علي نفسه
فاستعمل الرأي الي غاية مداه كما لايتعارض لمن ضيق علي نفسه
فالتمزم الاحكام من الكتاب والسنة وحدهما ولم تلتزم الحكومة قانونا
بعينه تفرضه علي الدولة كلها، ولاملها معينا تفرضه علي الامصار

فرضاً، بل اختارت القضاة من مناح مختلفة في الاجتهاد وتركزت لهم الحرية في الأحكام علي حسب اجتهادهم، فربما حكم في المسألة بحكمين مختلفين في مصريين مختلفين، بل ربما حكم بحكمين مختلفين في بلد واحد اذا كان لهما قاضيان، كما ذكر ابن المفتع، ولم تتدخل الحكومة في حسم الخلاف وتوحيد القضاء ولا في عامتها نفسها. أمامن عدا القضاة من الفقهاء المجتهدين فحریتهم في التشريع اظهر.

وكما كثر الفقهاء المشرعون وكثر اجتهادهم كثرت المسائل القانونية واحكام الجزليات كثرة لايقاس بها ماكانت عليه قبل هذا العصر ففرعت الفروع وفرضت الفروض ووضع لها الاحكام، وعرضت كل العادات والتقاليد والعرف في الامصار المختلفة من عراق وحجاز وشام ومصر علي الفقه وواجهها الفقهاء وشرعوا لها الاحكام، او اقروها علي ما هو عليه اذا لم تصطدم بنص، وتوسعوا في بابي الاجماع والقياس، حتي دخلت فيها العادات العرفية والشامية والمصرية واقرت علي ما هي عليه احيانا وعدلت اذا خالفت اصول الاسلام واصبحت جزءاً من الفقه الاسلامي.

ذلك بأنهم جعلوا العرف اساساً من اساس التشريع، واستاندوا

في ذلك علي حديث " ماراه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن " وجاء في المبسوط " الثابت بالعرف كالثابت بالنص " وتسموا العرف الي قسمين: عرف عملي كتعارف قوم علي صرف الفضة بالفضة، وعرف قولي كتعارفهم علي اطلاق لفظ علي معني بحيث لايتبادر عند سماعه غيره، وكلا المعنيين اخذ به الفقهاء، فاجازوا كثيرا من المعاملات لجريان العرف بها وحملوا في كثير من الاحيان الفاظ الوقف والطلاق والايمان علي ما يجري العرف في تفسيرها فدخل الفقه في هذا الباب كثير من العادات المستعملة من الامصار مثل ذلك الاستصناع وهو ان يقول شخص لرجل من اهل الصنائع اصنع له الشئ الفلاني، ويصفه بشئ قدره كذا فقد اجازه الحنفية لجريان لاعرف مع ورود النص في النهي عن بيع ماليس عند الانسان فخصصوا النص بالعرف، واجاز مشايخ بلخ ان يدفع الرجل للعائك غزلا وعلي ان ينسجه بالثلث، وقال ان هذه اجازة صحيحة لتعامل اهل بلدهم بها " والتعامل حجة يترك به القياس ويخص به الاثر " الي كثير من امثال ذلك. وقد اشترطوا في المجتهد معرفة عادات الناس " لان كثيرا من الاحكام تخلف باختلاف الزمان " لتغيير العرف " ومن ذلك ما روي الكردي في المناقب ان محمد بن الحسن " كان يذهب الي الصباغين ويسأل عن معاملتهم وما يبيعونها ليما بينهم " وكتب الفقه مملوءا بمسائل الخلاف بين الائمة مما كان سبب

اختلاف العرف في امصار الائمة او زمانهم وكل الذي اريد هنا ان من هذا الطريق - طريق العرف والعادات - دخل كثير من عادات الامم ودون في الفقه، وكان ائمة كل مصر يستعرضون ماعندهم من عادات فيعرضونها علي قواعد الاسلام فمالهم يخالف منها نصا صريحا اجازوه بل احيانا يجيزونه. ويخصمون النص كما رأيت ومن امثلة ذلك ايضا اجازة بعضهم بيع ثمار البستان اذا كان بعضها قد خرج وبعضها لم يخرج، لان العرف جري بذلك. وقال شمس الائمة "استحسن ذلك لتعامل الناس فانهم تعاملوا بيع ثمار الكرم بهذه الصفة ولهم في ذلك عادة ظاهرة وفي نزاع الناس من عاداتهم خرج مع ان هنا ايضا ينطبق علي انه بيع الانسان مالمس عنده وهو مانهي عنه لان الثمار التي تتلاحق ليست موجودة كلها، فخصموا النص ايضا بالعرف واقتوا فيما يدخل في المبيع تبعا ومالا يدخل بعرف كل بلد، فقالوا ان السلم المنفصل يدخل في بيع البيت في القاهرة لان بيوتهم طبقات لا يندفع بها الا به، ولا يدخل في البلاد التي بيوتها طبقة واحدة الخ.

وقد كان لكل امة عرف وعادات في بيعها وشرائها وفي لغتها، ودلالة الفاظها علي معانيها، وفي الزواج وما يكون جهازا وما لا يكون، وفي الاراضي هل يدفع العشر المؤجر او المستأجر الخ وكل هذه

العادات عرضت علي الأئمة فادخلوها في الفقه وكانت من اكبر مصادره، لأن كثيرا من عادات الامم لم تعرف في عهد النبي [ص] فلم يرد فيها نص من كتاب ولا سنة، ورجوع الناس عن عاداتهم التي جروا عليها اجيالا ليس بالامر الهين، لذلك اجاز الفقهاء الكثير منها واقروها وعدوها اسلامية، وكان هذا سببا من أسباب تضخم الفقه.

٢- كان المسلمون قبل هذا العصر، وفي اول هذا العصر لا يبحسون الي مذاهب بل المسلم احد رجلين، اما عالم مجتهد فهو يدرس ويجتهد لنفسه في تعرف الاحكام، ويعلم ذلك لتلاميذه، واما عامي اوشبه عامي اذا عرضت له مسألة استفتي فيها من صاذه من المجتهدين كانوا من كان فيعمل بما يفتيه والمجتهدون كثيرون مختلفون فلما تقدم الزمن في العصر العباسي رأينا المذاهب تتبلور ولكنها مع تبلورها كثيرة، واشتهر منها ثلاثة عشر مذهباً اويزيد

ورأينا الكتب توضع في كل مذهب ورأينا الناس يبحسون الي هذه المذاهب ثم رأينا بعض المذاهب يقدر لها الانقراض فيفتني اصحابها، او يقل اتباعها وبعضها يقدر له البقاء والنماء، حتي يصبح بعد

عصرنا هذا . والمذاهب أربعة فقط حنفي ومالكي وشافعي وحنبلي،
هنا عدا الشيعة والخوارج، وإذا بالناس ينحازون الي هذه المذاهب
لا الي غيرها، وتنقسم البلاد هذه المذاهب فيسود كل قطر مذهب
قطرا وتقل بجانبه المذاهب الاخرى [كما سيأتي بيانه في حينه]
وإذا عرض لعامي امر استفتي فيه علماء مذهبه غالبا، وتعبد عليه
في الصلاة والزكاة والصيام والحج، وسار الزواج والطلاق علي مذهب
امامه .

٣- إذا تتبعنا ماكان بين مدرسة الرأي ومدرسة القياس، ونظرنا الي
الفقهاء من حيث مقدار حريتهم في الرأي، وأردنا ان نضع لهم
قائمة تبين درجاتهم في ذلك، وجدنا أن اول القائمة طائفة رأت
عدم العمل بالحديث، والاكتفاء بالقرآن، قالوا : لانكم ترون الحديث
عن رجل آخر، وليس احد الا وهو عرضه للخطأ أو النسيان، فلماذا
نقبل منهم شيئا اذا كانت عرضه للوهم، ولانقبل الاكتاب الله الذي
لايسع احد الشك في حرف منه وقد حكي الشافعي في الام عنهم
انهم انقسموا قسمين، قسم قالوا : مالم يكن فيه كتاب الله فليس
علي احد فيه فرض، وقسم قالوا : يقبل الحديث اذا كان فيه قرآن .

ومثل هؤلاء القوم يصح ان يوضعوا في اعلي قائمة الحرية اذا

كان مذهبهم ان نلتزم فقطما جاء في القرآن، أما ماعداه فنعمل فيه بالرأي والعدالة وهذا هو الأقرب من قولهم. كما يصبح أن يوضعوا في أسفل القائمة حتي بعد الظاهرية ان قالوا لانعمل الا بما ورد في كتاب الله. ومايوسف له أنا لم نجد نصا صريحا يعين اتجاه مذهبهم فان كانوا قد ذهبوا الي الاتجاه الاول كانوا - من غير شك - اكثر الفقهاء حرية لانهم لايلتزمون الا ماورد في الكتاب من احكام اما ماعدا ذلك فهم احرار في استعمال الرأي فيه كما^{ان} مايوسف له انا لانعلم لذلك زعيما دعي الي هذا الرأي ووضع له قواعده واصوله وفرع عليه، بل لم يسمي الشافعي في الام اسم من ذهب هذا المذهب .

يلي هؤلاء - ان كان مذهبهم كما فسرنا - مذهب ابي حنيفة، فقد قيد الحديث الذي يعمل به وضيق دائرته ووسع القياس ثم الشافعي فقد وسع الحديث وقلل دائرة القياس ثم مالك فلم يتوسع في القياس كما توسع الشافعي، ثم احمد بن حنبل فقد ابي استعمال القياس الا عند الضرورة القصوي، وفضل عليه الحديث الضعيف ثم داود الظاهري وقد انكر القياس الا مانص عليه فيه علي العلة .

والذي يستعرض هذه الآراء يري ان دائرة الحرية التي كان يصبح فيها مذهب ابي حنيفة اخلت في الضيق، حتي ان تلاميذه انفسهم كابي يوسف ومحمد كانا من عوامل هذا التضييق، فقد أخذ

من مدرسة الحجاز حديثا كثيرا عدلا بمذهب ابي حنيفة وخالفنا به شيخهما، ولئن اثر مذهب ابي حنيفة في المذاهب الاخرى من ناحية الرأي والقياس، فقد كان تاثير مدرسة الحديث في مذهب ابي حنيفة اقوي واكثر.

لو فكر مفكر في ذلك العصر ربما توقع غلبة مذهب ابي حنيفة وسيادته علي مذهب الحديث لتأييد الحكومة العباسية له بعض الشيء، ولغلبة مذهب الاعتزال نحو خمسين عاما ختمت ببداية خلافة المتوكل، ومذهب الاعتزال هو القائل بالتحسين والتقييع العقليين، ولظهور الفلسفة في العراق وهي ادعي الي الحرية الفكرية . ولكن مع كل هذا كانت الغلبة في الفقه لمدرسة الحديث، والسبب في هذا - علي ما يظهر - ان قوة المحدثين كانت اكبر وجهور المسلمين كان لهم انصر، وان حركة الاعتزال ومركبة الفلسفة كانتا حركتين ارسنقراطيتين يعتنقها في الغالب اسنقراطيتين الشعب لاجمهوره، ولذلك هوجم القول بخلق القرآن الذي قال به المعتزلة هجوما عنيفا من الشعب . وبلغ جهور الناس الذين يظنون في واجهه ويتخرجون من القول به ويتحملون العذاب في سبيله الي درجة عليا الي ان قضي عليه . وكذلك هوجمت الفلسفة من الشعب، ولم ينفع كثيرا تأييد الحكومة العباسية بمذهب ابي حنيفة بعض

الشيء، لأن أكبر هذا التأييد مصدره وجود أبي يوسف علي راس
القضاة، وأبو يوسف نفسه كما رأينا كان من عوامل ادخال الحديث
الكثير في فقه أبي حنيفة وتعديله. لهذا كله ضاقت دائرة الرأي
والقياس واتسعت دائرة الحديث، يضاف الي ذلك ايضا ان المحدثين
قد نشطوا نشاطا كثيرا في هذا العصر، فجمعوا الاحاديث المتفرقة
في الامصار المختلفة صحيحها وضعيفها وكثير من هذه الاحاديث
تتعلق بالاحكام فاضطر الفقهاء امام هذه الاحاديث وأمام قوة
المحدثين ان يخضعوا انفسهم للحديث، ولهذا نرى كتب الفقه حتي
كتب الحنفية تستدل علي اكثر الاحكام بالحديث وان كان بعضها
ضعيفا، ونرى ان الفروق بين المدارس المختلفة قلت، فلم تعد بين
تلاميذ أبي حنيفة والشافعي ومالك فروق كالتّي كانت بين مالك أبي
حنيفة انفسهما، حتي ليظن الطان لأول وهلة ان منحي التشريع
عند الجميع واحد ولم يكن ذلك صحيحا عند تأسيس هذه المدارس،
وانما أظهره بهذا المظهر شيء واحد: هو "غلبة رجال
الحديث" [١]

(١) انظروا أحمد أمين، فحي الاسلام من ١٥١-٢٤٢.

الملاحق

بغداد

وانما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض.. وذكرت
بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في
مشارك الأرض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة
هواء لأنه سكنها من اصناف الناس وأهل الأمصار والكور وانتقل
اليها من جميع البلدان القاضية والدانية وأثرها . جميع أهل الافاق
علي اوطانهم فليس من أهل بلد الاولهم فيها محلة ومتجر
ومتصرف . فاجتمع بها مالميس في مدينة في الدنيا ثم يجري في
حافيتها النهران الأعظمان دجلة والفرات فيأتيها التجارات والميربرا
وبحرا بايسر السعي حتي تكامل بها كل متجر يشمل من المشرق
والمغرب من أرض الاسلام وغير أرض الاسلام فانه يحمل اليها من
الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخرز والحبشة
وسائر البلدان حتي يكون بها من تجارات البلدان اكثر مما في
تلك البلدان التي خرجت التجارات منها ويكون مع ذلك أوجد وامكن
حتي كأنها سبقت اليها خيرات الأرض وجمعت فيها ذخائر الدنيا
وتكاملت بركات العالم مع هذا مدينة بني هاشم ودار ملكهم ومحل
سلطانهم لم يبدأ بها احد قبلهم ولم يسكنها ملوك سواهم ولأن
سلفي كانوا القادمين بها وأحدهم قولي امرها ولها الاسم المشهور
والذكر الدائع ثم هي وسط الدنيا لأنها علي ما اجمع عليه قول

الحساب وتضمنته كتب الأوائل من الحكماء في الاقليم الرابع وهو الاقليم الاوسط الذي يعتد فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول فيكون الحر بها شديدا في ايام القبط والبرد شديدا في ايام الشتاء ويعتدل الفصول الخريف والربيع في اوقاتها ويكون دخول الخريف الي الشتاء غير متباين الهواء ودخول الربيع الي الصيف غير متباين الهواء وكذلك كل فصل ينتقل من هواء الي هواء ومن زمان الي زمان فلذلك اعتدل الهواء وطاب الثري وعذب الماء وزكت الاشجار وطابت الثمار واخصبت الزروع وكثرت الخيرات وقرب مستنبت معينها وباعتدل الهواء وطيب الثري وعلوبة الماء حسنت اخلاق اهلها ونصرت وجوهم وانفتحت اذهانهم حتي فضلوا الناس في العلم والفهم والادب والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب والحدق بكل مناظرة واحكام كل مهنة واتقان كل صناعة فليس أعلم من عالمهم ولا أروي من راويتهم ولا أجدل من متكلمهم، ولا أعرب من لغويتهم ولا اصح من قارئهم ولا أمهر من منطبقهم ولا احذق من مغنيهم ولا لطف من صانعهم ولا اكتب من كاتبهم ولا ابين من منطبقهم ولا اعبد من عابدهم ولا اروع من زاهدهم ولا اذقه من حاكمهم ولا اخطب من خطيبهم ولا اشعر من شاعرهم ولا افتك من باجنهم ولم تكن بغداد مدينة في الايام المتقدمة اعني ايام كاسرة والاعاجم وانما كانت قرية من قري طسوج بأوربا وذلك أن مدين الاكاسرة التي أن مدينة الاكاسرة التي خاروها من مدن العراق

المدائن وشي من بغداد علي سبعة فراسخ وبها ايوان كسري
انوشروان ولم يكن ببغداد الادير علي موضع مصب الصراه الي دجلة
الذي يقال له قرن الصراة وهو الدير الذي يسمى الدير العتيق قائم
بحاله الي هذا الوقت نزل الجاثليق رئيس النصاري النسطورية ولم
تكن ايضا بغداد في ايام العرب لها جاء الاسلام لان العرب اختطت
البصرة والكوفة فاحتفظ الكوفة سعد بن ابي وقاص الزهري في
سنة سبع عشرة وهو عامل عمر بن الخطاب واخطت البصرة عتبة
بن غزوان المازني مازن قيس في سنة سبع عشرة وهوى يومئذ عامل
عمر بن الخطاب فاخطت العرب في هاتين المدينتين خططهما الا أن
القوم جميعا قد انتقل وجوهم وجلتهم ومياسيرتجارهم الي بغداد
ولم ينزل بنو أمية العراق لانهم كانوا نزولا بالشام وكان معاوية
بن ابي سفيان عامل الشام لعمر بن الخطاب لعثمان بن عفان عشرين
سنة وكان ينزل مدينة دمشق واهله معه قلما غلب علي الامر وصار
اليه السلطان جعل منزله وداره دمشق اذ بها كان سلطانه وانصاره
وشييعته ثم نزل بها ملوك بني أمية بعد معاوية لانهم بها نشلوا
لايعرفون غيرها ولايميل اليهم الا اهلها فلما افضت لخلافة الي بني
عم رسول الله صلي الله عليه وسلم وآله من ولد العباس بن عبد
المطلب عرفوا بحسن تمييزهم وصحة عقولهم وكمال ارائهم فضل
العراق وجلالته وسعتها ووسطها للدنيا وانها ليست كالشام الوبية
الهواء، الضيقة المنازل الحزنة الارض المتصلة الطواعين الجافية

الاهل ولاكمصر المتغيرة الهواء الكثيرة الوباء التي انما بين بحر
رطب كثير البخارات الردية التي تولد الادواء وتفسد الغلاتوبين
الجبل اليابس الصلد الذي لبيسه وملوحته وفساده يثبت فيه خضر
ولاينفجر منه عين ماء ولاكافريقية البعيدة عن جزيرة الاسلام وعن
بيت الله الحرام الحامية الاهل النائية البادرة الصردة الحزنة اذ
يحيط بها الاعداء ولامثل كور الجبل الحزنة الخشنة المثلجة دار
الاكراد الغليظي الاكباد ولاكارض خراسان الطاعنة في مشرق الشمس
اذ يحيط بها من جميع اطرافها عد وكلب ومحارب حرب ولاكالحجاز
النكدة المعاش الضيقة المكسب اذ قوت أهلها من غيرها وقد أخبانا
الله عزو وجل في كتابه ابراهيم خليفة عليه السلام فقال رب اني
اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع ولاكالتبت التي بفساد هوائها
وغذائها تغيرت الزاآ أهلها وصغرت ابدانهم وتحققت شعورهم،
فلما علموا انها افضل البلدان نزلوها مختارين لها فنزل ابو العباس
امير المؤمنين وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن
العباس بن عبد المطلب الكوفة أول مرة ثم انتقل الي الانبار فبني
مدينة علي شاطئ الفرات وسماها " الهاشمية " وتولي ابو العباس
رضه قبل ان يستتم المدينة فلما ولي ابوجعفر المنصور الخلافة
وهو ايضا عبد الله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد
المطلب بني مدينة بين الكوفة والحيرة سماها الهاشمية وأقام بها
مدة الي ان عزم علي توجيه ابنه محمدالمهدي لغزو الصقابة في

سنة أربعين ومائة فصار الي بغداد فوقف بها وقال ما اسم هذا
الموضع قيل له بغداد قل هذه والله المدينة اذا اعلمني ابي محمد
بن علي اني ابيها وانزلها وينزلها ولدي من بعدي ولقد غفلت عنها
الملوك في التاهلية والاسلام حتي يتم تدبير الله ولي وحكمه في
وتصبح الروايات وتبين الدلائل والعلامات والا فجزيرة بين دجلة
والفرات دجلة شرقيها والفرات غربيها مشرعة للدنيا كل ماياتي في
دجلة من واسط والبصرة والابلة والاهواز وفارس وعمان واليمامة
والبحرين ومايتصل بذلك فاليها ترقى وبها ترسي وكذلك ماياتي من
الموصل وديار ربيعة واذربيجان وارمينية مما يحمل في السفن في
دجلة وماياتي من ديار مصر والرقّة والشام والثغور ومصر
والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات فيها يحتط وينزل ومدرجة
اهل الجبل وامبهان وكورخراسان فالحمد لله الذي ذخرها لي واغفل
عنها كل من تقدمني والله لابنيها ثم اسكنها ايام حياتي ويسكنها
ولدي من بعدي ثم لتكونن اعمر مدينة في الارض ثم لابنين بعدها
أربع مدن لامخرب واحدة منهن ابداء فبناها وهي الرافقة ولم يسمها
فمنني ملهلية وبني المصيصه وبني المنصورة بالسند ثم وجه في
احتضار المهندسين واهل المعرفة بالبناء والعلم بالترع والمساحة
وقسمة الارضين حتي اختط مدينته المعروفة بمدينة ابي جعفر
واحضر البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين
فاما اجتمعوا وتكاهوا جري عليهم الارزاق وقام لهم الاجرة وكتب

الي كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا اليينا فحضره مائة الف
من اصناف المهن والصناعات خبر بهذا جماعة من المشايخ ان ابا
جعفر المنصور لم يبتد البناء حتي تكامل له من الفعلة وأهل
المهن مائة الف ثم اختطها في شهر ربيع الاول سنة احدى
واربعين ومائة وجعلها مدورة ولا تعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة
مدورة غيرها ووضع أساس المدينة في وقت اختاره فوبخت المنجم
وما شاء الله بن سارية وقبل وضع الأساس وما ضرب اللبن العظام
وكان في اللبنة التامة المربعة ذراع في ذراع وزنها مائتا رطل
واللبنة المنصفة طولها ذراع وعرضها نصف ذراع ووزنها مائة رطل
وحفرت الآبار للماء وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا وهو
النهر الأخذ من الفرات فاتقنت القناة واجريت الي داخل المدينة
للشرب ولضرب اللبن وبل الطين وجعل للمدينة اربعة أبواب باب
سماء باب الكوفة وباب سماء باب البصرة وباب سماء باب خراسان
وبابا سماء باب الشام وبين كل بابا منها الي الآخر خمسة الاف
ذراع بالذراع السوداء من خارج الخندق وعلي كل باب منها باب
حديد عظيمان جليان ولا يغلق الباب الواحد منها ولا يفتحه الا جماعة
رجال يدخل الفارس بالعلم والرامي بالرمح الطويل من غير ان يميل
العلم ولا يثني الرمح وجعل سورها باللبن العظام اذ لم ير مثلها
قط علي ما وصفنا من مقدارها والطين وجعل عرض اساس السور
تسعين ذارعا بالسوداء ثم ينحط حتي يصير في اعلاه علي خمس

وعشرين ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرافات وحول السور
فصيل جليل عظيم بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع
بالسوداء والفصيل ابرجة عظام وعليه الشرافات المدورة وخارج
الفصيل كما يدور مسناه بالاجر والصاروج متقنة محكمة عالية
والخندق بعد المسناه قد أجري فيه الماء من القناة اذ تأخذ من
نهر كرخايا وخلف الخندق الشوارع العظام وجعل ابواب المدينة
اربعة دهاليز عظاما ازاجا، كلها طول كل دهليز ثمنون ذراعا كلها
معقودا بالاجر والجص فاذا دخل من الدهليز الذي علي الفصيل وافي
رحبة مفروشة بالخرصر ثم دهليز علي السور الاعظم عليه بابا حديد
جليان عظيمان لا يغلق كل باب ولا يفتحها الا جماعة رجال والابواب
الاربعة كلها علي ذلك فاذا دخل من دهليز السور الاعظم سار في
رحبة الي طاقات معقودة بالاجر والجص فيها كواء رومية يدخل
منها الشمس والضوء ولا يدخل منها المطر وفيها منازل الغلمان
ولكل باب من الابواب الاربعة طاقات وعلي كل باب من ابواب
المدينة التي علي السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها
مجالس ومرتفات يجلس فيها فيشرف علي كل ما يعمل به يصعد الي
هذه القباب علي عقود مبنية بعضها بالجص والاجر وبعضها باللين
العظام قد عملت ازاجا بعضها اعلي من بعض فداخل الازاج للرابطة
والحرس وظهرها عليها المصعد الي القباب التي علي الابواب علي
الدواب وعلي المصعد ابواب تغلق فاذا خرج الخارج من الطاقات خرج

الي رجة ثم الي دهليز عظيم ازج معقود بالاجر والحص عليه بابا حديد يخرج من الباب الي الرجة العظامي وكذلك الطاقات الاربعة علي مثال واحد وفي ربط الرجة القصر الذي سمي بابه باب الذهب والي جنب القصر المسجد الجامع وليس حول القصر بناء ولا دار ولا مسكن لاحد الا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفة كبيرة ممتدة علي عمد مبينة بالاجر والحص يجلس في احدهما صاحب الشرطة وفي الاخرى صاحب الحرس وهي اليوم يصلي فيها الناس وحول الرجة كما تدور منازل اولاد المنصور الاسافر ومن يقرب من خدمته ومن عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الاحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات من الطاقات الي الطاقات السكك والدروب تعرف بقواده ومواليه وبسكان كل سكة فمن باب البصرة الي باب الكوفة سكة الشرط وسكة الهيثم وسكة المطبق وفيها الحسين الاعظم الذي يسمي المطبق وثيق البناء محكم السور وسكة النساء وسكة سرجس وسكة الحسنى وسكة عطية وسكة مجاشع وسكة العباس وسكة غزوان، وسكة ابي حنيفة والسكة الضيقة ومن باب البصرة الي باب خراسان سكة الحرس وسكة وسكة النعيمية وسكة سليمان وسكة الربيع وسكة مهمل، وسكة شيخ بن عميرة وسكة المروروزية وسكة واضح وسكة السقاين وسكة ابن بريهة بن عيسى بن المنصور وسكة ابي احمد والدرب

الضيق ومن باب الكوفة الي باب الشام سكة العكي وسكة ابي قرة
وسكة عبدوية وسكة العلاء وسكة نافع وسكة اسلم وسكة منارة
ومن باب الشام الي باب خراسان سكة المودنين وسكة دارم وسكة
اسرايل وسكة تعرف في هذا الوقت بالقواريري قد ذهب عني
اسم صاحبها وسكة الحكم بن يوسف وسكة سماعة وسكة صاعد
مولي ابي جعفر وسكة تعرف اليوم بالزيادي وقد ذهب عني اسم
صاحبها وسكة غزوان هذه السكك بين الطاقات والطاقات داخل
المدينة وداخل السور، ولي كل سكة من هذه السكك جلة القواد
الموثوق بهم في النزول معه وجله مواليه ومن يحتاج اليه في الامر
المهم وعلي كل سكة من طرفيها الابواب الوثيقة ولا تتصل سكة
منها بسور الرحبة التي فيها دار الخلافة لان حوالي سور
الرحبة كما تدور الطريق، وكان الذين هندسوها عبد الله بن محرز
والحجاج بن يوسف وعمران بن الواح وشهاب بن كثير بحضرة
نوبخت وابراهيم بن محمد الفزاري والطبري المنجمين اصحاب الحساب
وقسم الارياض اربعة ارباع وقلد القيام بكل ربع رجلا من
المهندسين واعطي اصحاب كل ربع مبلغ ما يصير لصاحب كل قطعة
من الدرع ومبلغ درع ماعمل الأسواق في ريف ريف فلقد الربع من
باب الكوفة الي باب البصرة وباب المحول والكرخ وما اتصل بذلك
كله المسيب بن زهير والربيع مولاة وعمران بن الواح المهندس
والربع من باب الكوفة الي باب الشام وشارع طريق الأنبار الي حد
ريف حرب بن عبد الله سليمان بن مجالد وواضا مولاة وعبد الله

بن محرز المهندس والربيع من باب الشام الي ربض حرب وما اتصل
بربض حرب وشارع باب الشام وما اتصل بذلك الي الجسر علي منتهي
دجلة حرب بن عبد الله وغزوان مولاة والحجاج بن يوسف
المهندس ومن باب خراسان الي الجسر الذي علي دجلة ماذا في
الشارع علي دجلة الي البغيتين وباب قطربل هشام بن عمرو التغلبي
وعمار بن حمزة وشهاب بن كثير المهندس ووقع الي كل اصحاب
ربيع ما يصير لكل رجل من الدرع ولمن معه من اصحابه وما قدره
للحوانيت والاسواق في كل ربض وامرهم أن يوسعوا في الحوانيت
ليكون في كل ربض سوق جامعة تجمع التجارات وأن يجعلوا في كل
ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل
وان يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه او الرجل النبیه الذين
ينزله او اهل البلد الذي يسكنونه وعد لهم ان يجعلوا عرض الشوارع
خمسين ذراعا بالسوداء والدروب ست عشرة ذراعا وان يبتنوا في
جميع الارياض والاسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفي
بها من في كل ناحية ومنخله وامرهم جميعا ان يجعلوا من قطائع
القواد والجند ذراعا معلوما للتجار يبنونه وينزلونه ولسوقه الناس
واهل البلدان وكان اول من أقطع خارج المدينة من اهل بيته عبد
الوهاب بن ابراهيم ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بازاء
باب الكوفة علي الصراة السفلي التي تأخذ من الفرات فريضة يعرف
بسويقة عبد الوهاب وقصره هناك قد خرب وبلغني ان السويقة
ايضا قد خربت واقطع العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن

العباس بن عبد المطلب الجزيرة التي بين الصراطين فجعلها العباس
بستانا ومزدردعا وهي العباسية المذكورة والمشهورة التي لاتنقطع
علائها في صيف ولاشتاء ولافي وقت من الاوقات واستقطع العباس
لنفسه لماجعل الجزيرة بستانا في الجانب الشرقي وفي اخر العباسية
تجتمع الصراتان والرجا العظمي التي يقال لها رجا البطريق وكانت
مائة حجر تغل في كل سنة مائة الف الف درهم هندسها بطريق
قدم عليه من ملك الروم فنسبت اليه واقطع الشروية وهم موالي
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دون سويقه عبد الوهاب
ممايلي باب الكوفة وكانوا بوابية رئيسهم حسن الشروي واقطع
المهاجر بن عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب
الكوفة فهناك ديوان الصدقات وبازائه قطيعة ياسين صاحب النجائب
وخان النجائب ودون خان النجائب امطبل الموالي واقطع المسيب بن
زهي الصبي صاحب الشرطة بعنة باب الوفة الداخل الي المدينة
ممايلي باب البصرة فهناك دار المسيب ومسجد المسيب ذو المئارة
الطويلة واقطع ازهر بن زهير اخا المسيب في ظهر قطيعة المسيب
ممايلي القبلة وهو علي الصراة وهناك دار ازهر وبستان ازهر الي
هذه الغاية ويتصل بقطيعة المسيب واهل بيته قطيعة ابي العنبر
مولي المنصور ممايلي القبلة وعلي الصراة قطيعة الصحابة وكانوا من
سائر قبائل العرب من قريش والانصار وربيعة ومضر ويعن وهناك
دار عياش المنتوف وغيره ثم تقطيع يقطين بن موسى احد رجال
الدولة واصحاب الدعوة ثم تعبر الصراة العظمي اجتمعت فيها

الصراخان الصراة العليا والصراة السفلى وعليها القنطرة المعقودة
بالجس والاجر المتحركة الوثيقة التي يقال لها القنطرة العتيقة
لأنها أول شئ بناه وتقدم في احكامه فتعرج من القنطرة ذات اليمين
الي القبلة الي قطيعة اسحاق بن عيسى بن علي وقصوره ودوره
شارعه علي الصراط العظمي من الجانب الشرقي والطريق الاعظم بين
الدور والصراة ومن قطيعة عيسى بن علي الي قطيعة ابي السري
الشامي مولي المنصور، ثم الطاق المعقود عليه الباب المعروف بباب
المحول فتصير منه الي ربض حميد بن قحطبة الطائي وربض حميد
شارع علي الصراة العليا وهناك دار حميد واصحابه وجماعة من ال
قحطبة بن شبيب ثم يتصل ذلك بقطيعة الفراشين وتعرف بدار
الروميين وتشرع علي نهر كرخايا ثم تعود الي الشارع الاعظم وهو
شارع باب المحول وفيه سوق عظيمة فيها اصناف التجارات ثم
يتصل ذلك بالحوض العتيق وهناك منازل الفرس اصحاب الشاه ثم
يستمر المسير الي الموضع المعروف بالكناسة فهناك مرابط دواب
العامة ومواضع نخاسي الدواب ثم المقبرة القديمة المعروفة
بالكناسة مادة الي نهر عيسى بن علي الذي يأخذ من الفرات
والدباغين وبازاء قطيعة الروميين علي نهر كرخايا الذي عليه
القنطرة المعروفة بالروميين دار كعيوية البستانيان الذي غرس
النخل بيغداد ثم بساتين متصلة غرسها كعيوبة البصري الي
الموضع المعروف ببراثا ثم رجعا الي القنطرة العتيقة فقبل ان
تعبر القنطرة مشرقا الي ربض ابي الورد كوثر بن اليمان خازن

بيت المال وسوق فيها - سائر البياعات تعرف بسوق أبي الورد الي
باب الكرخ وفي ظهر قطيعة أبي الورد كوثر بن اليمان قطيعة
حبيب بن رغبان الحمصي وهناك مسجد ابن رغبان ومسجد الأنبار بين
كتاب ديوان الخراج، وقبل ان تعبر الي القنطرة العتيقة وانه
مقبل من باب الكوفة في الشارع الأعظم قطيعة سليم، مولي امير
المؤمنين صاحب ديوان الخراج وقطيعة ايوب عيسى الشردى ثم
قطيعة رباوة الكرمانى واصحابه وتنتهي الي باب المدينة المعروف
بباب البصرة وهو مشرف علي الصراة ودجلة وبازائه القنطرة
الجديدة لأنها اخر ما بني من القناطر وعليها سوق كبيرة فيها سائر
التجارات مادة متملة ثم ربض وضاح ومولي امير المؤمنين المعروف
بقصر وضاح صاحب خزانة السلاح واسواق وهناك واكثر من فيه في
هنا الوقت الوراقون اصحاب الكتب فإنه به اكثر من مائة حانوت
للوراقين ثم الي قطيعة عمرو بن سمعان الحراني وهناك طاق
الحراني ثم الشرقية وانما سميت الشرقية لأنها قدرت مدينة
للمهدي قبل ان يعزم علي أن يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي
من دجلة فسميت الشرقية وبها المسجد الكبير وكان يجمع فيه يوم
الجمعة وفيه منبر وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقية ثم
اخرج المنبر منه، وتخرج من الشرقية مارا الي قطيعة جعفر بن
المنصور علي شط دجلة وبها دار عيسى بن جعفر وتقرّب منها
دار جعفر بن جعفر بن المنصور ثم تخرج من هذه الطرق الأربعة
التي ذكرنا الي شارع باب الكوخ فلولها عند باب النخلين قطيعة

سويده مولي المنصور ورعية سويد في ظهر النخاسين ثم الاسواق
مادة في جانبي الشارع وتخرج من باب الكرخ ميتامنا الي قطيعة
الربيع مولي امير المؤمنين التي فيها التجار تجار خراسان من
البرازين واصناف ما يحصل من خراسان من الثياب لا يختلط بهاشي
وهناك النهر الذي ياخذ من نهر كرخايا عليه منازل الدجار يقال له
نهر الدجاج لانه كان يباع عليه الدجاج في ذلك الوقت وفي ظهر
قطيعة الربيع منازل التجار واخلاط الناس من كل بلد يعرف كل
درب باهله وكل سكة بمن ينزلها والكرخ للسوق العظمي مادة من
قصر وضاح الي سوق الثلاثاء طولا بمقدار فرسخين ومن قطيعة
الربيع الي دجلة عرضا مقدار فرسخ فلكل تجار وتجارة شوارع
معلومة ومغوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراض وليس يختلط
قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه ولا يختلط
اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم وكل سوق مفردة وكل
اهل منفردون بتجارتهم وكل اهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم
وبين هذه الارياض التي ذكرنا والقطائع التي وصلنا منازل الناس من
العرب والهند والدهاقين والتجار وغير ذلك من اخلاط الناس ينتسب
اليهم الدروب والسكك فهذا ربع من ارباع بغداد وهو الربع الكبير
الذي تولاه المسيب بن زهير والربيع مولي امير المؤمنين وعمران
بن الواضح المهندسين وليس ببغداد ربع اكبر ولا اجل منه ومن باب
الكوفة الي باب الشام ربض سليمان بن مجالد لانه كان يتولي هذا
الربع فنسب اليه وفيه قطيعة واضح، ثم قطيعة عاصم بن اسماعيل

المسلي ثم ربض الحسن بن قحطبة ومنازله ومنازل اهله شارعة في
الدرب المعروف بالحسن ثم ربض الخوارزمية اصحاب الحارث بن رقاد
الخوارزمي وقطيعة الحارث في الدرب ثم قطيعة مولي امير
المؤمنين وصاحب الركاب وهي الدار التي سارت لاسحاق بن عيسى
بن علي الهاشمي ثم اشتراها كاتب لمحمد بن عبد الله بن طاهر يقال
له طاهر بن الحارث ثم ربض الخليل بن هاشم البارودي ثم ربض
الخطاب بن نافع الطحاوي ثم قطيعة هاشم بن معروف وهي في درب
الاقفاص ثم قطيعة الحسن بن جعفرات وهي في درب الاقفاص ايضا
متصل بدرب القصارين ومن شارع طريق الانبار فاول القطار قطيعة
واضح مولي امير المؤمنين وولده ودرب ايوب بن المغيرة الفزاري
بالكوفة والدرب يعرف بدرب الكوفيين ثم قطيعة سلامة بن سمعان
البخاري واصحابه ومسجد البخارية والمئارة الخضراء فيه، ثم قطيعة
الجلال المتطيب ثم قطيعة عرف بن نزار اليماني ودرب اليمامية
النالذ الي دار سليمان بن مجالد وقطيعة الفضل ابن جعونة الرازي
وهي التي سارت لداود بن سليمان الكاتب كاتب ام جعفر المعروف
بداود الببطي ثم السيب ودار هبيرة بن عمرو وعلي السيب قطيعة
صالح البلدي في درب صياح النالذ الي سويقة عبد الوهاب وقطيعة
قابوس بن السميدع وبازائه قطيعة خالد بن الوليد التي سارت لابي
صالح يحيى بن عبد الرحمن الكاتب صاحب ديوان الخراج في ايام
الرشيد فتعرف بدور ابي صالح ثم قطيعة شعبة بن يزيد الكابلي
ثم ربض القس مولي المنصور وبستان القس المعروف به ثم ربض

الهيثم بن معوية ويعرف بشار سوق الهيثم وهناك سوق كبيرة متصلة ومنازل ودروب وسكك كله ينسب الي شار سوق الهيثم ثم قطيعة المروروذية ال أبي خلد الانباري ثم ربض أبي يزيد الشروي مولي محمد بن علي واصحابه ثم قطيعة موسي ابن كعب التميمي وقد ولي شرطة المنصور ثم قطيعة بشر بن ميمون ومنازله ثم قطيعة سعيد بن دعليج التميمي ثم قطيعة الشيخير وزكريا بن الشيخير، ثم ربض أبي ايوب سليمان المعروف بابي ايوب الخوزي المورياني وموريان قرية من كورس الاهواز يقال لها منازل ثم قطيعة رداد بن راذان المعروفة بالردادية ثم الممدادار ثم حد ربض حرب ودونه الرملية وهذا الربيع الذي تولاه سليمان بن محالد وواضح موالي امير المؤمنين والمهندسين عمران بن الوضاح والربع من باب الشام فاول ذلك قطيعة الفضل بن سليمان الطوسي والي جنبه السجن المعروف بسجن باب الشام والأسواق المعروفة بسوق باب الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال اهلة عامرة الشوارع والدروب والعراض وتمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال كل درب ينسب الي اهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبته جميعا الي ربض حرب بن عبد الله البلخي وليس ببغداد ربض اوسع ولاكبر ولاكثر دروبا وأسواقا، في الحال منه وأهله واهل بلغ واهل مرو واهل التحتل واهل بخارا واهل اسبيشاب واهل اشتاخنج واهل كابل شاه واهل خوارزم ولكل اهل مرو بلد قائد ورئيس وقطيعة الحكم بن يوسف البلخي صاحب

الحراب وقد كان ولي الشرطة ومن باب الشام في الشارع الاعظم
المهاد الي الجسر الذي علي دجلة سوق ذات اليمين وذات الشمال ثم
ربض يعرف بدار الرقيق كان فيه رقيق ابي جعفر انذين يباعون من
الافاق وكانوا مضمومين الي الربيع مولاه ثم ربض الكرمانية والقائد
بوزان بن خلد الكرمانى ثم قطيعة الصفد ودار خرفاش الصفدي، ثم
قطيعة ماهان الصامغاني واصحابه ثم قطيعة مرزبان ابي اسد بن
مرزبان الفاريابي واصحابه اصحاب العمدة ثم تنتهي الي الجسر فهنا
الربيع الذي تولاه حرب بن عبد الله مولي امير المؤمنين والمهندس
والحجاج بن يوسف والربيع من باب خراسان الي الجسر علي دجلة
ومابعد ذلك بازاهما الخلد وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض
وقصر يشرع علي دجلة لم يزل ابو جعفر ينزله وكان فيه المهدي
قبل ان ينتقل الي قصره بالرفافة الذي بالجانب الشرقي من دجلة
فاذا جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة للجسر
فاذا جاوزت ذلك فاول القطائع قطيعة سليمان بن ابي جعفر في
الشارع الاعظم علي دجلة وفي درب يعرف بدرب سليمان والي جنب
قطيعة سليمان في الشارع الاعظم قطيعة صالح بن امير المؤمنين
المنصور وهو صالح المسكين مادة الي دار نجيع مولي المنصور
التي مارت لعبد الله بن طاهر واخر قطيعة صالح قطيعة عبد
الملك بن يزيد الجرجاني المعروف بابي عون واصحابه الجرجانية ثم
قطيعة تميم الباذغيسي متملة بقطيعة ابي عون ثم قطيعة عباد
الفرغاني واصحابه الفراعنة ثم قطيعة عيسى بن نجيع المعروف بابن

روضة وغللمان الحجابة ثم قطيعة الافارقة ثم قطيعة تمام الديلمي
ممايلي قنطرة التبانين وقطيعة حبل بن مالك ثم قطيعة البغيين
اصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحاق بن
ابراهيم ثم السوق علي دجلة في الفضة ثم قطيعة لجعفر ابن
امير المؤمنين المنصور صارت لأم جعفر ناحية- باب قطربل وتعرف
بقطيعة ام جعفر، ومماعلي القبله قطيعة مرار العجلي وقطيعة عبد
الجبار بن عبد الرحمن الازدي وقد كان يلي الشرطة ثم عزله وولاه
خراسان قمعي هناك فوجه اليه المهدي في الجيوش فحاربه حتي
ظفر به فحمله الي ابي جعفر فضرب عنقه وصلبه وفي هذه الارباض
والقطائع مالم تذكره لان كافة الناس بنوا القطائع وغير القطائع
وتوارثوا واحصيت السجون والسكك فكانت ستة الاف درب وسكة
واحصيت المساجد فكانت ثلثين الف مسجد سوي مازاد بعد ذلك
واحصيت الحمامات فكانت عشرة الاف حمام سوي مازاد بعد ذلك
وجر القناة التي تأخذ من نهر كرخايا الاخذ من الفرات في عقود
وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والاجر من اعلاها معقودة عقدا
وثيقا فتدخل المدينة وتنفذ في اكثر شوارع الارباض تجري صيفا
وشتاء قد هندست هندسة لاينقطع لها ماء في وقت وقناة اخري
من دجلة علي هذا المثال وسماها دجيل وجر لاهل الكرخ ومااتصل
به نهرا يقال له نهر الدجاج وانما سمي نهر الدجاج لان اصحاب
الدجاج كانوا يتفنون عنده ونهراه يسمى نهر طابق بن- الصمية ولهم
نهر عيسي الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن

العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير الي فرسه عليها الاسواق وحوانيت التجار لا تنقطع لي وقت من الاوقات فالماء لا ينقطع ولهم الابار التي يدخلها الماء من هذه القنوات فهي غلبة شرب القوم جميعا منها وانما احتيج الي هذه القنوات لكبر البلد وسعته والافهم بين دجلة والفرات من جميع النواحي تدفق عليهم المياه حتي غرسوا النخل الذي حمل من البصرة فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد وغرسوا الاشجار واثمرت الثمر العجيب وكثرت البساتين والجنة في ارباض بغداد من كل ناحية لكثرة المياه وطيبها وعمل فيها كل مايعمل في بلد من البلدان لان حذاق اهل الصناعات انتقلوا اليها من كل بلد واتوها مهنكل الحق ونزعوا اليها من الاداني والاقصي فهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب المدينة وجانب الكرخ وجانب الارباح في كل طرف منه مقبرة وقري متملة وعمارات مائة .

والجانب الشرقي من بغداد نزله المهدي بن المنصور وهو ولي عهد ابيه وابتدا ببناءه في سنة ثلث واربعين ومائة فاحتط المهدي قنصره بالرمافة الي جانب المسجد الجامع الذي في الرمافة وحفر نهرا يأخذ من النهر وان سماه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي واقطع المنصور اخوته وقواده بعد ما قطع من الجانب الغربي وهو جانب مدينته وسمت القطنع في هذا الجانب وهو يعرف بمعسكر المهدي كماقسمت في جانب المدينة وتنافس الناس في النزول علي

المهدي لمحببتهم له ولاتساعه عليهم بالآموال والعطايا ولانه كان
اوسع الجانبين ارضا لان الناس سبقوا الي الجانب الغربي وهو
جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه ومار فيه الاسواق والتجارات
فلما ابتدئ البناء في الجانب الشرقي امتنع علي من اراد سعة
البناء فأول القطنع علي راس الجسر لخزيمة بن غازم التميمي وكان
علي شرطة المهدي ثم قطيعة اسمعيل بن علي بن عبد الله بن
العباس بن عبد المطلب ثم قطيعة العباس بن محمد بن علي بن
عبد الله بن العباس بن عبد المطلب لانه جعل قطيعة في الجانب
الغربي بستانا، ثم قطيعة السري بن عبد الله بن الحرث بن العباس
بن عبد المطلب ثم قطيعة فثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس
بن عبد المطلب عامل بن جعفر علي اليمامة، ثم قطيعة الربيع مولي
امير المؤمنين لانه جعل قطيعة بناحية الكرخ اسواقا ومستغلات
فاقطع مع المهدي وهو قصر الفضل بن الربيع والمبدان ثم قطيعة
جبريل، بن يحيى البجلي ثم قطيعة اسد بن عبد الله الخزاعي ثم
قطيعة ملك بن الهيثم الخزاعي ثم قطيعة سلم بن قتيبة الباهلي
ثم قطيعة سفيان بن معاوية المهلبى ثم قطيعة روح بن حاتم ثم
قطيعة ابان بن صدقة الكاتب، ثم قطيعة حموية الخادم مولي
المهدي، ثم قطيعة نصير، الوصيف مولي المهدي، ثم قطيعة سلمة
الوصيف صاحب خزانة سلاح المهدي، ثم قطيعة بدر الوصيف مع
سوق العطش وهي السوق العظمي الواسعة، ثم قطيعة العلاء
الخادم مولي المهدي ثم قطيعة يزيد بن منصور الحميري ثم قطيعة

زياد بن منصور الحارثي ثم قطيعة ابي عبيد معاوية ابن بزمك
البلخي علي قنطرة بردان ثم قطيعة عمارة بن حمزة بن ميمون ثم
قطيعة ثابت بن موسي الكاتب علي خراج الكوفة وماسقي الفرات ثم
قطيعة عبد الله بن زياد بن ابي ليلى الخثعمي الكاتب علي ديوان
الحجاز والموصل والجزيرة وارمينية واذربيجان ثم قطيعة عبيد الله
بن محمد بن صفوان القاضي ثم قطيعة يعقوب ابن داود السلمي
الكاتب الذي كتب للمهدي في خلافته - ثم قطيعة منصور مولي
المهدي وهو الموضوع الذي يعرف بباب المقير ثم قطيعة ابي
هريرة محمد بن فروخ القائد بالموضع المعروف بالمخرم ثم قطيعة
معاذ بن مسلم الرازي جد اسحق بن يحيى بن معاذ ثم قطيعة
الغمر بن العباس الخثعمي صاحب البحر ثم قطيعة سلام مولي
المهدي بالمخرم وكان يلي المطالم ثم قطيعة عقبة بن سلم الهنالي
ثم قطيعة سعيد الحرشي في مربعة الحرشي ثم قطيعة مبارك
التركي ثم قطيعة سوار مولي امير المؤمنين ورحبة سوار ثم
قطيعة نازي مولي امير المؤمنين صاحب الدواب وامطبل نازي ثم
قطيعة محمد بن الاشعث الخزاعي ثم قطيعة عبد الكبير عبد
الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب اخي عمر بن الخطاب ثم
قطيعة ابي غسان مولي امير المؤمنين المهدي وبين القطاع منازل
الجند وسائر الناس من التناء ومن التجار ومن سائر الناس في كل
محله وعند كل ريف وسوق هنا الجانب العظمي التي تجتمع فيها
اصناف التجارات والبياعات والصناعات علي راس الجسر مارا من راس

الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من أصناف التجارات والصناعات، وينقسم طرق الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي خمسة اقسام، فطريق مستقيم الي الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع وطريق في السوق التي يقال لها سوق خضير وهي معدن طرائف الصين ونخرج منها الي الميدان ودار الفضل بن الربيع وطريق ذات اليسا رالي باب البردان وهناك منازل جلد بن برمك وولده، وطريق الجسر من دار خزيمة الي السوق المعروفة بسوق يحيي بن الوليد الي الموضع المعروف بالدور الي باب بغداد المعروف بالشماسية ومنه يخرج من اراد الي سر من رأي، وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتي من الجانب الغربي ياخذ علي دجلة الي باب المقير والمخير وما اتصل بذلك، وكان هذا اوسع الجانبين لكثرة الاسواق والتجارات في الجانب الغربي كما وصفنا فنزله المهدي وهو ولي عهد وفي خلافته ونزله موسي الهادي ونزله هارون الرشيد ونزله المأمون ونزله المعتصم وفيه اربعة الاف درب وسكة وخمسة عشر الف مسجد سوي مازاده الناس وخمسة الاف حمام سوي مازاده الناس بعد ذلك وبلغ أجره الاسواق ببغداد في الجانبين جميعا مع رجا البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثني عشر الف الف درهم ونزل ببغداد سبعة خلفاء المنصور والمهدي وموسي الهادي وهارون الرشيد ومحمد الامين وعبد الله المأمون والمعتصم فلم يمت بها منهم واحدا الامحمد الامين بن هارون الرشيد فانه قتل خارج باب الانبار عند بستان طاهر.

وهذه القطنع والشوارع والبروب والسكك التي ذكرتها علي
مارسمت في ايام المنصور وقت ابتدائها وقد تغيرت ومات
المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم وجيل وبعد جيل
وزادت عمارة بعض المواضع وملك قوم ديار قوم وانتقل
الوجوه والجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتم
الي سر من راي في سنة ثلث وعشرين ومائتين، ثم اتصل بهم
المقام في ايام الواثق والمتوكل ولم تخرب بغداد ولا نقصت
اسواقها لانهم لم يجدوا منها عوضا ولانه اتصلت العمارة والمنازل
بين بغداد وسرمن راي في البر والبحر أعني في دجلة وفي جانبي
دجلة . [١]

رسالة في فضل علي بن أبي طالب
وآله من بنى هاشم

رسالة في عيسى بن أبي طالب والله من بنى هاشم

تقدمة:

هذه اولي رسالتين، تضمنهما كتاب بهاء الدين ابي الفتح، علي
ابن عيسى الاربلي كشف الغمة في معرفة الائمة، ومدرنا بهما
عنه.

وعلي بن عيسى هذا هو احد شعراء القرن السابع وكتابه
المتوسلين ولد في اربل الواقعة بين الزاب الكبير والزاب الصغير
في اقليم الجزيرة قريبا من اذربيجان وعمل في ديوانها كما عمل من
بعد في ديوان بغداد.

اما كتابه فهو من الكتب التي تمثل غلبة التشيع في هذا
الافق الشرقي من آفاق العالم الاسلامي بما بناه عليه من ذكر
تاريخه، والترجمة لائمة ومن ذلك كان من اوائل الكتب التي عني
بطبوعها في ايران، وانما استجزنا ان نصدر بهاتين الرسالتين عنه،
لانه وان كان مطبوعا كان في اعتبارنا في حكم المخطوط وذلك
لندرة نسخه، وصعوبة الحصول عليه، اذا كان انما طبع في سنة

اربع وتسعين ومائتين والـف، للهجرة التي توافق في التاريخ
الميلادي سنة سبع وسبعين وثمانمائة والـف. وإذا كان قد انفراد،
فيما وقفنا عليه بما اورد من الآثار المنسوبة لأبي عثمان.

وعلي ان هاتين الرسالتين اللتين اوردهما منسوبتين الي الجاحظ
متفاوتتان تفاوتاً بعيداً في تحقيق هذه النسبة.

فأما الأولى التي ذكر انه اوردها مختصراً لها بعد ان وقد
عليها بخط عبد الله بن الحسين الطبري، فهي في جملتها، فيما
يغلب علي ظننا صحيحة بالنسبة الي الجاحظ وان امتدت اليها يد
أبي الفتح بالاعتصار الذي يشير اليه والذي لا يبعد عندنا ان يكون
قد حذف به منها أشياء لها خطرهما في التاريخ الأدبي والفكري
وبها اضافته كما هو واضح الي علي ويديه من الألقاب التي جرت
عادة الشيعة بالحاقها باسمه واسماء سلالته وهي القاب «السلام
عليه» مما لا نجد له أثراً فيما عدا هذه النسخة من الرسالة من
كتب الجاحظ وسأله اذ لا تزيد ان هي فعلت الا عبارة «رضي الله
عنه» أو «كرم الله وجهه».

أما فيما عدا ذلك فالذي نكاد نقطع به انها من آثار الجاحظ،
كما يغلب علي الظن انها تنتمي الي رسائل الهاشميات التي ذكرها
في مقدمة الحيوان بقوله.

وعبّيتني برسائلي الهاشميات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها وتصويري لهد في احسن صورة لها في اتم حلية وزعمت اني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة الي حد الزيدية ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الي حد السرف والافراط وزعمت ان مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة، وان مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالبة الي اخر ما قاله في هذا النمط، مشقنا الكلام علي عاداته متطرقا من الجزئي الي الكلي ومن المسائل الخاصة الي القضايا العامة .

ولعل هذه الصفات التي وصف بها الجاحظ رسائله الهاشميات هذه كانت مما اغري علي بن عيسي بأن ينقلها او ينقل احداها الي كتابه بعد ان يتصرف فيها بما تحمله عليه شيعته وما قدره حجم كتابه وطبيعته وقد اتاح له ذلك ما يمتاز به اسلوب الجاحظ من بسط وما يلتزمه كثيرا من مزاجه . وقد استطاع ان يحتفظ الي حد غير قليل فيما اداه الينا من رسالته بسمات هذا الاسلوب .

وكما استطاع ان يحتفظ بمثل هذه السمات من أسلوبه استطاع ان يحتفظ بالطابع الاعتزالي في تحقيق الغاية التي يجري اليها وهي الانتصار لبني هاشم وبيان مناقبهم . وكان من اول معالم هذا الطابع واطهرها، امطناع المناظرة في الاحتجاج للمسائل التي يتناولها

المعتزلة منذ تحولت قضايا الدين اليهم، فتحول معها أسلوب
الاقناع من الخطابة التي كان يصطنعها اسلافهم ، يتجهون بها الي
وجدان الناس الي هذا النمط الذي يتجه الي العقل يصطنع له ما
يلائمه ويساير طبيعته وهو الحوار الذي لم يلبث ان غلب عليهم
يتخذونه فيما يريدون الاقناع به ويتجاوزن به في بعض الاحيان هذه
الغاية فيتخذونه نوعامن الرياضة العقلية ، يزجون بها اوقات
فراغهم .

ويبدو هذا فيما اشار اليه الجاحظ في هذه الرسالة من وجوه
الخصومة التي كانوا يتمدون لها بين البصرة والكوفة وبين العرب
والشعوبية وبين عدنان وقحطان وفيما كانوا يعالجونه من قضايا
الوعد والوعيد والقدر والتشبيه والاسماء والاحكام، وغير ذلك مما
كان المجتمع البصري يضطرب به ويدفع اليه .

وقد كان من ذلك ماكان يتورط فيه هذا المجتمع المعقد اشد
التعقيد من الكلام عن الرجال مناضلة بينهم وتمييزا بين طبقاتهم
ومما قد يؤدي اليه هذا من الغلو في التقدير والخروج عن القصد
وذلك مما ينبغي للمعتزلة ان يتجنبوه فلا ينزلقوا اليه . ف يلتزموا
النهج الأوسط الذي يري الاطراف المختلفة ولا تدفعهم الخصومة الي
مثل ما دفعت اليه اليهود والنصارى في دعاواهم والي ماالمحمدي علي
بن ابي طالب في مثل قوله: يهلك في رجالان ، محب مفرط ومبغض

مفرط . .

وكذلك كان مذهب الجاحظ في هذه الرسالة التي بناها علي بيان درجة بني هاشم إذ يقول "والرأي كل الرأي إلا يدعوك حب الصحابة الي بخس عترة رسول الله صلي الله عليه وسلم حقوقهم وحظوظهم وكان ذلك المذهب الذي اخذ نفسه به الذي عرضه لما اتهم به خصومه من أنه خرج بذلك من حد المعتزلة الي حد الزيدية .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الرسالة التي لانقصد غير التقديم لها تعرض لنا نمطا من الأدب الجاحظي يختلف اختلافا كبيرا عن النمط الذي رأيناه من قبل، بقدر ما يعبر عن شخصية الجاحظ في غير ناحية من تواحيه وما تجلوه به في صورة الرجل السمع الواسع الأفق البعيد من التزمت القريب من النهج الأوسط في رويته للأمور وتناوله لها ووضعها في أقدارها .

اعلم - حفظك الله - أن أصول الخصومات معروفة بينه، وأبوابها مشهورة، كالخصومة بين الشعوبية والعرب والكوفي والبصري والعدناني والقحطاني، فهذه الابواب الثلاثة انقص للعقول السليمة، وأفسد للأخلاق الحسنة، من المنازعة في القدر والتشبيه، وفي الوعد والوعيد، وفي الاسماء والأحكام وفي الآثار وتصحيح

الآخبار .

وأنقص من هذه للعتول تمييز للرجال وترتيب الطبقات، وذكر تقديم علي وأبي بكر رضوان الله عليهما . فأولي الأشياء بك القصد وترك الهوي فإن اليهود نازعت النصارى في المسيح، فلج بهما القول، حتي قالت اليهود أنه ابن يوسف النجار، وأن لغير رشده وأنه صاحب نيرنج وخدع ومخازيق، وناصب شرك وصياد شص وشبك فما يبلغ عن عقل صياد وريبب نجار؟ وزعمت النصارى أنه رب العالمين، وخالق السماوات والأرضين واله الأولين والآخرين . فلو وجدت اليهود أسسوا من هذا القول مقالته فيه . وعلي هذا قال علي "عليه السلام" يهلك رجالان، محب مفرط ومبغض مفرط . والرأي كل الرأي الأيدعوك حب الصحابة الي بخس عترة الرسول صلي الله عليه وسلم وحقوقهم وحظوظهم فإن عمر لما كتبوا الدواوين وقدموا ذكره فأنكر ذلك، وقال ابدءوا بطرقي رسول الله، صلي الله عليه وسلم واله، وضعوا آل الخطاب حيث وضعهم الله قالوا : فانت امير المؤمنين فابي الاتقديم بني هاشم علي نفسه . فلم يذكر عليه منكر وصوبوا رأيه وعدوا ذلك من مناقية .

وأعلم أن الله لو أراد ان يسوي بين بني هاشم وبين الناس لما ابانهم يسهم ذوي القربي ولما قال "انذر عشيرتك الاقربين" وقال تعالى - "وانه لذكر لك ولقومك" واذا كان لقومه في ذلك ماليس لغيرهم فكل من كان أقرب كان ارفع . ولوسواهم بالناس لما حرم عليهم الصدقة وما ذلك التحريم الا لأكرامهم علي الله . ولذلك قال

للعباس، حيث طلب ولاية الصدقات: "لاولينك غسالات خطايا الناس
واوزارهم بل اوليك سقاية الحاج والانفاق علي زوار الله. ولهذا كان
رباه اول ربا وضع ودم وربيعه بن الحارث واول دم اهدى لانهما
القذوة في النفس والهال."

ولهذا قال علي، عليه السلام علي منبر الجماعة نحن اهل البيت
لايقاس بنا أحد وصدق صلوات الله عليه. كيف يقاس بقوم منهم
رسول الله صلي الله عليه وسلم، والأطيبان: علي وفاطمة والسبطان
الحسن والحسين، والشهيدان اسد الله حمزة وذو الجناحين جعفر
وسيد الوادي عبد المطلب وساقى الحجيج العباس، وحليم البطحاء
والنجد والخير فيهم، والانصار انصارهم والمهاجر من هاجر اليهم
ومعهم والصديق من صدقهم والفاروق بن الحق والباطل فيهم
والحواري حواريتهم، وذو الشهادتين لانه شهد لهم ولاخير فيهم
ولهم ومنهم ومعهم.

وقال عليه السلام فيما ابان به اهل بيته. "اني تارك فيكم
الخليفتين احدهما اكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء
الي الارض، وعترتي، اهل البيت. نبأني الخبير انهما لن يفترقا حتي
يردا علي الحوض."

ولو كانوا كغيرهم لما قال عمر، حين طلب مصاهرة علي: اني

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل سبب ونسب
منقطع يوم القيامة الاسببي ونسبي".

واعلم ان الرجل قد ينازع في تفضيل ماء دجلة علي ماء الفرات
فان لم يتحفظ وجد في قلبه علي شارع ماء دجلة «رقة» لم يكن
يجدها ووجد في قلبه غلظة علي شارب ماء الفرات لم يكن يجدها.

فالحمد لله الذي جعلنا لانفرق بين أبناء نبينا، ورسلنا. نحكم
لجميع المراسلين بالتصديق ولجميع السلف بالولاية ونخص بني هاشم
بالمحبة ونعطي كل امرئ قسطة من المنزلة.

فاما علي بن ابي طالب، عليه السلام فلو اردنا لايامه الشريفة
ومقاماته الكريمة ومناقبه السنية كلاما لانينا في ذلك الدوامير
الطوال. العرق صحيح، والمنشا كريم والشان عظيم والعمل جسيم
والعلم كثير، والبيان عجيب، واللسان خطيب والصدر رحيب، فاخلاقه
ولق أعراقه. وحديثه يشهد لتديمه، وليس التدبير في وصف مثله
الا بذكر جمل قدره واستقصاء جميع حقه فاذا كان كتابنا لايجتمل
تفسير جميع أمره، فلي هذه الجملة بلاغ من اراد معرفة فضله.

واما الحسن والحسين، عليهما السلام، فمثلهما مثل الشمس
والقمر. فمن اعطي مافي الشمس والقمر من المنافع العامة والنعم

الشاملة التامة ؟ ولو لم يكونا ابني علي من فاطمة . عليهم السلام ورفعت من وهمك كل رواية وكل سبب توجيه القرابة لكنت لاتقرن بهما احدا من جلة اولاد المهاجرين والصحابة الا اراك فيهما الانصاف من تصديق قول النبي صلي الله عليه وسلم انهما سيذا شباب اهل الجنة جميع من هما سادته سادة . والجنة لاتدخل الا بالصدق والصبروا لا بالحلم والعلم والا بالطهارة والزهد والا بالعبادة والطاعة الكثيرة والأعمال الشريفة والاجتهاد والأثره الاخلاص في النية فدل علي أن حظهما في الأعمال المرضية والملاهب الزكية فوق كل خط .

واما محمد بن الحنفية فقد اقر الصادر والوارد والحاضر والبادي انه كان واحد دهره وعصره رجل وكان اتم الناس تماما وكمالا .

واما علي بن الحسين عليه السلام فالناس علي اختلاف مذاهبهم مجمعون عليه لايمتري احد في تدبيره ولايشك احد في تقديمه وكان اهل الحجاز يقولون لم نرثلاثة في دهر ، يرجعون الي اب قريب كلهم يسمي عليا ، وكلهم يصلح للخلافة لتكامل خصال الخير فيهم يعنون علي بن الحسين بن علي عليهم السلام وعلي بن عبد الله بن جعفر وعلي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه .

ولو غزونا بكتابنا هذا ترتيبهم لذكرنا اولا عليا لصلبه وولد الحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن عبد الله بن جعفر ومحمد بن

علي بن عبد الله بن العباس . الا انا ذكرنا جملة من القول فاقتصرنا
من الكثير علي القليل .

فاما النجدة فقد علم اصحاب الاخبار وحوال الاثار انهم لم
يسمعوا بمثل نجده علي ابن ابي طالب عليه السلام، وحمزة رضي الله
عنه ولا بصبر جعفر الطيار، رضوان الله عليه وليس في الارض قوام
اثبت جنائيا، ولا اكثر مقتولا تحت ظلال السيوف ولا اجدر ان
يقاتلوا وقد فرت الاجناد وذهبت المنائع، وخام ذو البصيرة وحاد
اهل النجدة، من رجالات بني هاشم وهم كما قيل

وخام الكمي، وطاح اللـواء . ولا تأكل الحرب الاسميننا

وكذلك قال دغل حين وصفهم "انجاد امجاد ذو السنة حناد"
وكذلك قال علي عليه السلام حين سل عن بني هاشم وبني امية نحن
انجد وامجد واجود وهم انكر وامكر واعلر" وقال ايضا "نحن اطعم
للطعام، واضرب للهام" .

وقد عرفت جفاء المكيين وكييس المدنيين، واعراق بني هاشم
مكية ومناسبهم ومدينية ثم ليس في الارض احسن اخلاقا . ولا اظهر
بشرا ولا ادوم دماثة ولا ألين عريكة ولا اطيب عشرة ولا ابعد من
كب . منهم والحدة لا يكاد يعدمها الحجازي والتهامي، الا ان حليمهم لا

يشق عبارة وذلك في الخاص والجمهور علي خلاف ذلك حتي تصير الي بني هاشم فالحلم في جمهورهم وذلك يوجد في الناس كافة ولكننا نضمن انهم اتهم الناس فضلاً واقلهم نقصاً وحسن الخلق في البخيل اسرع، وفي الدليل اوجد وفيهم مع فرض وجوهم وظهور عزهم من البشر الحسن والاحتمال وكرم التفاضل مالا يوجد مع البخيل الموسر والدليل المكثر اللذين يجعلان البشرواقيّة دون المال.

وليس في الارض خصلة تدعو الي الطغيان والتهاون بالامور وتفسد العقول، وتورث السكر، والا وهي تعترتهم وتعرض لهم دون غيرهم، اذ قد جمعوا من الشرف العالي والمغرس الكريم، والعزة والمنعة، مع ابقاء الناس عليهم والهيبة لهم وانهم في كل اوقاتهم وجميع اعصارهم فوق من هم في مثل ميلادهم في الهيبة الحسنة والمروءة الظاهرة والاخلاق المرضية وقد عرف الحدث الغريب من فتيانهم وذو العرامة من شبابهم انه ان التري لم يفتر عليه وان ضرب لم يضرب، ثم لانجده الاقوي الشهوة بعيد الهمة كثير المعرفة مع خفة ذات اليد وتعدر الامور ثم لانجد عند افسدهم شيئا عند المنكر الا رايت من غيره من الناس اكثر منه من مشايخ القبائل وجمهور العشائر. اذا كان لاضلهم فوق كل فاضل، وناقصهم انقص نقصانا من كل ناقص فاي دليل ادل اي برهان اوضح مماقلته.

وقد علمت ان الرجل منهم يبعث بالتعظيم «يشار اليه» بالرواية

في دخول الجنة بغير حساب، ويتأول القرآن له ويزداد في طمعه بكل حيلة وينقص من خوفه، ويحتج له بأن النار لا تمسه وأنه ليشفع في مثل ربيعه ومضر وأنت تجد لهم مع ذلك العدد الكثير من الصوام والمصلين والتالين الذين لا يجاريهم احد ولا يقاربهم.

كان ابوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب يصلي في كل ليلة الف ركعة، وكذلك علي بن الحسين بن علي وعلي بن عبد الله بن جعفر وعلي بن عبد الله العباس عليهم السلام، مع الحلم والعلم، وكظم الغيظ والصفح الجميل، والاجتهاد المبرر. فلوا ان خصلة من هذه الخصال اوداعية من هذه الدواعي عرضت لغيرهم، لهلك واهلك.

اعلم انهم لم يمتحنوا بهذه المحن، ولم يتحملوا هذه البلوي الا لما قدموا من العزائم التامة والادوات الممكنة ولم يكن الله ليزيدهم في المحنة الا وهم يزدادون علي شدة المحن خيرا وعلي التكشف تهديبا.

وجملة اخري مما لعلي بن ابي طالب عليه السلام خاصة الاب ابو طالب والجد عبد المطلب بن هاشم والام فاطمة بنت اسد بن هاشم والزوجة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد نساء اهل الجنة والولد الحسن والحسين سيدي شباب اهل الجنة والاخ جعفر الطيار في الجنة والعم العباس وحمزة سيد الشهداء في الجنة

والعمة صفية بنت عبد المطلب وابن العم رسول الله صلى الله عليه وسلم والده . واول هاشمي بين هاشميين كان في الارض ولد ابي طالب والاعمال التي يستحق بها الفخر اربعة : التقدم في الاسم والذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الدين والفقه في الحلال والحرام الزهد في الدنيا وهي مجتمعة في علي بن ابي طالب متفرقة في الصحابة .

وفي علي يقول اسد بن زعيم يحرض عليه قريشا وانه بلغ منهم علي حداثة سنة مالم يبلغه ذوو الاسنان .

في كل مجمع غاية اخزاكم جذاع ابر علي المذاكي القرح
لله دركم الما تنكروا قد ينكر الضيم الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الذي افناكم نبغات، ويمشي امنا لم يجرح
اين الكهول؟ واين كل دعامة للمعضلات واين زين الابطاح؟
افناكم ضربا بكل مهنة طلت وحد غرارة لم يطفخ

واما الجود فليس علي ظهر الارض جواد جاهلي ولا اسلامي ولا عربي ولا عجمي ولا وجوده يكاد يصير بخلا اذا ذكر وجود علي بن ابي طالب، وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن العباس والمذكورون بالجود منهم كثير لكننا اقتصرنا .

ثم ليس في الارض قوم انطق خطيبا، ولاكثر بليغا، من غير

تكلف ولا تكسب من بني هاشم وقال ابو سفيان بن الحارث:

لقد علمت قريش غير فخر بأننا نحن اجروهم جنانا
واكثرهم دروعا سابغات وامضاهم اناطعنوا سنانا
وادفعهم عن الضراء فيهم وابينهم اذا نطقوا بياننا

ومما يضم الي جملة القول في فضل علي بن بن طالب، عليه السلام أنه اطاع الله قبلهم ومعهم وبعدهم وامتنحن بها لم يمتحن به ذو عزم وابتلي بها لم يبتل به ذو صبر.

واما جملة القول في ولد علي فان الناس لايعظمون الناس الا بعد ان يصيبوا منهم، وينالوا من فضلهم والا بعد ان تظهر قدرتهم وهم معظمون قبل الاختيار، وهم بذلك واثقون به موقنون. فلولا أن هناك سرا كريما، وخيما عجيبا وفضلا مبينا وعرفا ناسيا لاكتفوا بذلك التعظيم ولم يعانون تلك التكاليف الشداد والمحن الغلاط.

واما المنطق والخطب، فقد علم الناس كيف كان علي بن ابي طالب عند التفكير والتعبير وعند الارتجال وعند الاطناب والايجاز في وقتها وكيف كان كلامه قاعدا وقائما وفي الجماعات ومنفردا مع الخبرة بالاحكام والعلم بالحلال والحرام. وكيف كان عبد الله بن عباس رضوان الله عليه فالذي كان يقال له الخبير والبحر، ومثال عمر بن الخطاب يقول له "غص ياغواص" شنشنه اعرفها من اخزم، قلب عقول

ولسان قول "ولو لم يكن لجماعتهم الا لسان زيد بن علي بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن جعفر لفرعوا بهما جميع البلغاء وعلوا بهما علي جميع الخطباء ولذلك قالوا "واجواد امجاد السنة حداد" .

وقد القيت اليك جملة من ذكر الـ الرسول يستدل بالقليل منها علي الكثير وبالبعض علي الكل والبغية في ذكرهم انك متي عرفت منازلهم ومنازل طاعاتهم ومراتب اعمالهم وأقدار افعالهم وشدة محنتهم واضفت ذلك الي حق القرابة كان أدني مايجب علينا الاحتجاج لهم وجعلت بدل التوقف في امرهم الرد علي من اضاف اليهم مالا يليق بهم وقد تقدم من قولنا فيهم، متفرقا ومجملا وما اغني عن الاستقصاء في هذا الكتاب .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- ١- ابن أبي أميعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي، توفي سنة ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جزءان، نشر وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ٢- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري، توفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م.
- الكامل في التاريخ، طبعة القاهرة، ٤ أجزاء.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، طبعة المعارف، القاهرة ١٢٨٥هـ.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، طبعة المعارف، القاهرة ١٢٨٥هـ.
- ٣- ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف، توفي سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ح١، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
- ٤- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد حزم الظاهري، توفي سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م.
- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق الدكتور احسان عباسي،

- والدكتور ناصر الدين الأسد، طبع دار المعارف، مصر [مجموعة تراث الاسلام].
- جمهرة انساب العرب، تحقيق ليفي بروفنتسال، طبع دار المعارف، سنة ١٩٤٨. [مجموعة ذخائر العرب].
- الفصل في الملك والاهواء والنحل، ٤ أجزاء، القاهرة، سنة ١٣١٧هـ.
- ٥- ابن حوقل، أبو القاسم محمد، توفي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م.
- كتاب صورة الارض، نشر Kramers ليدن ١٩٣٨، في جزئين.
- ٦- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله عبد الله توفي ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م.
- كتاب المسالك والممالك، طبعة دجويه، ليدن ١٨٨٩، وبديله نبذة من كتاب "الخرج ومنعه الكتابة"، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي.
- ٧- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين التونسي الخضرمي الاشبيلي المالكي، توفي في سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، ٧ أجزاء، بولاق ١٣٨٤ هـ.
- مقدمة ابن خلدون، طبعة التجارية.
- التعريف بابن خلدون رحلته شرقاً وغرباً، نشر محمد بن تاويت الطبخي، القاهرة ١٣٧ هـ / ١٩٥٠ م.
- ٨- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد، توفي سنة

١٢٨٢هـ / ١٢٨٢م.

- وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، نشر محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ أجزاء، طبع القاهرة ١٣٦٧ - ١٣٦٩هـ / ١٩٤٨ - ١٩٥٠م.

٩ - ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري، توفي سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٥م.

- كتاب الطبقات الكبير، تحقيق ادوارد سغو، ٨ أجزاء، ليدن ١٩٠٤ - ١٩١٧م.

١٠ - ابن سعيد، علي بن موسى المغربي، توفي سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٦م.

- المغرب في حلي المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، طبع دار المعارف، القاهرة [مجموعة ذخائر العرب].

١١ - ابن الشباط، محمد بن علي بن محمد المصري التوزري، توفي سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م.

- صلة السمط وسمة المرط نشر القسم الخاص بالاندلس، أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٧١م.

١٢ - ابن عبد البر القرطبي، يوسف النمرى توفي سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م.

- الاستيعاب في معرفة الاصحاب، نشر علي هامش الاصابة لابن حجر، ٤ أجزاء النسخة المصورة بالأوفست، المثني بغداد.

١٨- ابن القوطية، محمد بن عمر، توفي سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م.
- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، طبع بيروت
١٩٥٧.

١٩- ابن الكردبوس، [آخر القرن السادس الهجري ١٢م]
- تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات
الإسلامية بهدريد ١٩٧١.

٢٠- ابن النديم، محمد بن إسحاق، توفي ٣٨٣هـ / ٩٩٣م.
- الفهرست، طبعة التجارية

٢١- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري،
توفي سنة ٢١٨هـ.
- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقاره، إبراهيم الأبياري، عبد
الحفيظ شلبي، ٤ أجزاء، طبع دار أحياء التراث العربي، بيروت،
لبنان.

٢٢- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الخزرجي
الأفريقي، توفي سنة ٧١١هـ / ١٣١١م.
- لسان العرب، طبع بولاق ١٢٩٩ - ١٣٠٨هـ، في عشرين مجلدًا.

٢٣- أحمد أمين، ضحي الإسلام، جزءان، طبع لجنة التأليف والترجمة
والنشر، طبعة ثالثة، القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢.
- طبع دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة.

٢٤- الامطخري، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي، توفي سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م.

- كتاب المسالك والممالك نشر دجويه ليدن ١٩٢٧م.

٢٥- الأصفهاني [أبو الفرج]، توفي سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٧م.

- كتاب الأغاني، ٢١ جزءاً، طبع القاهرة ١٩٢٧- ١٩٣٦م.

٢٦- بروفنسال، تاريخ أسبانيا الإسلامية، بالفرنسية طبع الجمعية

الفرنسية للأثار الشرقية، القاهرة ١٩٤٨م.

٢٧- الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن علي، توفي

سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠-١٠٧١م.

- تاريخ بغداد أومدينة السلام، ١٤ جزءاً، طبع القاهرة

١٣٤٩هـ / ١٩٣١م.

٢٨- البغدادي، أيومنصور عبد القاهر بن طاهر، توفي سنة ٤٢٩هـ

/ ١٠٣٧م.

- الفرق بين الفرق، طبع القاهرة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م.

٢٩- البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز، توفي سنة

٤٨٧هـ / ١٠٩٤م.

- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب نشر دسلن، باريز ١٩١١م.

٣٠- البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، توفي سنة

٢٧٩هـ / ٨٩٢م.

- كتاب فتوح البلدان، طبع ليدن ١٨٦٦م.
- ٣١- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، توفي سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م -
- يتيمة الدهر، أربعة أجزاء، طبع القاهرة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م.
- ٣٢- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، توفي سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م -
- كتاب التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة،
١٣٣٢هـ / ١٩١٤م.
- كتاب البيان والتبيين، ٤ أجزاء، القاهرة ، ١٩٢٨م.
- كتاب التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الطبعة
الثانية، القاهرة، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م.
- ٣٣- الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس، توفي
٣٣١هـ / ٩٤٣م.
- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد
الحفيظ شلبي طبع القاهرة ١٩٣٨م.
- ٣٤- حاجي خليفة، مصطفى كاتب جلبي، توفي ١٠٦٧هـ،
١٦٥٧م.
- كشف الطنون عند أسامي الكتب والفنون، طبع ليبزج ولندن
١٨٥٨-١٨٣٥م.
- ٣٥- خليفة بن خياط، توفي سنة ٢٤٠هـ / ٩٥١م.
- تاريخ خليفة بن خياط [رواية بقي بن محمد] تحقيق سهيل زكار، في

قسمين، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق
١٩٦٧-١٩٦٨.

٣٦- ديمومبيين [جودلروا]، النظم الإسلامية، ترجمة الدكتور فيصل
السامر، الدكتور صالح الشماع، دار النشر للجامعيين، بيروت
١٩٦١.

٣٧- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، توفي سنة
١٣٤٧/١٣٤٨ هـ.

- تذكرة الحفاظ، جزءان، الطبعة الثانية، حيدر آباد - الدكن الهند،
١٣٣٣ هـ.

- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، وثلاثة أجزاء، نشر مكتبة
القدس، طبع القاهرة ١٣٦٧-١٣٦٨ هـ.

- كتاب دول الإسلام، جزءان طبع حيدر آباد الدكن الهند - الطبعة
الثانية، سنة ١٣٦٤-١٣٦٠ هـ.

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ٤ أقسام، تحقيق محمد البجاوي،
طبع عيسى البابي الحلبي، القاهرة سنة ١٩٦٣ م.

٣٨- الرقيق القيرواني، أبو القاسم إبراهيم، توفي بعد سنة ٤١٧ هـ/
١٠٢٦ م.

- تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق الملجي الكعبي، تونس ١٩٦٨.

٣٩- الزبير، أبو عبد الله الزبير بن بكار بن أحمد بن مصعب، توفي

سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م

- كتاب نسب قريش، تحقيق ليفي برونفلسال، نشر دار المعارف، مصر ١٩٥٣ [مجموعة ذخائر العرب].

٤٠- سعد زغلول، التاريخ العباسي، والأندلسي، طبع دار النهضة العربية، بيروت.

- تاريخ الدولة العربية، طبع دار النهضة العربية، بيروت.

٤١- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين، توفي سنة ٩١١هـ / ١٥٠٩م.

- حسين المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، جزآن، طبع القاهرة، سنة ١٣٢٧.

- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، طبع القاهرة، سنة ١٣٠١هـ.

٤٢- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، توفي سنة ٥٤٨هـ /

- الملل والنحل، ٥ أجزاء، القاهرة ١٣١٧هـ.

٤٣- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، توفي سنة ٣١٠هـ / ٩٢٣م.

- تاريخ الأمم والملوك، طبعة دار المعارف ١٠ أجزاء [مجموعة ذخائر

العرب] .

٤٤- طيفور، ابو الفضل أحمد بن أبي طاهر، توفي سنة ٣٨٠هـ /
٨٩٣-٨٩٤م .
- تاريخ بغداد، الجزء السادس، طبعة هـ . كلر، لابنرج ١٩٠٨ .

٤٥- القاضي عياض، ابوالفضل بن موسى اليحصبي، توفي سنة
٤٧٦هـ /

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة اعلام مذهب مالك، تحقيق
أحمد بكير محمود، ٤ أجزاء، طبع بيروت .

٤٦- فاروق عمر:

- طبعة الدعوة العباسية [٧١٦هـ / ٧١٦م - ١٣٢هـ / ٧٤٩م]، دراسة
تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها، طبع دار الارشاد
بيروت ، طبعة أولي، سنة ١٩٧٠م .
- بحوث في التاريخ العباسي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٧٧م .

٤٧- القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي، توفي ٣٥٦هـ /
٩٦م .

- كتاب الأمالي، جزآن، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان .
- كتاب ذيل الأمالي والنوادر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان .

٤٨- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب،
توفي سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م .

- اخبار العلماء باخبار الحكماء، نسخة مصورة بالأوفست عن طبعة ليبزج ١٩٠٣م، مكتبة المثنى، بغداد.

٤٩- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي المصري، توفي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م.

- صبح الأعشي في صناعة الانشاء، في ١٤ جزءاً، طبع دار الكتب المصرية، ١٩١٣-١٩١٩ نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٦٥.

- نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٩٥٩.

٥٠- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف، توفي سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م.

- كتاب الولاة والقضاة، نشر فن جست، طبعة بيروت ١٩٠٨.

٥١- المارودي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، توفي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥١م.

- الاحكام السلطانية، طبع القاهرة ١٢٩٧هـ.

.. ادب الوزير، طبع بيروت

- ادب الوزير، طبع بيروت.

- ادب الدنيا والدين، طبع القاهرة.

مجهول:

٥٢- العيون والحدائق في اخبار الحقائق، النسخة المصورة بالأوفست،

المثنى بغداد، عن طبعة بريل ١٨٦٩.

٥٣- مجهول،

- اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي، طبع بيروت سنة ١٩٧١.

مجهول:

٥٤- اخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، مدريد ١٨٦٧م.

٥٥- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، توفي سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ أجزاء، طبع التجارية ١٩٥٨ وطبعة بربه دي مینار روبالیه دي کرتاي، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٣.

٥٦- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، توفي سنة ٢٦١هـ/٨٧٥م

- الجامع الصحيح، ٨ أجزاء، طبع القاهرة ١٣٢٩-١٣٣٢.

٥٧- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، طبع القاهرة سنة ١٩٥٦.

- ٥٨ - المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد، توفي
٣٨٨هـ / ٩٩٧م .
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع دجويه ليدن ١٩٠٦م .
- ٥٩ - المقرئزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئزي، توفي
سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م .
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، النسخة
المصورة بالاونست مكتبة المثنى، بغداد [عن طبعة بولاق] .
- ٦٠ - النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسي، توفي سنة
٢٣٢هـ / ٨١٧م .
- كتاب فرق الشيعة، طبع المطبعة الحيدرية، النجف، سنة ١٣٥٥هـ /
١٩٣٦م .
- ٦١ - النويري، أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن محمد شهاب الدين،
توفي سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م .
نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة .
- ٦٢ - الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن
داود، توفي سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٦م .
- ملة جزيرة العرب، جزءان، طبعة دافيد ميلر، ليدن ١٨٩١م .
- ٦٣ - الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، توفي - سنة
٢٠٧هـ / ٨٢٣م .

- كتاب المغازي، ٣ أجزاء، تحقيق الدكتور مارسدن جونس، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٦٤- ياقوت، شهاب الدين ياقوت من عبد الله الرومي، توفي سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م.

- معجم البلدان، في ٦ أجزاء، نشر وستفالد، ليبزج ١٨٦٦-١٨٧٣.
- ونشره محمد الخانجي، القاهرة ١٩٠٦-١٩٠٧، ١٠ أجزاء.

٦٥- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، توفي سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م.

- كتاب البلدان نشر دجويه ليدن ١٨٩٢.
- تاريخ اليعقوبي، في جزئين، طبع بيروت ١٩٦٠.

الفهرست

 Bibliotheca Alexandrina



0204092